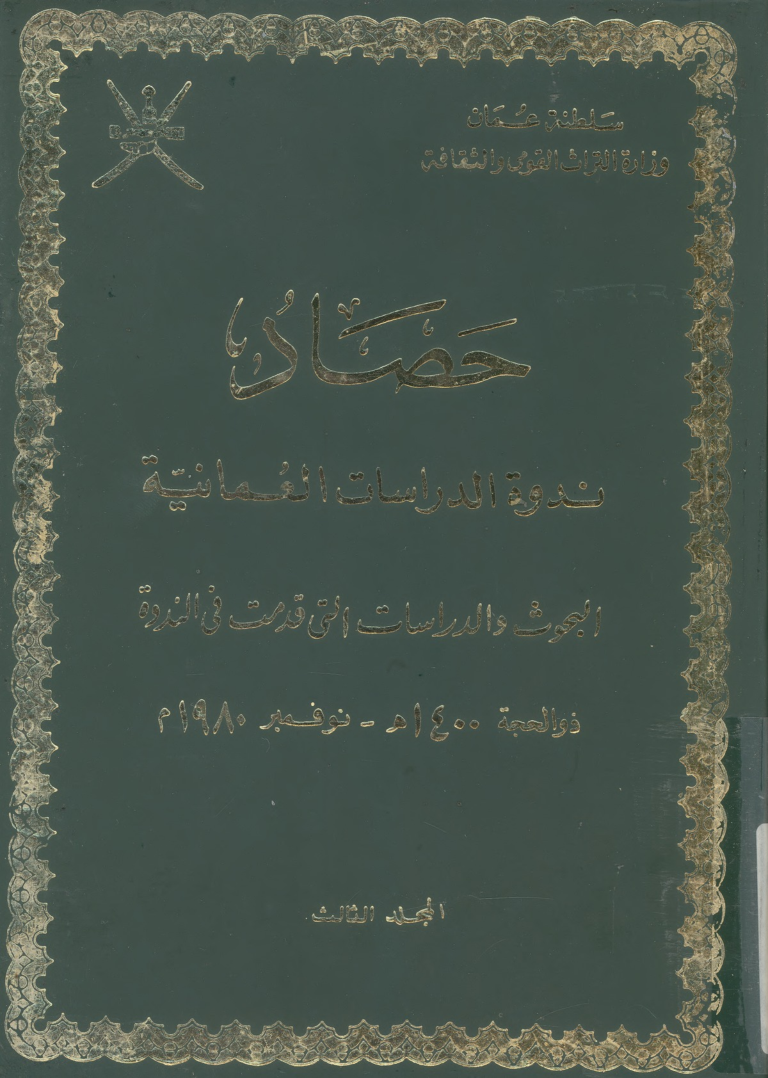
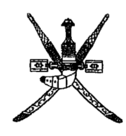
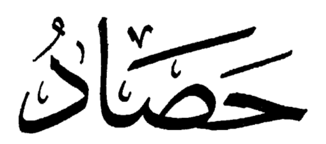


سلطنة عُمان
وزارة التراث القومي والثقافة
حصاد
ندوة الدراسات العُمانية
البحوث والدراسات التي قدمت في الندوة
ذو الحجة ١٤٠٠هـ - نوفمبر ١٩٨٠م
المجلد الثالث



سلطنة عُمان
وزارة التراث القومي والثقافة



ندوة الدراسات العُمانيّة

ذو الحجة ١٤٠٠هـ - نوفمبر ١٩٨٠م

الطبعة الثانية

المجلد الثالث

١٤٠٦هـ - ١٩٨٦ م

الآراء والمعلومات الواردة فى البحوث

تعبر عن راى الباحثين وعلى مسئوليتهم

تاريخ عُمان ونشاطها الداخلى
من مطلع الإسـلام حتى الآن .

الأفلاج العُمانية ونظامها

بدر بن سالم العبري

الأفــــلاج

إن سلطنة عمان بصفتها بلداً زراعياً مهماً بفضـــل تربة أراضيها الخصبة ، وبحكم موقعها الجغرافى المتاخم لخط الاستواء مما جعلها تتمتع بميزة تقلب الفصول فيها بين بارد شتاء وحار صيفا . ومتوسط المناخ فى بعض مناطقها .

ومن هنا نجد أن الزراعة فى عمان مستمرة الإنتاج على مر الفصول فى السنة القمرية . وعلى اختلاف أنواع المحاصيل . أى أن كل فصل من فصول السنة يكون صالحاً لنوع من أنواع الزراعة .

وحيث أن كل بلد زراعى لابد وأن تتوفر فيه مياه الرى بصفة عامة . لأن المــاء هو العامل الأساسى لحياة المخلوقات كلها ســواء فى ذلك الحيوانات والنباتات . قال الله سبحانه وتعالى : « وجعلنا من الماء كل شىء حى » فلا حياة لهذه الكائنات بدون المــاء .

وبما أن كل قطر من الأقطار تختلف فيه مصادر الميــاه العذبة ، فبعضها تكون حياته الزراعية على المطر ، وبعضها على الأنهار التى تستمد مياهها من الثــلوج المترســبة فى المرتفعات الجبلية البــاردة ، وبعضــها على الســدود التى بنيت من أجل تخزين مياه الأمطار الموسمية فيها لكى تمد الحقول الزراعية المنتفعة من مائها ، وبعضها على الآبار الجوفية فى المناطق المتوفرة بها المياه الجوفية والبعض الآخر على الأفلاج النموذجية ـــ وهذا هو مقصودنا فى هذا البحث ـــ فإن سلطنة عمان هى الإقليم الوحيد الذى يوجد فيه الأفلاج ويعتبر هذا النظام فريداً من نوعه فى العالم وقد يوجد قليل منه فى إيران .

والفلج فى العرف العمانى هو الماء الجارى عبر قناة مشقوقة فى الأرض ، مصدره المياه الجوفية الموجودة فى باطن الأرض ، وهى بقايا مياه الأمطار والتى تمكث فى خبايا طبقات الأرض ، وقد ذكرها القرآن الكريم فى قوله تعالى : « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » فسبحان البديع فى صنعه الحكيم فى تدبيره ، الواسع فضله .

وهذه المياه المترسبة فى جوف الأرض يكون مصدرها الرئيسى هو المرتفعات الجبلية والتى تكون بمثابة خزان ينفق مخزونه بطريقة منتظمة من خلال قنوات تنساب فيها المياه إلى منخفضات السهول والقيعان .

وقد اتجه المفكرون العمانيون القدامى لاستخراج هذه المياه وإبرازها على سطح اليابسة للانتفاع بها ، فقاموا بوضع هندسة كلفتهم الكثير من الوقت والكثير من المادة حتى توصلوا إلى الهدف ، ونجحوا فى عملهم هذا نجاحا باهراً ، يوحى لنا أنه كان عن مهارة فائقة وهندسة عجيبة ، فكانت لهم تاريخا مخلدا يبقى على مدى الزمان ومر العصور .

وهذه الهندسة دقيقة فى تكوينها ، عظيمة فى إنشائها وضعتها موهبة الإنسان العمانى ، وقاستها بمعيار عقلى ، ووزنت مقاييسها بميزان علم تطبيقى مستمد من تجارب تفكيرية عقلية .

وأول البدء فى المشروع هو إلقاء الضوء من المفكرين على منطقة ما تتوفر فيها العوامل الجغرافية على النحو التالى :

١ — وجود مناطق جبلية مرتفعة تستقطب أكثر المياه التى تنزل من الأمطار فتتجمع فى طرف واحد فتفيض إلى منحدرات ترابية تكون صالحة للتكوين الجيولوجى فيها .

٢ ــ توفر معلومات عن وجود مخزون من المياه التى تخلفها الأمطار السنوية سواء أكانت أمطاراً موسمية أو غير منتظمة الهطول ، فقد لا تتوفر هذه المياه فى بعض المناطق رغم وجود مرتفعات وأودية بحكم أرض الوادى إذا كانت صخرية لا تتسرب منها مياه الأمطار إلى باطن الأرض •

أما الأودية الرملية المختلطة بالتراب فهذه هى التى تختزن فى باطنها المياه وتشكل المستنقعات فى قيعانها وهى التى تكون صالحة لشق فلج يمتص المياه الماكثة فى طبقاتها ويستوعب مجاريها الرئيسية عبر القناة التى تكون غالبا على ضفاف الوادى •

ثم تأتى مرحلة تنفيذ شق الفلج ، وذلك بعد التأكد من صلاحية المنطقة وتوفر العوامل المطلوبة فيها ، ومن ثم يقوم المهندسون برسم قياس بتفكيرهم وليس برسم خريطة تبين الموقع ، وقبل كل شىء يقومون بحفر أول بئر فى أقصى الحد المطلوب منه المــاء فى الأرض المرتفعة لكى يقفوا على مسافة عمق المــاء فيها فإذا وجدوه مثلا فى عمق عشرة أمتار ، قاموا بتخطيط المسافة السطحية المؤدية إلى المنخفضات ، فإذا كان مستوى السطح قليل الانحدار فستكون المسافة المحددة لاستخراج الماء فيها طويلة تبلغ تقريبا ألفى متر أو أكثر واذا كان مستوى السطح كثير الانحدار فستكون المسافة قصيرة لا تتجاوز الألف متر •

فإذا انتهت مرحلة القياس الهندسى ، بدءوا بشق أخدود على السطح ويبدأ هذا الأخدود من الحد النهائى للمسافة المقررة ومن الحد الأدنى للمنطقة المطلوب لها الماء ، ثم يواصلون شق ذلك الأخدود وهو متعمق تدريجيا حسب ارتفاع سطح الأرض بحيث تكون قاعدته الأرضية مستوية قابلة لجريان المــاء فيها ، فإذا بلغ عمقه حوالى ثلاثة أمتار مثلا فإنهم

وهنا تبدأ هندســـة أخرى وهى أن ذلك الاخدود حينما يحتفى فى عمق حمسة أمتار مثلا فى باطن الأرض أصبح بحاجة الى تهوية ليكون العاملون فى الأخدود يتمتعون بكمية وافرة من الأكسجين الهوائى . ولذلك اخترعوا هندسة آبار صغيرة ويسمونها ثقاب والبعض يسميها فرض جمع فرضة وتكون هذه الآبار متصلة بالأخدود بحيث تأتيه من إحدى جوانبه ولا تأتيه من سماء سقفه لئلا تشكل عليه خطراً وتكون المسافة بين البئرين مقدار عشرة أمتار وبهذه الآبار أو الثقاب حصلت فائدة الأكسجين من ناحية والوصول الى الأخدود من ناحية أخرى بدلا من الخوض فيه من منبعه . وتسير العملية هكذا حتى يصلوا بالأخدود إلى البئر النموذجية القياسية .

وفى خلال عملية شق الأخدود قد يجدون عدة ينابيع تنبجس فى ظرف الأخدود حتى إذا وصل الشق إلى البئر المذكورة اجتمعت المياه التى حصلوا عليها فى ظرف الأخدود ، وكونت فلجاً متدفقاً بمياهه العذبة فيكون الفلج فى كبره وصغره حسب كمية المياه الجوفية المخزونة فى تلك المنطقة .

هذه عملية شق الأفلاج الرئيسية ، وهناك عملية أخرى للأفلاج الصغار التى تروى القرى الصغيرة المتواجدة على ضفاف الأودية الكبرى التى تظهر المياه على سطحها بصورة مستمرة فهذه تشق لها ساقية فى باطن الوادى يتراوح عمقها ما بين المتر إلى ثلاثة أمتار وبعضها أعمق ، ويسمى هذا الفلج « قبيل » مأخوذ من قبل الشىء يقبله بالتخفيف أى جعله يقبل الى الجهة التى أراده لها .

وهذه كثيرة الوجود فى عمان لكنها محـــــدودة البقاء وكثيرا ما تتأثر بالجفاف فى فترة انقطاع الأمطار فحينما ينقطع ماء الوادى تجف مياه هذه الأفلاج ولها أحكام تختلف عن أحكام الأفلاج الرئيسية ، فلا يجوز تعميقها أو توســـيع جداولها أو تغيير منابعها لان ذلك يضر بالآخرين .

أما الأفلاج التى تنبع من سفوح الأودية فهذه عيون طبيعية وهى غزيرة جداً لأنها لا تحتاج إلى عمل وجهد ، وهذه هى التى ذكرها الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز بقوله « وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار » وتتميز بخصوبتها فهى لا تتأثر بالجفاف ولا تزيد ولا تنقص . وبعضها معدنى شديد الحرارة مثل حمام الرستاق .

أحكام تقسيم الرى بماء الأفلاج

قد تختلف أحكام تقسيم الأفلاج بين فلج وآخر إلا أن معظمها يتفق مع العرف المعمول به فى القرية ، والأكثرية تكون حسب الأحكام التالية :

١ — يقدر مدار الوقت الذى يجب أن يحصل المواطن فيه على نصيبه من الماء على مقدار ما تستطيع أن تعيشه المزروعات من الأيام . ونجد أن الحد الأقصى هو عشرة أيام بلياليها : والحد الأدنى هو أربعة أيام . والأكثرية على مدار ثمانية أيام ، ويراعى فى ذلك تربة المنطقة فإن بعضها حار والسبب أن التربة تكون خليطة بالرمل والحصى ، فمثل هذه لا تتحمل المزروعات فيها أكثر من أربعة أيام وإلا فإن النباتات والأشجار ستكون ضعيفة الإنتاج ، وبعض التربة باردة وهى التى تكون غير مختلطة بالرمل والحصى وتكون طبقة التربة كثيفة جداً وهذه تستطيع الأشجار أن تعيش فيها بدون أى تأثر إلى مدة عشرة أيام فأكثر ، ومن هنا قدر خبراء الأفلاج تقسيم الماء بين المواطنين بالقرية مراعين فى ذلك واقع التربة .

٢ — ولنذكر مثلا الفلج الذى يكون دورانه على مدار ثمانية أيام بلياليها فجعلوا الأيام الثمانى ستة عشر بادة أى أن النهار بادة والليل

بادة ، وقسموا البادة إلى أربعة وعشرين أثرا ، أى اثنى عشر ساعة كل نصف ساعة يسمى « أثر » ، كما قسموا الأثر أربعة أقسام ، وكل قسم يسمى « ربعة » ، وقسموا كل ربعة إلى ست قياسات ، فالأثر معهم أربعة وعشرون قياسا ، وعندهم أيضا أرباع البادة ويسمونه الربع وهو ٦ آثار .

وهنالك تسميات أخرى عند بعض الناس فيسمون اليوم الكامل « ردة » وتجمع على « ردات » ، وقد جمع بعض الشعراء ردات فلج بلاده فى بيتين من الشعر فقال :

ردات نهر بلادنا الحمرا أتى
تعدادها فى بيت شعر مفصح

مسعود يعرب إذ يهنى خلفا
بالناعبى وعلى الصغير الشرمحى

ويعنى أن ردات فلج بلاده ثمان ، وقد سميت باسم الأسر القاطنة فى البلاد وهم حسب التتابع :

— أولاد مسعود .

— أولاد يعرب .

— أولاد مهنا .

— أولاد خلف .

— أسرة النعب (وهى قبيلة عريقة منها العلامة الكبير الإمام بوسعيد الكدمى الناعبى) .

— أولاد على •

— البادة الصغيرة (وهذه مرجعها الفلج نفسه أى أن ماءها يقعد بالمزاد العلنى أسبوعيا ويستقعده الذين لا يكفى ماؤهم لرى مزروعاتهم) •

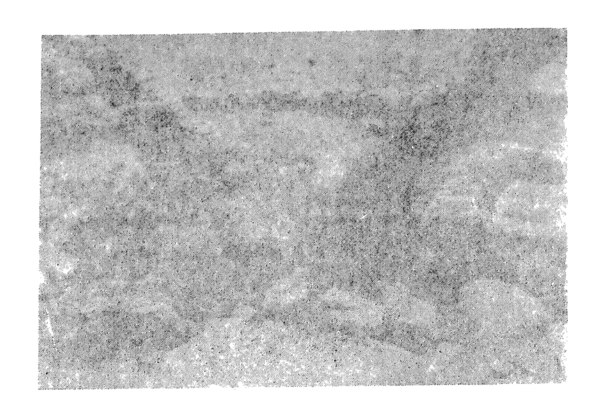
— أسرة الشرامحة •

بقى أن نبين سبب تسمية الردات المذكورة بهذه الأسر ليتضح للقارىء الكريم معرفة أحكام تقسيم الفلج فى بداية وجوده •

ولاشك أن الحمراء حديثة عهد فقد شق فلجها فى الستينات من القرن الحادى عشر الهجرى وذلك فى عهد الإمام سلطان بن سيف اليعربى ثانى أئمة اليعاربة وحينما جرى ماء الفلج وبدأت الزراعة ، قسمت الأراضى الزراعية لسبع أسر كانت متواجدة آنذاك فى تلك المنطقة فأعطيت كل أسرة ردة من الردات السبع التى تكوّن وتركّز عليها تقسيم الفلج •

كما قسمت الردة التى تضم بادتين لأفراد الأسرة حسب التكافؤ فى الأفراد وقد روعى فى توفير النصيب وتقليله المسئوليات بين أفراد الأسرة •

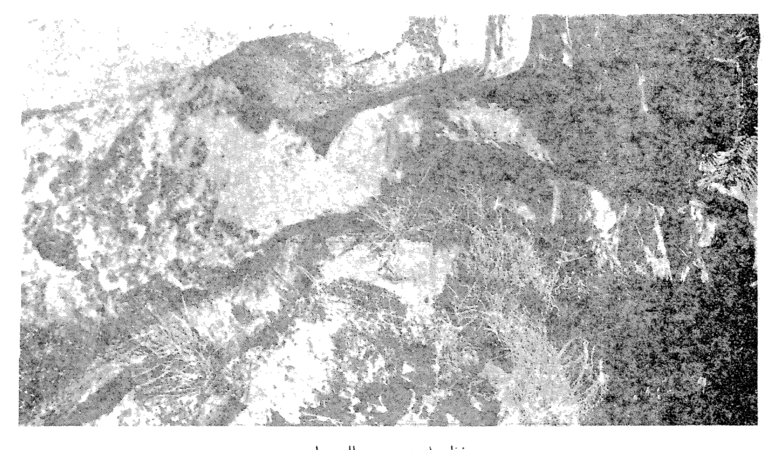
ولما كان فلج الحمراء من أهم افلاج عمان ، فإننا نقدم فيما يلى بعض صور لهذا الفلج العظيم : —



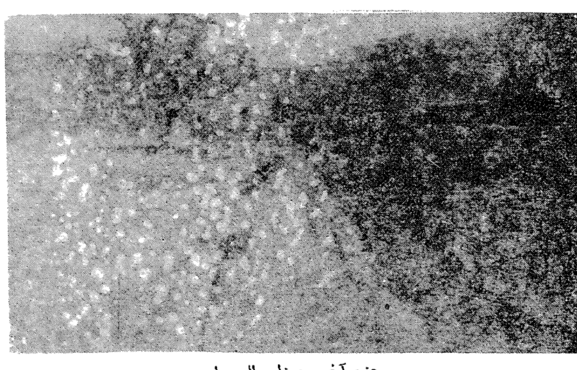
منبع فلج حمراء العبريين حيث ينقسم الى ساقيتين رئيسيتين



جزء من فلج الحمراء يوضح احدى الساقيتين



منظر لجانب من الحمراء



جزء آخر من فلج الحمراء

أحــكام تقسيم ماء الفلج وضبط الوقت لذلك

يتركز تقسيم المــاء بين الأفراد على علم دقيق وخبره ومهارة لا يتقنها إلا القليل من الناس ، وتأتى تلك الخبرة بحكم الممارسة فى العمل وتكون على ضابطين أساسيين[١] :

١ — الضـــابط الليلى :

وهى النجــوم وهذا يحتاج إلى خبرة دقيقة جدا . فقد جعلوا لكل نجم تسمية معروفة عند الجميع . وحصروا عدد النجوم المتعارف عليهــا وقدروا الوقت والمسافة بين كل نجمين . وقد تتفاوت المسافات بحيث يكون بعضها مســافة ثلاثة آثار أى ساعة ونصف من الوقت . وبعضها مسافة أثرين أى ساعه واحدة . وبعضها أثر واحد أى نصف ساعه وبعضها أقل أى مسافة ربع أثر .

لكن ما هى هذه التقديرات ؟ وبأى عامل قاسوها ؟ وقياس ذلك بين طلوع نجم والذى يليه ، فالمسافة من وقت طلوع النجمين هى المقدرة عندهم بهذا التقـــدير .

ولكن من أين عرفوا هذا التقدير والقياس حتى جزموا به واتفقوا عليه ؟ كل ذلك سوف نشرحه مفصلا فى فقرة أخرى تتضمن جميع التفصيلات وتعطى الضوء الواضح إن شاء الله .

---

(١) من هنا الى آخر البحث يورد المؤلف تفاصيل دقيقة عن وسائل توزيع مياه الأفلاج اعتمادا على الشمس أو النجوم ، وكان يمكن للمؤلف أن يشير الى النظام القديم اشارة سريعة دون ايراد هذه التفاصيل الدقيقة المعقدة التى توقف العمل بها بعد ظهور الساعات كما ذكر المؤلف فى آخر البحث ، لكن المؤلف أراد أن يدون النظام القديم كجانب من التراث (د. شلبى) .

٢ — **الضـــابط النهـارى :**

وتسمى محاضرة النهار — وقد قسموا وقت النهار إلى أربعة وعشرين أثرا — أى — اثنى عشر ساعة ، ووضعوا لهذا التقسيم معياراً زمنياً وربطوه بمعيار تطبيقى ، فاختاروا للتطبيق بقعة صالحة لتخطيط خريطة التقسيم بشرط أن تكون هذه البقعة مستوية السطح لا عوج فيها ، ولا ارتفـاع ولا انحدار وأن تكون مقابلة لأشعة الشمس من حين ما تطلع إلى أن تغرب وقدروها فى حدود عشرة أمتار طولاً وعشرة أمتار عرضا وبعضها أكثر ، وأن تكون غير معرضة لظل بناء أو شجرة .

ثم نصبوا فى وسطها عموداً خشبيا طوله قدر مترين ونصف ثم خططوا تلك البقعة بخطوط قياسية منظمة ، وقدروا المسافة بين الخطين بمقدار ما يستغرق مجرى ظل ذلك العمود أثرا من الوقت ، أى نصف ساعة ولكن بتفاوت فى المسافة على جريان ظل ذلك العمود .

فمثلا الظل فى منتصف النهار سيكون جريانه بطيئا بخلاف جريانه وقت الصباح ووقت المســاء ، فتكون المسافة حينئذ فى منتصف النهار قريبة ، ثم تتضاعف تلك المسافة إلى أن تصبح فى آخر النهار أضعاف المسافة فى وسط النهـار علماً بأن تقدير الوقت فى تلك المسافات سواء ، ثم ربطوا تلك الخطوط بعلامات حجرية تكون ثابتة دائما ومثبتة لتلك الخطوط ، نظراً إلى أن الخطوط معرضة للتغيير من جراء عوامل الزمن ، ولكن تلك العلامات تبقى لا تتغير ولا تتبدل .

وجعلوا هذه العلامات على ثلاثة جداول :

جدول فى الوسط ، وجدول على جنوب العمود ، وجدول على شمال العمود . وذلك مراعاة لتغيير الفصول وانتقال الشمس فى مجاريها الصيفية والشتائية ، ثم قسموا المسافة بين الخطين إلى أربعة أقسام صغيرة ،

وجعلوا بين الأقسام علامات مميزة ، وقدروا المسافة بين العلامتين بحوالى ربع أثر من الوقت أى ثمن ساعة وسموها ربُعة بضم الباء . وأطلقوا عليها اسم المحاضرة من حضـــور الشيء إذا دنى أو برز ومعناها أن كل إنســـان له نصيب من ماء الفلج فليحضر لاستلام نصيبه فى الوقت المحدد له بواسطة المحاضرة المذكورة إذا كان دورانه نهارا ، وذلك حينما يصل ظل العمود إلى الخط المقرر لابتداء نصيبه فيذهب حينذاك حاملاً فى يده ورقا من الشـــجر مقطعاً قطعاً صـــغيرة ويرمى بها فى نقطة معينة من جدول الفلج •

ثم يتابع ذلك الورق الذى يجرى به الماء فى ظرف الجدول وتسمى الساقية إلى أن يصل المقر الذى يريد أن يسقى به مزروعاته فيفتح له الفتحة التى تؤدى إلى بستانه الخاص ، ويسمون تلك الفتحة « صورا » ، ويمنع جريانه من باطن الساقية بلوح سواء كان خشبياً أو حجريا ، ويسده بالطين سداً منيعا فيستمر فى السقى بماءه طيلة الوقت المحدد لنصيبه قل أم كثر حتى يأتى دور نصيب غيره ويعمل مثل ما عمل الأول ، وهكذا تكون عملية تقسيم ماء الفلج بالضابط النهارى وقد تكون هنالك اصطلاحات أخرى وسوف نبحثها إن شاء الله تعالى •

وهنالك أفلاج يختلف حكم تقسيمها عما ذكرناه فقد قسموها سهاماً وجعلوا كل سهم مقابل أثرين ونصف أثر وربطوا كل سهم بقطعة من الأرض المزروعة فيصير تابعا لها فى ملكيته وسواء تبدلت هذه القطعة من مالك إلى آخر ببيع أو إرث ، فإن السهم مرتبط بها فى التبعية ، وليس لأحد أن يتصرف فى هذا الماء بأية طريقة كانت فلا يقعد (يؤجر) ولا يبيع ، ولو أراد أن يفعل ذلك فان النظام العام يمنعه من هذا التصرف •

الضـــابط الليـــلى

لقد نجح المفكرون العمانيون فى تقسيم الوقت فى النهار لتوريع مـــاء الافلاج بين أربابها بواسطة ظل العمود الخشبى . وذلك بعد اختبارات تجريبية وقياسات عقلية . لكن هنالك سؤال لابد من جوابه وهو : إذا كانت السـماء ممطرة والغيوم تحجب الشمس فكيف يكون هذا التقسيم ؟ .

حقا إنها مشكلة .. لكن خبراء التقسيم حلوا هذه المشكلة بطريقة خاصة يرضى بها الجميع ، وذلك بعد ما عرفوا أن هذه البادة التى تضم أربعة وعشرين أثرا هى مقسمة لسبعة أشخاص مثلا أو أكثر أو أقل من ذلك ، وأنهم فى ذلك تتفاوت فبعضهم له ثلاثة آثار وبعضهم خمسة وبعضهم ستة .

هنا يتولى التقسيم بينهم خبير فيكون الوسط بينهم وهذا الخبير لديه المعرفة الكافية بسقى الفلج مبتحرى كم كان يسقى الأثر الواحد عددا من النخيل أو جزءا من مزرعة البرسيم أو الحنطة فمن هنا يقدر نصيب كل واحد منهم ، فإذا عرف مثلا أن الأثر الواحد يروى فى سقيه عشر نخلات وصاحب المـــاء له ثلاثة آثار أعطى ما يروى ثلاثين نخلة تحت إشراف ذلك الخبير ، كذلك فى سقى الزرع تقدر كمية ما يسقيه الأثر من مساحة أرض المزروع فدانا أو أكثر فيعطى صاحب المـــاء مقـــدار ما يرويه ماؤه ســابقا .

وبهذه الطريقة المتعارف عليها مع الجميع ســيكون قد أخذ كل واحد نصيبه غير منقوص .

محاضرة الليل أو الضابط الليلى

وكما قلت أيضا إن اتقان الضابط الليلى أو بلفظ محاضرة الليل حسب عرف المزارعين ، يحتاج إلى خبرة واسعة . ومعرفة دقيقة لا يستطيع تفصيلها إلا قليل من الناس وهم المزارعون القدامى الذين مارسوا الزراعة ممارسة تطبيقية ودرسوا شئونها ومشاكلها دراسة عملية ، وتأتى استفادتهم هذه من تلك المعرفة بحكم مزاولتهم للعمل نفسه . ويتلقون تلك المعرفة ممن سبقهم من آبائهم وأجدادهم ، ومن النادر أن هذه المعرفة توجد عند العامل « البيدار » أكثر مما توجد فى أرباب العمل « المناقرة » بل قد لا يدرك رب العمل كمية مائه ولا ضبط وقته ، والسبب أن العامل عند أرباب العقارات يتعاقب عليه الأب والابن بل والحفيد . وبإهمال الأب تعليم ولده اتكالا على العامل . فيصبح الولد لا يعرف شيئا من ذلك ألبته وهذا يحدث كثيرا بين النـــاس .

تعريف محاضرة الليل

وقد جعلوا ذلك فى ضابط زمنى محدد . ووضعوا جدولا لنجوم معروفة لديهم بأسمائها ، وأوقات طلوعها وغروبها وقدروا الوقت بين طلوع نجم وطلوع آخر ، أو بين طلوع نجم وغروب آخر بتعارف زمنى مؤقت . وحيث أن هذا التوقيت يختلف فى تحديده فى سعة الزمن وضيقه ما بين طلوع نجم وآخر ، فجعلوا لذلك تسمية معروفة لديهم بالأثر وربع الأثر .

وقد وجدوا أن أكثرها مسافة فى التحديد يبلغ مقدار ثلاثة آثار من الوقت وأقلها يبلغ أثرين . وتقسم هذه المسافة الزمنية بين النجمين بطـلوع نجم أو بغروب آخر .

إذاً ما هو تحديد المسافة بالضبط التى تبلغ ثلاثة آثار ؟ والجواب أنه إذا طلع النجم المحاضر عليه ، فإنه يرتفع فى الأفق بمقدار ثلاثة أمتار .

وقدروا لكل متر أثرا واحدا • وبارتفاعه الى هذا الحد يطلع النجم الذى يليه وهنا ينتهى مفعول النجم الأول •

إذاً فلو أردنا تقسيم المسافة بين هذين النجمين وتطبيقها عمليا فى تقسيم ماء يبلغ مقداره ثلاثة آثار حسب العرف معهم فماذا تكون القسمة ؟ الجواب أن المسافة بين هذين النجمين لها علامات تقسمها ثلاثة أقسام وهى طلوع نجمين متتاليين مثلثين للتوقيت أو طلوع نجم بمسافة ثلث الوقت وغروب آخر بقدر ثلث الوقت الآخر — فحينئذ نكون قد عرفنا هذه المسافة وتقسيمها الزمنى بين النجمين وكذلك المسافة التى تقدر بأثرين يقسمها طلوع نجم صغير بعدما يمضى من الوقت على طلوع النجم المحاضر عليه مقدار أثر فتكون المسافة الباقية من وقت هذا النجم أثرا واحدا أيضا ، وبذلك ينتصف الوقت ويسمى النجم الصغير الذى ينتصف بطلوعه وقت النجم المحاضر عليه « المنصف » •

بقى سؤال وهو كيف يجرى توقيت نصف الأثر وربعه فى الليل ؟ علماً بأن بعض المالكين للماء تكون حصتهم أثرا ونصف أثر ، وبعضهم له أثر وربع أثر ، وبعضهم له أثران إلا ربعاً •

ولفصل هذا الماء جعلوا تقديرات زمنية محددة تحديداً يفصل هذا الماء تفصيلا عدلا بحيث لا ينقص منه شىء ، وذلك بالطرق الآتية :

١ — يقدرون استقامة أحد النجوم المحاضر عليه فى كبد السماء ومعرفتهم لذلك أن يقف المحاضر على جدار مسجد مستقيم فيرفع بصره إلى السماء فحينما تلامس رؤية النجم جدار المسجد فإنه يكون قد بقى من الوقت المقدر بطلوع نجم من نجوم المحاضرة مقدار « ربعة » أو يكون قد ارتفع فى الأفق بهذا المقدار أو بتقدير آخر حوالى نصف أثر • وبهذا استطاعوا قسمة الماء بالتوقيت المبين •

٢ — التقدير بغروب أحد النجوم المعروفة • فإذا غرب ذلك النجم .

عرفوا أنه بقى من وقت طلوع النجم المحاضر عليه قدر نصف أثر من الوقت الزمنى أو ربـــع أثر أو ثمنه • وبذلك أيضا استطاعوا تقسيم الماء بهذه الطريقة فيأخذ كل ذى حق من ماء الفلج حقه •

وهناك طرق أخرى لا يمكن ذكرها أو شرحها لدقة تطبيقها •

معـــرفة النجـــوم

أسماء النجوم تختلف بعضها باختلاف المناطق ، أما ذاتها فلا اختلاف بينهم فيها ، وهى كالآتى حسب العرف السائد فى عمان الداخل :

١ ــ كوبى •
٢ ــ الموقى •
٣ ــ الغراب •
٤ ــ الأدم •
٥ ــ الصارة الأولى •
٦ ــ الصارة الأخرى •
٧ ــ الســـعد •
٨ ــ الكوكبين •
٩ ــ الثريـــا •
١٠ ــ الدبران •
١١ ــ الشـــبكة •
١٢ ــ الجوزاء •
١٣ ــ الجنب •
١٤ ــ الذراعين •

١٥ ــ البطــن

١٦ ــ الســفاع •

١٧ ــ المواتيب •

١٨ ــ الذكرين •

١٩ ــ الشــوى •

٢٠ ــ النعش •

٢١ ــ العقــرب •

فهذه واحد وعشرون نجما هى التى وقع التعارف عليها فى تقسيم
[illegible]قت وتختلف أيضا مطالعها باختلاف الفصول فبعضها يكون طلوعها أول
[illegible]يل فى الشتاء ويكون طلوعها آخر الليل فى الصيف ، بينما البعض الآخــر
[illegible]لعكس ، ومن هذا السبب يكون التوقيت متفاوتاً بين وقت وآخر •

وقد نظم أسماء هذه النجوم الشيخ على بن ناصر الريامى شــاعر
الجبــل الأخضر فى ثلاثة أبيات : يقول فيها :

كوى موف الغراب الادم صــارا	وصار أســعد كوكبها الثــريا
ودبر شبكة الجــوزا شــعار	وجنب ذراع يطوى البطن طيــا
وســفع مواكب الذكرين غفــر	وقد مطــرت على العقربيــا

تفصيل دليل النجوم المحاضر عليها نقلا من خط الشيخ الفقيه سعيد
ابن صالح العبرى •

* **العقــرب** : جملة نجوم معترضة من جهة سهيل على الجانب النعشى ، مطلعها من جهة المشرق على الجانب السهيلى وهى ثلاثة آثار ، أى مقدار وقتها الزمنى ساعة ونصف ، طلوع نجم نير متوسط بين نجمين هما أدق منه يسمى المنصف مضى أثر ونصف منها = أى العقرب ومطلعه من مطلعها هى ، وطلوع العقرب علامة لغروب **الدبران** •• والله أعلم •

* **كــــوى** : نجم نير له ثلاثة آثار ، مطلعه من الجانب النعشى من هده النجوم المتقدم ذكرها ، يعقبه طلوع نجم هو أدق منه ، أى أصغر حجما ، مطلعه من الجانب النعشى من مطلع كوى بشىء يسير ، بعده يكون قد مضى من وقت كوى أثر ونصف وهذا يسمى المنصف أيضا أى يكون طلوعه فى منتصف الوقت الزمنى لنجم كوى ، وعند طلوع كوى يكون حينئذ غروب الشعرى السهيلية ، فإذا ارتفع — أى نجم كوى — قدر ربع أثر ، يكون حينئذ غروب نجم العيق الذى يتقدم الدبران ، ومــع غروب نجم الشعرى النعشية فحينئذ يمضى من وقت كوى أثران — أى ساعة — والله أعلم •

* **المــوفى** : هما نجمان نيران ، أحدهما مطلعه من جهة المشرق والثانى من حيث مطلع كوى ، له أثران ، يتقدمه فى الطلوع نجم يكون مطلعه من حيث طلوع الموفى النعشى قريباً منه من جهة المشرق ، ومطلعه متوسط بين مطلع الموفى الشرقى والموفى النعشى •

وأكثر الاعتبار بالموفى الشرقى منهما ، ومع طلوع نجم الموفى يكون النجم الذى يتقدم الذكرين فى كبد السماء ، فإذا صار نجم الذكرين فى كبد الســماء فحينئذ يمضى من الموفى أثر • والله أعلم •

* **الغــراب** : جملة نجوم دقيقة ، له أثران ، مطلعه بجهة المشرق من مطلع الموفى الشرقى بجانبه من الجهة النعشية بقليل ؛ يعقبه نجم أدق

يطلع من حيث مطلعه هو • وبطلوع هذا النجم يكون حينئذ قد مضى أثر • وهذا يسمى منصف الغراب • وبانتهاء الوقت الزمنى للغراب يكون النجم الذى يعقب الذكرين فى كبد السماء • والله أعلم •

* **الأدم** : نجم دقيق مطلعه بجهة المشرق من حيث مطلع الغراب ، له أثران • يعقبه طلوع نجم بعدما يمضى من وقته أثر ويسمى منصف الأدم ، ومطلعه من حيث مطلع الأدم ، وإذا صار نجم الغفر فى كبد السماء فحينئذ يكون الوقت قبيل طلوع الأدم بربع أثر ومع غروب الأول من الذراعين ، فإنه يكون قد مضى من وقت الأدم أثر • والله أعلم •

* **الصارة الأولى** : نجم متوسط فى نوره ، له أثران ومطلعه نعشى مطلع الغفر ، يطالعه نجم يطلع غربى مطلع بنات نعش ويعقبه نجم مطلعه بجهة المشرق ، يبعد عن مطلع الصارة بمقدار مترين فى رأى العين ، فحينئذ يمضى من الصارة نصف أثر ثم يعقب هذا النجم طلوع نجمين نيرين مطلعهما حيث يطلع النجم الذى يطالع الصارة حيث غربى بنات نعش ، وحينئذ يمضى من الصارة أثر وربع ، ويتقدم طلوع الصارة من حيث مطلعهما مباشرة نجم نير قبلها بنصف أثر • والله أعلم •

* **الصارة الثانية** : وهى نجم أكثر استنارة من الصارة الأولى ، له أثران ، مطلعهما نعشى مطلع الصارة الأولى بمقدار قليل ، لها منصف أدق منها ، ومطلعه حيث مطلعها هى من جهة النعش ، وبطلوعه يمضى من وقتها أثر كما يطلع بعدها نجم مطلعه مطلع النجم الذى ينصف الصارة الأولى من جهة الشرق وبطلوع هذا النجم يمضى من وقت الصارة الثانية ثلاثة أرباع أثر • والله أعلم •

* **السعد** : وهو نجم نير ، له أثران ، مطلعه نعشى مطلع الصارة الثانية بمقدار متر ونصف فى رأى العين يعقبه طلوع نجم مطلعه بالجانب

النعشى منه بمقدار متر ونصف حسب رأى العين يماثله فى الاستنارة ، فحينئذ يمضى منه أثر ، وحين طلوع السعد يكون كوى فى كبد السماء وإذا غرب الذكرين السهيلى والأول من نجوم بنات نعش فهو وقت لطلوع السعد ، والله أعلم .

* **الكوكبين** : (هكذا) نجمان متقاربان ، والنعشى منهما أكثر إنارة السهيلى ، له ثلاثة آثار ، مطلعه بجهة المشرق ويعقبه طلوع نجم بالجانب النعشى عنه بقدر ذراع فى رأى العين وهو نير ، وبطلوع هذا النجم يكون قد مضى من وقت الكوكبين ربع أثر .

ثم يعقب ذلك طلوع نجمين أحدهما مطلعه حيث مطلع كوى والثانى منهما مطلعه حيث مطلع عين الدبران ، وحينئذ يمضى من الكوكبين أثر وربع ، ثم يعقب هذين النجمين طلوع نجم دقيق مطلعه حيث مطلع الكوكبين ، وبطلوع هذا النجم الدقيق يكون غروب الذكرين النعشى وحينئذ يكون قد مضى من وقت الكوكبين أثر ونصف ، واذا صار الموفى السهيلى فى كبد السماء فذلك علامة أنه قد مضى من الكوكبين قدر ربع أثر . أو يزيد شيئا يسيرا ، فإذا غربت السابقة من بنات نعش فحينئذ قد مضى من الكوكبين أثرين وربع أثر ، وكذلك مع غروب الرابعة من بنات نعش فهو علامة طلوع الكوكبين والله أعلم .

* **الثريـــا** : جملة نجوم متقاربة لها أثران مطلعها حيث مطـلع الكوكبين من جهة النعش ، تتقدمها نجم قبلها بربع أثر مطلعه حيث مطـلع كوى ، وهو نجم متوسط فى الاستنارة ثم يعقبها طلوع نجم من حيث مطلعها هى ، متوسط فى الاستنارة وبطلوعه يكون قد مضى من وقت الثريا ثلاثة أرباع أثر ، ثم يعقب هذا النجم طلوع نجم بجهة سهيل عن مطلع الثريا ، وحينئذ يكون قد مضى من الثريا أثر . وهذا النجم الأخير

هو الذى يسمى منصف الثريا ، وإذا صار الأدم فى كبد السماء فحينئذ يكون قد مضى من الثريا أثر أو يزيد قليلا • والله أعلم •

* **الدبـــران :** نجم نير له أثران ، مطلعه بالجانب السهيلى من مطلع الثريا بمقدار متر ونصف ، يتقدمه طلوع نجم يسمى عيق الدبران ، وهو أنير منه ، مطلعه بجانب النعش عن مطلع كوى وقد اصطلحوا فى تقدمه عن ربع أثر ، ثم يعقب الدبران طلوع نجم يقارب الدبران فى استنارته مطلعه ما بين الدبران والعيق يسمى المنصف ، وبطلوع هذا النجم يكون قد مضى من الدبران أثر ، ثم يعقب هذا النجم طلوع نجم بجانب سهيل يبعد عن مطلع المنصف بمقدار متر ونصف ويقارب فى استنارته المنصف ، وبطلوع هذا النجم يكون قد مضى من المنصف نصف أثر • والله أعلم •

* **الشبكة :** جملة نجوم صغيرات متقاربة من بعضها البعض لها أثران ومطلعهـــا من جهة المشرق ســـهيلى مطلع الدبران بمقـــدار متر ونصف ، يتقدمها طلوع نجم بجهة سهيل يبعد عن مطلع الشبكة بمقدار نصف متر وهو نجم نير ، وقد اصطلحوا فى تقدمه عن ربع أثر ، ثم يعقب الشبكة طلوع نجم نير يسمى المنصف مطلعه من حيث مطلعها وبطلوعه يكون قد مضى من الشـــبكة أثر • والله أعلم •

* **الجـــوزاء :** نجم نير له أثران ، مطلعه من حيث تطلع الثريا ، يعقبها طلوع نجم نير يسمى المنصف ، مطلعه من حيث مطلع منصف الدبران ، وبطلوع هذا النجم يكون قد مضى من الوقت الزمنى للجوزاء أثر ، ثم يعقبه نجم نير يماثله فى الاستنارة مطلعه من حيث مطلع المنصف يسمى الذراع وبطلوعه يكون وقت طلوع الشعرى السهيلية ، وحينئذ يمضى من المنصف نصف أثر وإذا غرب كوى فبغروبه يكون قد مضى من الجوزاء أثر ونصف • والله أعـــلم •

* **الشعرى النعشية :** وهى نجم نير له أثران ، مطلعها من جهة المشرق من حيث مطلع الشبكة ، يعقبها طلوع نجم يسمى المنصف أصغر حجما من الشعرى ، مطلعه بالجانب النعشى عنها بمقدار متر ونصف تقريبا . وبطلوع هذا النجم يكون قد مضى من الشعرى أثر ، وإذا صار الكوكبين فى كبد السماء فإنه حينئذ يكون قد مضى من الشعرى ربع أثر ، كما يتقدم طلوعها غروب الموفى السهيلي بمقدار ربع أثر أو أقل من ذلك . والله أعـلم .

* **الجنب :** هو جملة نجوم مجتمعة معا له أثران مطلعه من جهة المشرق نعشى مطلع الشعرى النعشية بشيء قليل واذا طلع سهيل فحينئذ يكون قد مضى من الجنب نصف أثر يعقبه طلوع نجم أكثر استنارة من نجوم الجنب يسمى المنصف ، مطلعه من حيث مطلع منصف الدبران ، وبطلوعه يكون قد مضى من الجنب أثر ويتقدم طلوع المنصف طلوع النجم الأول من بنات نعش بربع أثر ، وعند طلوع الثانية من بنات نعش يكون قد مضى من المنصف نصف أثر ، واذا صارت الثريا فى كبد السماء فحينئذ يمضى من الجنب أثر ونصف .

كما أنه يكون حينئذ غروب الموفى النعشى . والله أعـلم .

* **الذراعين :** (هكذا) وهما نجمان مفترقان بمقدار متر ونصف بينهما ، كما أنهما معترضان نيران ، له أثران ، مطلعه بجانب المشرق نعشى الجنب بمقدار متر ونصف فى رأى العين ، يتقدمه طلوع نجمين دقيقين مفترقين أمام النعشى من الذراعين بربع أثر ثم يعقب الذراعين طلوع أدق منهما ، مطلعه من حيث مطلع السهيلى من الذراعين ، وبطلوع هذا النجم يكون قد مضى من الذراعين أثر ويسـمى منصف الذراعين ، فإذا طلعت الثالثة من بنات نعش فإنه حينئذ يكون قد مضى من الذراعين أثر ونصف ،

وإذا صار الدبران فى كبد السماء ، فإنه يكون قد مضى من الذراعين أثر • والله أعلم •

* **البطـــن** : نجم نير له أثران • مطلعه من حيث مطلع النعشى من الذراعين يتقدمه طلوع نجم من بنات نعش بربع أثر ، ويطلع أيضا مع طلوع البطن نجم نير مطلعه غربى مطلع النعوش بمقدار سبعة أمتار ، كما يعقبه طلوع نجم أصغر من الذراعين مطلعه بالجانب السهيلى عنه بمقدار متر فقط وبطلوع هذا النجم يكون قد مضى من البطن أثر ، واذا صار النجم النير الذى يكون سهيلى الميازين فى كبد السماء فإنه حينئذ يكون قد مضى منه ثلاثة أرباع أثر • والله أعلم •

* **السفاع** : نجم نير له أثران ، مطلعه شرقى مطلع الثريا ، يتقدمه النجم الرابع من بنات النعش بربع أثر ثم يليه فى الطلوع منصف السفاع • مطلعه حيث مطلع السفاع وبطلوع هذا النجم يكون قد مضى من السفاع أثر ويتقـــدم أيضا هذا المنصف النجم السادس من بنات نعش بربع أثر ، وإذا صار منصف الشبكة فى كبد السماء فإنه يبقى من السفاع ربع أثر ، وكذلك طلوع النجم السابع من بنات نعش يبقى من السفاع ربع أثر ، لطلوع السفاع علامة وهى إذا كانت الميازين فى كبد السماء فتلك علامة طلوعه • والله أعلم •

* **المواثيب** : ثلاثة نجوم معترضة متوسطة الاستنارة • مطلعها فى أقصى الشرق الجنوبى • له أثران يطالعها نجم نـــير مطلعه مطلع النجم النعشى من نجوم المواثيب وبطلوع هذا النجم يكون قد مضى منها أثر ونصف وتكون حينئذ الشوى النعشية فى كبد السماء • والله أعلم •

انتهى ما كتبه القاضى الفقيه ســـعيد بن صالح العبرى رحمه الله •

بقى أن هناك تعارفا آخر فى أسماء النجوم يختلف باختلاف المناطق ، علماً بأن نظامها واحد لا يختلف وإن اختلفت أسماء النجوم •

ولا يفوتنا أن بعض الأفلاج لها معرفة قديمة نادرة • وذلك مثل فلج الحمام فى الرستاق فإن الضابط النهارى يختلف قياسه ، وان كان القسمة سواء فمثلا يقال أثر ما قبل الغاربة • أو أثر ما قبل الشارقة فهذه تكون مسافتها الزمنية طويلة بحيث تكون مقابل أثرين أو أكثر •

كما أنها توجد آثار منه فى وسط النهار تكون مسافتها ربع مسافة ما قبل الغاربة •

والآن وقد برزت الساعة بأشكال مختلفة فاغنت النـــاس بتقسيمها للوقت عن تلك التقسيمات السابقة • والضوابط المتعارف عليها •

وقد وجدت كلاما مختصرا يتضمن أحكام تقسيم الأفلاج فى سقى المزروعات حسب العرف العمانى وذلك فى كتاب نشاء الجوهر فى علم الشرع الأزهر للشيخ العلامة الجليل أبى مسلم ناصر بن سالم الرواحى ما نصه :

« قلت • آد • فى اللغة مال ورجع وأصله من مادة أود كفرح بمعنى أعوج • وفى عرف العرب العمانيين ، الآد الشرب للأراضى المعمورة ينوبها فى وقت مخصوص على دور معلوم •

وهذا الأد قسط منالعين الجارية مقدراً بالساعات الفلكية فى النهار بالظلال • وفى الليل بالنجوم وهى نجوم معلومة معهم • أكثرهم من المنازل القمرية فيقدرون أقساط الشرب من طلوع نجم إلى طلوع آخر وما بين الطلوع الى الطلوع ساعة فلكية ، ونصف تلك الساعة يسمونه أثرا ، ونصف الأثر يسميه بعض ربعة أثر • وبعض ربع أثر • فيقدرون الآثار وأجزاءها

بالحرز والتخمين فى الليل وباقيسة مقدرة يخطونها فى الأرض للظلال نهارا • فإذا غم عليهم الليل والنهار بسحاب يحجب الشمس والنجوم حملوا ذلك على الحرز والتخمين بناء على تعارف أجازوه فيما بينهم ، ومنذ غروب الشمس إلى ظهورها يسمون ذلك القسط = الغروبية ، ومنذ طلوع الفجر إلى طلوع الشمس يسمون ذلك القسط الغادى •

ويختلف التقدير فى الليل بالنجوم فى الصيف والشتاء ، فلعلهم سموا هذا القسط الدائر من وقت إلى وقت آدا وأصله أؤد لأنه مصدر آد يؤد ثم تصرفت فيه الألسن فصار آدا •

ثم إن الآد يختلف أدواره فمنه ثلاثة أيام ومنه سبعة ومنه أربعة عشر ومنه ثمانية وعشرون ويكزن أقل بحسب عادات البلاد وحينئذ يترتب الحكم بطهارة السرجين على أى آد من هذه الأواد ، إذ شتان ما بين آد ثلاثة أيام مثلا وآد ثمانية وعشرين فيقال أن المراد هنا نفس الشرب سواء طالت أيام الدور أو قصرت » •

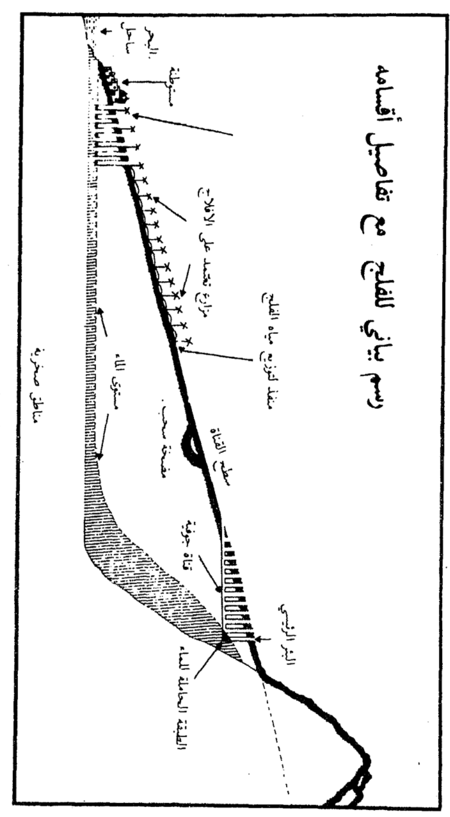
وهنا انتهى كلام العلامة باختصار وقد أوضح فيه بدقة أحكام تقسيم بعض الأفلاج التى كانت لديه بها معرفة •

وهناك أفلاج أخرى تختلف باختلاف المناطق واختلاف القرى ، ونظم الرى فيها ولنضرب لذلك مثلا إذا كانت قرية صغيرة والمالكون لفلجها قليلون بحيث تنحصر ملكيتها فى أفراد بعضهم يكون نصيبه منها بادتين وآخر بادة والبادة محصورة من طلوع الشمس إلى غروبها وبالعكس فمثلا هذه القرية لا تحتاج إلى تقسيم بضابط نهار ولا ضابط ليل •

كما توجّد أفلاج صغيرة تكال بمكيال قياسى مقدر وهى التى يجمع ماؤها فى مجمع خاص ويسمى هذا المجمع « لِجــل » بكسر الجيم ،



منبع فلج دارس بنزوى



جانب من فلج دارس بنزوى

وبعضهم يقول « جـل » وهى عبارة عن حوض كبير فمثل هذا تقسيمه يكون بهذا الحوض •

كما أن بعض الأفلاج تقسيمها بالأثر والبادة مثل غيرها لكن قياس تقسيمها بصورة أخرى ، وهى أن يؤخذ إناء من نحاس فيثقب من أسفله ثقبا مقدرا ويترك فى حوض ماء صغير بحيث يتسرب المـاء اليه من ذلك الثقب فى وقت مقدر يستغرق أثرا ، فإذا امتلأ الإناء فمعناه قد مضى من الوقت أثر ، كما أن فيه علامات لتقسيم الأثر رباعياً فكلما وصل المـاء الى علامة فمعناه مضى من الوقت ربع أثر • ويوكل هذا التقسيم الى وكيل كأمين يرضى به الجميع • وقد يساعده أمين آخر وعليهما تنظيم الرى فى البلاد فى طول اليوم والليلة وهذا النظام لا يحتاج الى محاضرة نهـار ولا ضابط ليل لأنه أشبه بالساعة •

والآن وقد تغيرت كل هذه العوامل المتصالح عليها واتجه النـاس إلى استعمال الساعة التى أصبحت المرجع الوحيد الذى يتفق عليه الناس جميعا وهى لاشك عامل عادل صالحة لكل زمان ومكان بشرط أن تكون على المستوى الصحيح فى صلاحيتها وعلى أن تكون فى يد أمينة تقدر حقـوق الناس فالأمانة فى الانسان هى الركيزة الأساسية التى يتعامل بها مع أبناء جنسه الذين يتعاملون معه بالمثل •

يبقى موضوع لابد أن نطرقه فى هذا البحث نظرا لأهميته ، وهو أن الأفلاج الكبيرة مثل فلج دارس وأمثاله لا يمكن أن يوجه فى جـدول ــ ساقية ــ واحدة إلى مزرعة ما أو الى بستان فيه زراعة ذات تنظيمات دقيقة فى زراعة البقولات والحبوب وأمثالها ، ومن هنا وضعوا مقاييس للفلج فى تقسيمه إلى عدة أقسام ، ويسمى كل قسم منها « غيز » فقسموا بعض الأفلاج إلى ثمانية غيـاز وبعضها أربعة كل فلج على حسب كبره وصغره لكن ما هى عملية التقسيم التى ترضى الجميع ؟ •

والجواب — هو أن الفلج يخرج من منبعه فى ساقية واحدة كبيرة يجرى فى طرفها حتى يصل إلى البساتين ، وهنالك يبدأ التقسيم فيفتحون من هذه الساقية فتحة صغيرة يجرى فيها جزء من الفلج مقدر تقديرا هندسيا بواسطة تلك الفتحة ، ويسمى هذا الجزء « غيز » واحد ينقص هذا الغيز بنقصان الفلج ويزيد بزيادته ، وهكذا تمشى عملية التقسيم بفتحات منتظمة إلى أن ينتهى الفلج فى الساقية كجزء واحد من تلك الأجزاء حتى إذا جاء الجفاف يبدأ ذلك التقسيم فى التقلص بحيث يصبح الفلج الذى يقسم ثمانية غياز — أربعة فقط أو أقل من ذلك .

وهنا تسد تلك الفتحات ولا يترك مفتوحا منها الا بمقدار قوة الفلج وضعفه فقد ينتهى الى غيزين فيترك له فتحة واحدة بالإضافة الى الباقى فى الساقية الأم ، وقد ينتهى الى غيز واحد فتسد جميع الفتحات الى أن يرحم الله عباده ، ويغيثهم بواسع رحمته فيمطر عليهم امطاراً تعم السهل والجبل فتسيل الأودية بقدرها ، وتتفتح ينابيع المياه الجوفية ويصدق قول الشاعر :

أيها الاخوان جاء الفرج

هبط الوادى وزاد الفلج

نسأل الله تعالى أن يغيثنا برحمته ويمطر علينا مطراً مدراراً يحى به البلاد ويغيث به العباد ، إنه كريم رحيم .

وإلى هنا فقد انتهى هذا البحث الموجز ، راجياً عدم المؤاخذة ممن يقف عليه إذا وجد به أية أخطاء .. فهذا هو اجتهادى وما كل مجتهد يصيب . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

بدر بن سالم العبرى

مصـــــادر البحث

أولا : اعتمد هذا البحث فى المقام الأول على الدراسة الميدانية على الطبيعة ، ومن ذوى الاختصاص والقائمين على شئون الأفلاج ، وأهل الخبرة والمعرفة فى هذا المجال •

ثانيا : كتاب « نثار الجوهر »
للشيخ العلامة : ناصر بن سالم الرواجى •

ثالثا : وثيقة قديمة (مخطوطة) للقاضى الفقيه الشيخ ســـــعيد بن صالح العـــبرى •

دور عُمان
فى نشاط التجارة العالمية
فى العصر الإسلامى الأول

للدكتور حبيب الحسخانى

إن الأبحاث الجديدة ، ونتائج بعض الحفريات ، قد أثبتت بوضوح أن دور منطقة الخليج العربى بعامة ، وعمان بخاصة فى الملاحة والتجارة البحرية دور عريق يرجع إلى ما قبل الاسلام بعصور طويلة .

إن هذا الدور مرتبط وثيق الارتباط بالتقاليد الراسخة للعرب فى الملاحة سواء كان ذلك انطلاقا من الضفة الغربية للخليج ، أو من مرافىء غرب الجزيرة العربية على شواطىء البحر الأحمر ، أو من جنوبها ، خلافا لمـا ذهب اليه البعض من « أن المسلمين كانوا بصورة عامة يخافون البحـــر »(١) .

إن شهرة الملاحة الحميرية تعود إلى عصور قديمة ، وكان للعمانيين بالخصوص من سكان منطقة الخليج دور نشيط فى التجارة البحرية ، وحتى فى فترة نفوذ الامبراطورية الساسانية على منطقة الخليج فإنها لم تتمكن من السيطرة إلا على الشريط الساحلى ، أما داخل البلاد فقد كان تحت الحكم العربى ، ويشير الى ذلك ألازكوى قائلا :

« فكانت الفرس فى السواحل ، وشطوط البحر ، والأزد ملوكا فى البادية والجبال وأطراف عمان وكل الأمور منوطة بهم »(٢) .

وقد عجز الساسـانيون فى فترات ضعف الامبراطورية عن حمـاية سواحلهم ، حيث إنها كانت عرضة لغارات عرب الخليج .

أما أهم تحول فى تاريخ التجارة البحرية العمانية فقد حدث بعد الفتح الاسلامى(٣) ، فقد أكسبت فتـح بلاد فارس ، والقضـــاء على الدولة الساسانية ، ثم فتح بلاد السند(٤) من جهة ، وظهور أمصار جديدة فى منطقة الخليج مثل البصرة(٥) من جهة ثانية منطقة عمان أهمية تجارية

جديدة ، وأصبحت مساهمة مدنه المرفئية فى التجارة ذات بعد عالمى . وفى طليعة هذه المدن نجد : صحار عاصمة عمان القديمة .

وقد أصبحت عمان بفضل هذه المكانة الجديدة فى الدورة التجارية العالمية مضرب الأمثال فى سعة الرزق ، ورواج التجارة ، فقد قيل :« عن تعذر عليه الرزق فعليه بعمان » ، وهناك من ينسب هذا القول إلى الرسول عليه الصلاة والسلام(٦) ، واذا لم تثبت نسبته فانه يدل على مدى توفر وسائل الكسب بعمان ، وقد قال الأصمعى : « الدنيا ثلاث عمان ، والأبلة ، وسيراف »(٧) ، وجاء فى « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » للجغرافى المقدسى « من أراد التجارة فعليه بعدن ، أو عمان ، أو مصر » .

وينبغى أن لا نغفل هنا عن الاشارة إلى أن سهولة الرزق بعمان فى العصر الاسلامى لا تعود إلى النشاط التجارى فحسب ، وذلك بالرغم من أهميته فى النشاط الاقتصادى العمانى عصرئذ ، بل إلى التطور الزراعى أيضا ، وذلك لسببين رئيسيين :

أولا : إن السهول الزراعية الخصبة التى كانت قبل الاسلام بيد المرازبة والأساورة قد عادت للعرب المسلمين .

ثانيا : إن تطور التجارة ، ولاسيما التجارة الكبرى جعل من بعض المنتوجات الزراعية بضائع ثمينة فى قائمة التبادل مثل التمور ، والتين المجفف ، والصموغ ، واللبان وغيرها .

ويتحدث الجغرافيون العرب عن الانتاج الزراعى لعمان فيقول الحميرى : « وبلاد عمان مستقلة فى ذاتها ، عامرة بأهلها ، وهى كثيرة النخل والفواكه والموز والرمان والتين والعنب »(٨) ، وقد بلغ خراج أهل عمان على المقاطعة ثمانين ألف دينار(٩) ، وجمع فى العصر العباسى من الجباية مبلغ ثلاثمائة ألف دينـــار .

ويربط بعض الجغرافيون العرب بين الحياة الزراعية فى عمان والنشاط التجارى ، فبعد الحديث عن المياه والانتاج الفلاخى يقول الحميرى صاحب (الروض المعطار) :

« .... فرضة الصين ، وبها مرفأ الصين ، وتحمل من سيراف الأمتعة اليها ، والحمولة فى قوارب ، ثم توقر السفينة العظيمة حتى تلجلج فى البحر العظيم فتسير بالريح الطيبة مقدار أربعين يوما إلى خمسين يوما حتى تنتهى إلى مدينة تسمى (الشحر)[١٠] .

ومن المعروف أن التحول الخطير فى الحياة التجارية فى منطقة الخليج بعد الفتح الاسلامى قد تم تدريجيا ليبلغ أوجه ابتداء من النصف الثانى للقرن الثانى الهجرى إلى القرن الخامس الهجرى ، فقد ساهم انتقال مركز الخلافة من بلاد الشام إلى العراق فى تحول التبادل التجارى من المنطقة الشرقية للبحر الأبيض المتوسط إلى الخليج العربى ، وإلى ما يرتبط به من مسالك برية وبحرية متفرعة عنه .

وقبل الحديث عن تفاصيل هذا النشاط التجارى ، وعن مسالكه البحرية ، وعن مراكزه فى عمان ، وعن البضائع المتبادلة ، وعن ملامح التأثير الحضارى لهذا التبادل أودّ إبداء الملاحظات الأساسية التالية :

أولا : إن الموقع الجغرافى لموانىء عمان جعلها مراكز مهمة لتجارة العبور توريدا وتصديرا بين منطقة الشرق الأقصى (الهند ، والصين ، وجزر الهند الشرقية) من جهة ، وداخل مناطق شبه الجزيرة العربية من جهة أخرى فضلاً عن علاقاتها مع إفريقيا الشرقية .

ولكى تتضح أهمية هذا الموقع فلابد من وضعه فى نطاق واجهات التبادل التجارى فى العصر الإسلامى ، ونعنى بذلك الواجهة الشمالية

الشرقية ، وهى واجهة الطرقات القارية للواحات وتقود مما بين النهرين إلى بلاد فارس وآسيا الوسطى ، ثم إلى بلاد الترك ، والى الصين الشمالية ، أو إلى الهند الشمالية الغربية ٠

أما واجهة الجنوب الشرقى التى تحتل فيها عمان المكانة الأولى ، فهى واجهة المسالك البحرية للمحيط الهندى التى تقود مابين النهرين والخليج العربى من جهة ، ومن البلاد المصرية والبحر الأحمر من جهة أخرى إلى السواحل الغربية لشبه القارة الهندية ، ثم إلى سيلان واندونيسيا والهند الصينية ، وجنوب الصين ، وهى مسالك رحلة السندباد العربى من الخليج إلى ميناء كانتون ، أو إلى بلاد الزنج ، وجزيرة مدغشقر ٠

أما الواجهة الجنوبية الغربية فهى واجهة مسالك القوافل فى الصحراء انطلاقا من بلاد المغرب الاسلامى حتى بلاد السودان ، وأخيرا الواجهة الشمالية الغربية ، أى واجهة المسالك البحرية والنهرية والقارية التى تقود مما بين النهرين ، وأرمينية إلى بلاد الخزر ، والأنهار الروسية ، ومن هنالك إلى بلاد بحر البلطيق وأوروبا الوسطى ، أو من الموانىء الاسلامية فى حوض البحر الأبيض المتوسط إلى مرافىء جنوب ايطاليا واليونان ، وجزر البحر الأبيض المتوسط ، أو من الأندلس الى الممالك الاسبانية فى الشمال ، ومنها عبر ممرات البرانس الى بلاد الافرنج (الغرب الأوربى) ، أو فى النهاية من الأندلس بطريق المحيط إلى الجزر البريطانية(١١) ٠

ونلمح هنا إلى تضاؤل أهمية البحرين فى العهد الاسلامى(١٢) فى ميدان التجارة البحرية لفائدة عمان ، وقد أهلها موقعها الجغرافى لتصبح المركز الرئيسى للساحل الغربى من الخليج العربى ٠

ثانيا : لابد — إذن — من النظر إلى أهمية عمان فى التجارة العالمية فى القرون الاسلامية الأولى ضمن الوحدة الاقتصادية التى أصبح يمثلها العالم الاسلامى ابتداء من القرن الأول إلى القرن الرابع الهجرى ، فشبكة

المسالك التجارية لهذه الوحدة الجغرافية والاقتصادية تمتد ــ كما رأينا ــ من الجنوب الغربى من بلاد السودان إلى بلاد الافرنج ، أى أوربا الغربية اليوم ، ومن الجنوب الشرقى من سواحل إفريقيا الشرقية إلى الصين . وبلاد الترك ، والأورال ومنطقة بحر قزوين ، وتمتد من المغرب إلى المشرق من شواطىء المحيط الأطلسى إلى بغداد وكابول ، ومنها الى منطقة المحيط الهنـــــدى .

ونحب الاشارة فى هذا الصدد إلى أن الخليج العربى ، والبحر الأحمر لم يعودا مسلكيْن بحريين متنافسيْن لبلوغ رومة ، أو القسطنطينيّة ، وإنما قد أصبحا فى العهد الإسلامى طريقيْن متساويين يَسْلك كلّ منهما لبلوغ ما قاربه من أرض الخلافة .

وقد كان لهذه الوحدة السياسية والعمرانية أهميّة كبرى فى ازدهار التجارة بمنطقة الخليج مع الملاحظة أن تقلص ظل الوحدة السياسيّة ، وقيام دول إســـلامية مختلفة لم يؤثر فى استمرار العـــلاقات التجارية ، والتبادل الحضارى مع شتى أجزاء أنحاء العالم الإسلامى(١٣) .

ثالثا : إن التطور العمرانى الكبير الذى نلاحظه خلال فترة ازدهار الحضارة الاسلامية يعتمد أساسا على الازدهار الاقتصادى ، وليس من المبالغة فى شىء إذا قلنا إن هذا الأزدهار الاقتصادى يكاد ينحصر عصرئذ فى النشاط التجارى ، وهو نشاط يكمن وراء تطور المدن ، وانتشار شبكة المسالك التجارية والبحرية ، وقد كان لهذا أثر بالغ فى ازدهار المدن الساحلية العمانية ، وتطور المسالك البرية التى تربط بينها ، وبين مناطق داخل الجزيرة العربية ، كما كان له تأثير فى تطور مستوى معيشة إقليم عمان ، يقول عبد الرحمن بن خلدون :

« فعلى نسبة حال الدولة يكون يسار الرعايا ، وعلى نسبة يســار

الرعايا يكون مال الدولة وأصله كله العمران وكثرته »[١٤] وأشار قبل هذه الفقرة بقليل الى العلاقة بين التطور العمرانى ، وما يرافقه من تأثير مباشر فى حياة السكان والازدهار الاقتصادى حيث يقول : « ومتى عظم الدخـل والخرج اتسعت أحوال الساكن ووسع المصر »[١٥] .

رابعا : العلاقة العضوية بين تطور التجارة ونشر الاسلام فى اتجاهين : اتجاه شواطىء المحيط الهندى وبحر الصين ، وقد استقرت جاليات إسلامية فى مدن ساحلية كثيرة ، وبنيت المساجد وأصبح للمسلمين قضاتهم ، وسنرى ــ بعد قليل ــ أهمية انتشار الاسلام فى هذه المناطق عن طريق التجارة ، واتجاه سواحل افريقيا الشرقية .

خامسا : رافقت هذه العلاقات التجارية النشطة بين عمان من جهة ، والشرق الأقصى وافريقيا الشرقية (بلاد الزنج) من جهة أخرى ظاهرة حضارية مميزة تمثلت فى عملية التأثر والتأثير العميقين فى شتى مجالات النشاط البشرى من زراعة وصناعة ، وملاحة ، وثقافة ، ولغة وعادات .

سادسا : تتصل الملاحظة الأخيرة فى هذا التمهيد ذى الطابع التنظيرى بدور الوحدة النقدية الاسلامية فى النشاط التجارى لمنطقة الخليج بصفة عامة وعمان بصفة خاصـــة .

إنه من المعروف أن عملتين أساسيتين كانتا متداولتين فى العــالم القديم الى القرن الثامن الميلادى : الدرهم الساسانى ، والدينار البيزنطى ، ولقد استمر التعامل بهما فى العصر الاسلامى الأول .

ولكن هنالك تحولا جذريا حدث ابتداء من نهـــاية القــرن الأول الهجرى / بداية الثامن الميلادى ، حيث سخرت الذخائر الذهبية التى كانت مخزونة لفائدة الدورة الاقتصادية العالمية فى مناطق النفـوذ الفارسى

والبيزنطى ، وقد أصبحت فى ظل الحـــكم الاسلامى تمثل وحدة جغرافية واقتصادية ، ثم طرأ حدث جديد ابتداء من نهاية القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى لا يقل شأنا عن ذلك التحـــول •

إنه اكتشاف العالم الاسلامى لمصدر جديد وثرى لتوريد هذا المعـــدن الثمين : بلاد السودان[١٦] •

وسيبقى ذهب السودان طوال ستة قرون يغذى مصانع ضرب العملة الذهبية الاسلامية ، ويدعم حركة التبادل التجارى بين المغرب والأندلس والبحر الأبيض المتوسط من جهة والمشرق الاسلامى من جهة أخرى •

إن ذلك التحول وهذا الاكتشاف الجديد جعلا من المسلمين خلال حقب طويلة سادة الذهب فى العالم على حد تعبير م• لومبار ، ومكنا العالم الاسلامى من بلوغ درجة تفوق اقتصادى تجاه الشرق والغرب معا بفضل امتلاكه لثروات ذهبية ضخمة ، ولمـــا تتمتع به العملة الاســـلامية من اعتراف عالمى[١٧] •

إن دور عمان كان فعالاً فى التقاء كميات الذهب الموردة عن طريق المسالك البحرية من الشرق الأقصى ، وافريقيا الشرقية (بلاد الزنج) إلى العالم الاسلامى بالثروة الذهبية المستجلبة بواسطة بلاد المغرب عن طريق المسالك الصحراوية الرابطة بينه وبين افريقيا الغربية (بلاد السودان) •

إن امتلاك هذه الثروات الذهبية داخل منطقة جغرافية شاسعة جعل الفتوحات الاسلامية ، وبالتالى خضوع أجزاء تلك المنطقة للحكم الاسلامى تحتل أولا مكانة بارزة فى التاريخ الاقتصادى العالمى بين غزوات الاسكندر التى فتحت للعالم اليونانى ذخائر مملكة فارس ، ومنجم آســـيا والغزوات

الاسبانية التى مكنت أوربا من ذهب وفضة القارة الامريكية ، وتبرز ثانيا ظاهرة جديدة فى تاريخ الدورة النقدية حيث لم يسجل قبل الدينـــار الاسلامى عملة شملت دورتها الشرقين الأقصى والأوسط . ومنطقة البحر الأبيض المتوسط وأوربا فى نفس الوقت (١٧ أ) .

العـــلاقات التجارية بين عمان والشرق الأقصى :

إن موقع عمان فى الجنوب الشرقى من شبه الجزيرة العربية ، مطلاً على الخليج العربى من جهة والبحر العربى من جهة ثانية جعل له أهمية استراتيجية وتجارية كبرى فى مختلف العصـــور .

وإذا حاولنا التعــرف الى تاريخ علاقات عمان مع منطقة الشرق الأقصى فاننا نجد جذورها تمتد الى العصور القديمة ، فانه بالرغم من الفتح المقدونى لمنطقة البحر الأحمر ، ومنطقة الخليج ، ووقوعها تحت سيطرة البطالسة ، بعد اليونان لمـدة طويلة الا أن عرب الجنوب من حضارمة ، وحميريين ، وعمانيين كانوا هم المسيطرين على التجارة البحرية مع الهند طول الوقت (١٧ ب) ، وكانت لهم جاليات فى السواحل الهندية ، وفى جزر الملايو ، وأندونيسيا ، وهنالك من يذهب الى أن « أوفير » هى ظفار عند ميناء مربط فى أرض اللبان ، وكانت منذ أقدم العصور مركزا لتبادل السلع مع الشرق الفسـيح[١٨] .

إن هذه العلاقات القديمة التى أصبحت تدعمها نتائج الحفريات الجديدة فى عمان ، وفى منطقة الخليج عامة تفند القول بأن خبرة العرب الملاحية ضعيفة ، فقد كانت لعرب الجنوب خبرة بالملاحة تعود الى حوالى ألف سنة قبل الاسلام .

ويرجح بعض الدارسين بأن السفن العربية قد وصلت الى الصين فى

حوالى النصف الأول من القرن الخامس الميلادى[١٩] وقد كان الطريق البحرى الممتد من الخليج الى كانتون أطول طريق استعمله الانسان على نحو منتظم قبل التوسع الأوروبى فى القرن السادس عشر الميلادى •

ونستطيع أن نقول — دون مبالغة — إن زمام البحر فى منطقة الخليج ، ومنطقة البحر العربى ، والمحيط الهندى كان بيد العرب الى القرن الخامس عشر الميلادى •

ولكن السيْطَرة العَربية على البحر مرت بمراحل متفاوتة ، فقد ذكرنا أن هذه السيطرة بلغت أوجها استراتيجيا وتجاريا فى عصور ازدهار الحضارة العربية الاسلامية ، وخاصة بين القرنين الثانى والخامس للهجرة / الثامن والحادى عشر للميلاد ، وقد أصبحت الموانىء العمانية خلال هذه الفترة تمثل أكبر المراكز التجارية مع بلدان الشرق الأقصى •

وقد ركز الجغرافيون العرب على دور عمان التجارى فى اتجاه الشرق الأقصى ، فقد ذكر السيرافى أنه « مجتمع الأمتعة من العود ، والكافور ، والصندل ، والعاج ، والرصاص ، والأبنوس ، والأفاوية كلها ، وغير ذلك مما يتسع ويطول شرحه والجهاز من عمان فى هذا الوقت ومنها الى عمان واقع »[٢٠] •

وقد كان لفتح اقليم السند دور فعال فى تدفق أنواع جديدة من البضاعة الى مرافىء الخليج ومنها الى بقية أجزاء العالم الاسلامى ، ويصف المقدسى هذه السلع قائلا : « هذا إقليم الذهب ، والتجارات ، والعقاقير ، والآلات ، والفانيذ والخيرات ، والأرزاز ، والموز والأعجوبات به رخص وسعة •• »[٢١]

وينقل لنا كل من ابن الفقيه والمسعودى عن « التاجر سليمان » وصفا للمسالك الرابطة بين سواحل الخليج وسواحل السند والهند وأندونيسيا حتى الصين ، يقول ابن الفقيه :

« وذكر سليمان أن السفن الصينية تحمل من البصرة وعمان ، وتعبأ بسيراف ، وذلك لكثرة الأمواج فى هذا البحر (بحر فاس) ، وقلة المـاء فى مواضع منه ، فاذا عبىء المتاع استعذبوا المـاء إلى موضـع منها يقال له مسقط ، وهو آخـر عمان ، وبين سيراف وهذا الموضع نحـو مائتى فرسخ ، وفى شرقى هـذا البحر فيما بين سيراف ومسقط من البلاد سيف (ساحل) ، وفى غربى هذا البحر جبل عمان » (٢٢) .

وتحدثنا المصادر عن رحلة تاجر أباضى عمانى إلى الصين حوالى منتصف القرن الثامن الميلادى ، كان يدعى أبا عبيدة ، وقد اشترى فى الصين بعض خشب الند (٢٣) .

وفى نهاية هذه الفقرة عن العلاقات التجارية بين عمان والشرق الأقصى أودّ إبداء الملاحظتين التاليتين :

أولا : إن ازدهار هذه العلاقات التجارية مرتبط بالتطور الديمغرافى والعمرانى السريع للأمصـار الاسـلامية ، ومـا استلزمه من حاجات استهلاكية جديدة ، وكذلك مثل البصرة ، والكوفة ، وواسـط ، وسامرا ، ولا سيما حاجات العاصمة العباسية الكبرى : بغداد . ومن الطريف هنـا الاشارة الى أن مؤسسها الخليفة المنصـور كان واعيا بميزاتها الاقتصادية ؛ فقد كان يقـول :

« هـذه دجلة ليس بيننا وبين الصـين شىء ، يأتينا فيها كلّ مافى البحـر » (٢٤) .

ثانيا : إن العلاقات التجارية بين عمان والصين تأثرت بطبيعة الحـال بالأحـداث السياسية التى عاشتها الامبراطورية الصينية فى عهد حـكم أسرة « تانج » ، وتدهور سلطتها إثر ثورة (هوانج تشـاو) سـنة ٨٧٨ للميلاد ، ثم سقوط حكم هذه الأسرة سنة ٩٦٠ ميلاديا .

كما تأثرت أيضا بالأحداث الخطيرة التى عاشتها الخلافة العباسية ، ما أدت إليه من مظاهر التفكك والضعف ابتداء من منتصف القرن التاسع ميلاد ، فقد انطلقت فى العقد السابع من هـذا القرن ثورة الزنج فى جنوب عراق ، وبعض مناطق الخليج ، فخربوا الأُبلّة والبصرة ، وقطعوا بغداد عن سـواحل الخليج ، ثم اندلعت فى نهاية القرن نفسه حركة القرامطة .

العلاقات التجارية بين عمان وأفريقيا الشرقية :

أما الهدف الثانى لتجارة السـواحل العمانية فهو شرق إفريقيا ، وكانت هذه العلاقات قديمـة . ولكنها اكتسبت بُعْداً جـديدا فى العصر الاسـلامى لأسباب متعددة تمت الاشـارة إلى أهمها .

وتمتد الرحلة إلى شواطىء إفريقيا الشرقية حوالى شهرين ، وقد اهتم الجغرافيون العرب بوصف هذا المسلك البحر حيث إن سكان جنوب الجزيرة وشرقيها يكادون يحتكرون التجارة مع هـذه المنطقة الشاسعة والغنيـة . يقول المسعودى :

« وأهل المراكب من العمانيين يقطعون هذا الخليج (الخليج البربرى) إلى جزيرة قنبلو من بحـر الزنج ، وفى هـذه المدينة مسلمون بين الكفّار من الزنج ، والعمانيون الذين ذكرنا من أرباب المراكب يزعمون أن هـذا الخليج المعروف بالبربرى — وهم يعرفونه ببحر البربرى — وبلاد جفونى أكثر مسافة مما ذكرنا ... وهؤلاء القوم الذين يركبون البحر من أهل عمان عرب من الأزد ويقطع هذا البحر السيرافيون ، وقد ركبت أنا هذا البحر من مدينـة سنجار من بلاد عمـان فى سنة أربع وثلثمائة » [٢٥] .

وقد استقرت جاليات إسلامية فى الساحل الشرقى لافريقيا ، وقامت عن طريق التجارة بنشر الاسلام فى مناطق شاسعة من القارة الافريقية ، فقد وجدت كتابات كوفية ترجع الى القرن الثانى للهجرة / الثامن للميلاد ،

ويرجع تاريخ بناء المسجد فى زنجبار إلى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، وبلغ الاستيطان العربى على الساحل الافريقى الشرقى حتى سفالة وموزمبيق ، وكذلك جزيرة مدغشقر منذ القرن الرابع الهجرى ، وحكم على هذا الساحل سلاطين من الشحر . واليمن . وحضرموت ، وظلت سلطنة زنجبار تحت الحكم العربى إلى بداية الاحتلال الأوربى .

وتثبت المصادر العربية أن الأزديين قد قاموا بدور خاص فى دعم العلاقات التجارية بين منطقة الخليج وشرق إفريقيا ، فقد كانوا يسافرون بمراكبهم من سيراف وعمان الى زيلع ، وعيذاب وسواكن ، وبربر وزنجبار ، ويتابعون سيرهم جنوبا حتى جزيرة القمر (مدغشقر) ، ويعودون ومعهم العنبر والذهب من بربر ، كما كانوا يعودون بكميات كبرى من العاج ومن الرقيق .

والنص على الرقيق الوارد من افريقية يدل على أهمية تجارة الرقيق بين منطقة الخليج وسواحل إفريقيا الشرقية ، فإنه من المعروف أن العبيد كانوا يمثلون القوة المنتجة الأساسية فى جميع ميادين النشاط الاقتصادى ، فهم العاملون فى المناطق الزراعية الكبرى ، وفى المعادن ، وفى حراسة القوافل التجارية وفى البناء والصناعات التى نشأت فى مراكز العمران ، وفى الأعمال المنزلية ، وفى الجند أيضا ، ولا سيما فى فئة الحرس الخاص [٢٧] .

البضائع المتبادلة :

إن الحديث عن البضائع المتبادلة عنصر أساسى فى تاريخ العلاقات التجارية بين منطقة وأخرى ، وأود البداية بالحديث عن نقطة طالما أهملت فى الكتابة عن تاريخ التجارة ، وأعنى هنا المنتوجات الزراعية لعمان التى أوليها عناية خاصة — للأسباب التالية :

أولا : إن قسما من هذه المنتوجات يتحول إلى بضاعة تصدير ثمينة فى دورة تجارية مزدهرة ، وإن كان الانتاج الزراعى ضعيفا لايكاد يفى بحاجة الاستهلاك المحلى .

ثانيا : إن العلاقات التجارية تجلب معها الخبرة الفلاحية . وتجارب نقل المزروعات والأشجار .

ثالثا : إن المدن التجارية الثرية مثل مدينة صحار تحتاج إلى حزام زراعى يوفر لسكانها أمنهم الغذائى ، مهما نشطت حركتها التجارية ، وتجمعت فيها الثروات .

إن المؤرخين الاقتصاديين يقدرون أن تجمعاً سكّانيا يبلغ أفراده ٣٠٠٠ ساكن يحتاج — ابتداء من القرن الحادى عشر الميلادى — لمده بالمواد الغذائية إلى عشر مناطق ريفية خصبة ، أى مساحة ٨,٥ كلم مربع « نظرا لضعف انتاجية الفلاحة » ، إن الضواحى الريفية يجب أن تمدّ المدينة — إذن — بالحد الأدنى من المواد الغذائية حتى لاتبقى مهددة فى معيشة سكانها كل لحظة ، إن التجارة الكبرى لايمكن الاعتماد عليها فى تموين المدن إلا بصفة استثنائية ، جزئية ، وهذا بالنسبة للمدن المحظوظة فقط مثل البندقية ، وروما ، واسطنبول ، ومكة [٢٨] .

وتجدر الاشارة هنا إلى أن ابن خلدون قد تنبه إلى هذه النقطة فى حياة المدن قبل النظريات الحديثة ، فكتب فصلا فى المقدمة سمّاه : « فصل فيما يجب مراعاته فى المدن وما يحدث إذا أُغفلت تلك المراعاة » فأشار إلى ضرورة ضمان مناطق زراعية حول المدينة قائلا : « ومما يراعى أيضا المزارع فإن الزروع هى الأقوات فإذا كانت مزارع البلد بالقرب منها كان ذلك أسهل فى اتخاذه ، وأقرب إلى تحصيله » [٢٩] .

ونعود للتعرف إلى المنتوجات الزراعية العمانية من خلال كتب

الجغرافيين العرب • ينقل الامام نور الدين السالمى عن الأندلسى الشريسى قائلا :

« وهى كثيرة النخل والبساتين وضروب الفواكه والحنطة والشعير ، والارز وقصب السكر قال : وفى الأمثال من تعذر عنه الرزق فعليه بعمان فقال : وفى أحوازها مغاص اللؤلؤ • قال وعمان من أحواز اليمن قلت ولعله أراد بمدينة عمان قلهات ، وهى الآن عارية من هذه الصفات لانتقال العمارة عنها إلى مسكد •

وكون عمان ثلاثين فرسخا فيه نظر ، بل هى أكثر من ذلك بأضعاف مضاعفة ، والأرز لايوجد فيها ، وإنما يجلب إليها من الهند اللهم إلا أن يكون قد زرع فى أيام الأئمة ، ثم انقطع بانقطاع ذلك الخير فانه سيأتى أن الامامين : سلطان بن سيف وولده قد جلبا لعمان أشجارا كثيرة من البحر وغرسا فيها تلك الأشجار حتى الورس والزعفران ، ومن عجائب الدنيا انها مملوءة بالفواكه مثل الرمان والعنب والجوز والخوخ والمشمش وغيرها من أشجار الجبل ، فيه من الرياحين كالورد والزعفران والآس والنرجس وغيرها •

وسئل بعض أهله عن وصفه فقال : هو جبل عظيم الارتفاع ، صعب الامتناع فى وسط عمان ، أهله فى رفاهة وأمان لايخافون جور الشيطان ، ولا سطوة سلطان ، ذو نهور وقصور ، وحياض ورياض ، وبساتين ، بها كروم وتين وتوت وجوز ومشمش ورمان وفواكه ألوان ، محصنة حدائقها بالورد والياسمين ، وحشيشها الزعفران الثمين والفوذنج ، والشذاب ، والنرجس المشبه بعيون الكعاب ، محفوفة بالآس كأنها الجنة فى القياس ، اغتصت بالكروم والتفاح والشجر المعطر النفاح •

قال : وإن حللت فى أقفارها اكتفيت عن جنى أثمارها بكمثل النمت

والبوت شفاء ، وقوت ، تسفخ من هذا الجبل تسعة أودية ، وكل واد به له طريق مؤدية ، وعلى أبوابها قرى لبنى ريام أحاطوا كالأكمام بالثمر والهالة بالقمر حامين لأبوابه عن طلابه » انتهى وصف صاحب الجبـــل له والله أعـــــلم(٣٠) .

وبالإضافة إلى المنتوجات الزراعية الواردة فى نص مؤلف « تحفـــة الأعيان » فإننا نجد منتوجات أخرى مثل شجر الكندر الذى ينبت بمنطقة الشحر ، يقول الحميرى :

« والشحر مدينة كبيرة ، وليس بها زرع ولا ضرع ، ويكون بها العنبر وشجرها الكندر ، ومنها يحمل إلى الآفاق »(٣١) .

وتذكر المصادر العربية المنتوجات التالية : المقل ، وهو يشبه الكندر ، ويستعمل فى الأدوية ، وينبت بجبال عمان (٣١ أ) ، والضجاج وينبت فى جبل قهوان ، وينتج صمغا أبيض ، والتامول ، والزنجبيل ، والتمر الهندى .

ومن المنتوجات الزراعية ذات الأهمية الكبرى فى قائمة التبادل التجارى بين عمان ، وبقية أنحاء العالم : اللبان المشار إليه ، ينقل ابن البيطار عن أبى حنيفة الدينورى أنه قال : « أخبرنى أعربى من أهل عمان أنه قال : اللبان لايكون إلا بالشحر ، شحر عمان ، وهى لشجرة مشوكة لاتنمو أكثر من ذراعين ، ولا تنبت إلا بالجبال ليس فى السهل منها شىء ، ولها ورق مثل ورق الآس ، وثمر مثل ثمره ، له مرارة فى الفم ، وعلكـــه الـــذى يمضغ ويسمى الكندر » (٣٢) .

ومن أبرز المنتوجات البحرية العمانية المصدرة اللؤلؤ فقد عرف إقليم عمان منذ القديم مغاصات اللؤلؤ ، ولا سيما عند مسقط ، وصور ، ومن لآلىء عمان المشهورة الدرة اليتيمة التى استخرجت من عمان فى بداية العصر

العباسى ، واشتراها هارون الرشيد بسبعين ألف درهم ، كما اشترى لؤلؤة اخرى استخرجت معها ، وكانت أصغر بثلاثين ألف درهم (٣٣) .

ولا نغفل بصدد الحديث عن صادرات عمان عن الإشارة إلى الإنتاج الحرفى ، وما عرفه من تطور وازدهار نتيجة نشاط التبادل التجارى . وقد كان للعمانيين دور كبير فى ازدهار الحرف فى العاصمـــة التجارية الكبرى لمنطقة الخليج : البصرة (٣٤) .

أما أهم واردات المـــدن العمانية ، ســـواء كان ذلك للاستهلاك المحلى، أو لإعادة التصـــدير فى نطاق الدور النشط الذى أدته المـــدن الساحلية العمانية فى ازدهار تجارة العبور خلال الفترة الاسلامية فهى كثيرة ومتنوعة نذكر منها استيراد الحـــديد من الهند لصنع الأسلحة ، واستيراد السيوف الهندية جاهزة من الهند ، أو من سيلان ، والصندل من الهنـــد والصين ، وتوريد أنواع من المنسوجات .

وبالرغم من أن العالم الإســـلامى كان ينتج الكثير مـــن النسيج ، واشتهرت صحار بأنسجتها المتنوعة فإنه كان يستورد المنسوجات الحريرية والديباج من الصين ، ويستورد من الهند الثياب القطنية المخملة ، وتحتل الأخشاب فى قائمة الواردات مكانة بارزة نظرا لفقر العالم الإسلامى بصفة عامة فى مادة الخشب فقد كان يستورد الساج من الهند لاستعماله فى بناء البيوت ، أو فى صناعة السفن ، ويجلب الخيزران من السند والهند والصين ليستعمل فى صناعة الرماح .

وكان خشب جوز الهند يورد من جنوب الهند ، وأندونيسيا ، وسيلان، وجزر ملدايف لاستعماله فى صناعة السفن ، فقد كان عرب الخليج يسافرون إلى موطن جوز الهند لصناعة السفن من هذه الشجرة تبنى منها هياكلها ، وصواريها ، وخيوطها المغروزة ، وحبالها ، وكانت السفن بعد بنائها تشحن بخشب جوز الهند وثماره ، ويؤتى بها إلى عمان ، ومنطقة الخليج عامة(٣٥) .

أمـا الأبنوس فتشير المصـادر العربية إلى أنه كان يستورد من بلاد الزنج ، ونجـد فى قائمـة التبادل التجارى العمانى العاج من بلاد الزنج والهنـد ، ومن جزيرة أندمان ، وشتى أنواع البهارات . والأصناف الرفيعة من العطور مثل المسـك المستورد من الهنـد ، والتبت والصين . والعنبر المجلوب من بلاد الزنج ، ومن الهنـد وسرنديب : وجزر لنجيالوس والزنج. والعـود المستورد من الهنـد وجاوة وفنصـور والصين . والكافـور المجلوب من سفالة والهند وفنصـور والصين وغيرها من مناطق الشرق الأقصى .

ويعدد الجغرافى العربى المقدسى أنواع السلع المصـدّرة إلى عمان قائـلا :

« ... فإلى عمان يخرج آلات الصيادلة ، والعطر كله حتى المسك . والزعفران ، والبقم ، والساج ، والسلسم ، والعاج ، واللؤلؤ ، والديباج . والجزع ، واليواقيت ، والأبنوس ، والنارجيل والقند ، والاسكندروس . والصبر ، والحديد ، والرصاص ، والخيزران ، والغفار ، والصنـدل . والبلور ، والفلفل ، وغير ذلك » (٣٦) .

ويبقى الذهب أهم بضاعة وأثمنها — دون رَيْب — فى قائمـة التبادل التجارى العمانى ، وقـد كانت عمـان تستورد الذهب من شرق إفريقيا . ومن بلاد الهند والشرق الأقصى عامة ، يحدثنا المسعـودى عن استيراد الذهب من منطقة الصين قائلا :

« بلاد الواق واق ، وجزائرها فى مشارق الصين ، وهى كثيرة الذهب حتى أن مقاود دوابهم وسلاحهم وسلاسـل كلابهم ذهب يعملون القصب المنسوجة بالذهب ذات التماثيل العجيبة » (٣٧) . أما الدمشقى فإنه يتحدث عن قنبلو قائلا : إنها من « جزائر الزنج عامرة بهم ، وبها الأبنوس والبهار ، ومعادن الذهب » (٣٨) .

صحار : دهليز الصين ، وخزانة الشرق والعراق :

إن مدن المرافىء ذات الشأن فى الدور التجارى العالمى لعمان فى القرون الإسلامية الأولى متعددة ومتنوعة تمتد على كامل سواحل الخليج شرقا ، وعلى شواطىء بحر العرب جنوبا وسنقف قليلا فى خاتمة هذه الدراسة عند صحار : عاصمة عمان .

لقد كان لهذه المدينة دور بالغ الأثر فى تاريخ التجارة الخليجية منذ عصر ماقبل الإسلام ، ويذكر المؤرخون العرب أسطورة تأسيسها على يد صحار بن إبراهيم بن سام بن نوح ، ولا شك أنها خضعت للإمبراطورية الساسانية أيام نفوذها فى منطقة الخليج ، وتظهر المدينة فى العصر الاسلامى منذ سنة ٨ للهجرة(٣٠ / ٦٢٩ م) ، أى سنة وصول مبعوثى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهما عمرو بن العاص ، وأبوزيد الأنصارى ، إلى ملك عمان عبد بن الجلندى ، وأخيه جيفر [٣٩] .

وسرعان ماتطور دور صحار ، ومكنها ازدهار التجارة مع بلدان الشرق الأقصى وشرق إفريقيا أن تصبح مركزاً تجارياً حساساً فى علاقات التجارة البعيدة المدى .

بالرغم من تحول البصرة إلى مركز اقتصادى مهم فى منطقة الخليج فإن ذلك لم يؤثر فى مركز صحار فى العلاقات التجارية الدولية عهدئذ ، وأصبحت تعد أهم ميناء فى عمان ، وأجمل مدينة فى منطقة الخليج ، وكانت أقرب المرافىء العربية لرسو السفن القادمة من الهند والصين وافريقيا الشرقية إلى خليج البصرة يصفها ابن حوقل قائلا :

« ... وقصبتها (يعنى ناحية عمان) صحار ، وهى على البحر ، وبها من التجار والتجارة مالا يحصى كثرة ، وهى أعمر مدينة بعمان ، وأكثرها مالا ، ولا يكاد يعرف على شط بحر فارس بجميع الاسلام مدينة

أكثر عمارة ومالا من صحار ... » (٤٠) ويصفها المقدسي بقوله : « صحار هي قصبة عمان ليس على بحر الصين اليوم بلد أجل منه عامر ، آهل ، حسن ، طيب ، نزه ، ذو يسار وتجار ، وفواكه ، وخيرات ، أسرى من زبيد وصنعاء . أسواق عجيبة . وبلدة ظريفة ، ممتدة على البحر . دورهم من الآجر والساج . شاهقة نفيسة . والجامع على البحر له منارة حسنة طويلة في آخر الأسواق ، ولهم آبار عذيبية . وقناة حلوة . وهم في سعة من كل شيء ، دهليز الصين . وخزانة الشرق والعراق . ومغوثة اليمن ... » (٤١) .

وقد اشتهرت صحار بأحيائها الثرية ، وقد سكنها أهل اليسار من التجار ، ولاسيما المختصين منهم في التجارة الكبرى ، وتشير النصوص إلى أن بناء بيوت الأحياء الغنية كان بالآجر وخشب الساج .

وقد ساعد دورها التجاري النشط على تطور الصناعات اليدوية بها ، واختصاص أسواقها بأنواع الحرف المختلفة مثل الحياكة ، والحدادة ، وصناعة الجلد ، والذهب والفضة ، وصناعة الصموغ (٤٢) .

أما أشهر صناعة عرفت بها صحار في شبه الجزيرة العربية ، وفي مناطق أخرى نائية فهي المنسوجات ، وقد كانت تسمى الصحارية . وهي صناعة قديمة في المدينة سبقت ظهور الاسلام دون ريب ، حيث إننا نجد صحار تصدر منسوجاتها إلى الحجاز في عصر الرسول عليه الصلاة والسلام (٤٣) .

وقد بدأ يتقلص الدور التجاري لمدينة صحار منذ القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي حيث ضعفت علاقاتها مع الشرق الأقصى ، وذلك لفائدة عدن ، ولعله هو التحول في حياة المدينة الذي يتحدث عنه الحميري قائلا :

« وهى أقدم مدن عمان ، وأكثرها أموالا قديما وحديثا ، ويقصدها فى كل سنة من تجار البلاد مالا يحصى عددهم ، واليها تجلب جميع بضائع اليمن ، ويجهز منها بأنواع التجارات وأحـوال أهلها واسعة ، وبها النخيل والموز ، والرمان والسفرجل ، وكثير من الثمـار الطيبة ، وكان فى قديم الزمان تسـافر منها مراكب الصين فانقطع ذلك ، لأن عامل جزيرة كيش أنشـأ أسطولا فغزا به بلاد اليمن الساحليّة فأضرّ بالمسافرين والتجار ، ولم يترك لأحـد مالا ، وأضعف البلاد ، وانقطع السفر عن عمان ، وعاد إلى عـدن » .

وكان بصحار مجتمع للتجارة ، ومنها يتجهز لكل بلدة ، والى بلاد الهند والصين (٤٤) . وهكذا يثبت دور عمان فى التجارة العالمية فى عصر ازدهار الحضارة العربية الاسلامية ماعرفته هذه الأرض العربية العريقة من تفتح حضـارى ، ومساهمـة فى مسيرة المجتمع البشرى نحـو غد أفضـل ، وينبغى أن لايغفل المرء ، وهو يتطلع إلى آفاق المستقبل ، عن هـذا الجانب الحيوى من تراثنا الحضـارى .

التعاليـــق

(١) راجع فصل « الصين » فى دائرة المعارف الاسلامية .

راجع دور العرب فى تاريخ الملاحة الدولية كتاب : جورج فضلو حوارينى ، ترجمة السيد يعقوب بكر ، العرب والملاحة فى المحيط الهندى فى العصور القديمة، واوائل العصور الوسطى ، القاهرة ، د . ت .

(٢) انظر : فاروق عمر ، مقدمة فى دراسة مصادر التاريخ العمانى ، بغداد ١٩٧٩ ، ص ٢٨ .

(٣) راجع عن فتح عمان : البلاذرى ، فتوح البلدان ، القاهرة ، ١٩٣٦ ، ص ٨٤ وما يليها ، السالمى نور الدين ، تحفة الأعيان بسير اهل عمان ، نشر ابراهيم طفيش الجزائرى ، القاهرة ، ١٣٥٠ هـ ، ص ٧ وما بعدها .

(٤) أنظر عن فتوح السند : ن . م ، ص ٤٢٠ وما بعدها .

(٥) راجع عن تمصير البصرة : ن . م . ، ص ٣٤١ وما بعدها ، أنظر ايضـــا : صالح احمد العلى ، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة فى القرن الأول الهجرى ، بيروت ١٩٦٩ .

(٦) أنظر : ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، بيروت ١٩٥٧ ، ج ٣ ، ص ٧١٨ .

(٧) ابن الفقيه ، أبو بكر أحمد بن محمد الهمذانى ، ليدن ، ١٣٠٢ هـ ، ص ٢٠٥ .

(٨) الروض المعطر فى خبر الاقطار ، بيروت ١٩٧٥ ، ص ٤١٣ .

(٩) ن . م .

(١٠) ن . م .

(١١) راجع فى هذا الصدد : موريس لومبار ، الاسلام فى فجر عظمته ، ترجمة حسين العودات ، دمشق ، ١٩٧٩ ، ص ٢٥٢ .

(١٢) راجع عن الحياة الاقتصادية فى البحرين ، عبد الرحمن عبد الكريم النجم ، البحرين فى صدر الاسلام ، واثرها فى حركة الخوارج ، بغداد ١٩٧٣ ، ص ٨١ وما بعدهـــا .

(١٣) راجع فى هذا العدد كتابنا : المغرب الاسلامى : الحياة الاقتصادية ، والاجتماعية ، تونس ، ١٩٧٨ ، ص ٢٢ .

(١٤) ابن خلدون ، المقدمة ، القاهرة ١٩٦٧ ج ٣ ، ص ١٠٠٩ .

(١٥) ن . م . ، ج ٣ ، ص ٩٩٦ .

(١٦) ان اكتشاف المسلمين فى المغرب لهذا المصدر الجديد للذهب : بلاد السودان لايعنى أبدا ان هذا المصدر لم يكن معروفا قبل الفتح الاسلامى ، اننا نوافق ف . برودال فيما يرجحه من أن التجارة الصحراوية اقدم بكثير من القرن الثانى ، انظر :

F. Braudel, La Méditerranée et la Monde Méditerranéen à L'époque de Philippe 11, Paris, 1949, pp. 364-365.

ولكن هذه التجارة الصحراوية القديمة قد توقفت أيام العهد الوندالى ، وأيام البيزنطيين ، وازدهرت فى العهد الاسلامى ، وارتبطت بوحدة عمرانية واقتصادية شاسعة ، وهذا ما اكسب توريد الذهب للسودان فى العصور الاسلامية أهمية خاصة . انظر يضا :

Lacoste, Ibn Khaldoun, Paris, 1969, p. 25.

(١٧) انظر كتابنا المغرب الاسلامى . . . ، سبق ذكره ، ص ٣١ ومابعدها .

(١٧أ) ن . م . ، ص ٣٣ .

(١٧ب) انظر أنور عبد العليم ، الملاحة وعلوم البحار عند العرب ، الكويت ، ١٩٧٩ ، ص ١٨ .

(١٨) راجع فى هذا الشأن : جورج فضلو حورانى ، العرب والملاحة فى المحيط الهندى ، سبق ذكره ، ص ١٣٩ وما بعدها .

(١٩) أنور عبد العليم ، الملاحة وعلوم البحار ، سبق ذكره ص ٢٢ .

(٢٠) رحلة السيرافى ، بغداد ، ١٩٦١ ، ص ٧٨ .

(٢١) أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ، ليدن ، ١٩٠٦ ، ص ٤٧٤ وما بعدها .

(٢٢) ابن الفقيه ، كتاب البلدان ، ليدن ، ١٨٨٥ ، ص ١١ .

(٢٣) جورج فضلو حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى ، سبق ذكره ، ص ١٩٥ . راجع أيضا عن الملاحة العربية : ابن حوقل ، صورة الأرض، بيروت ، د ت ، ص ٤٨ وما بعدها .

(٢٤) ن . م . ، ص ١٩٧ .

(٢٥) مروج الذهب . ج ١ . ص ١٠٧ وما يليها .

(٢٦) عبد الرحمن العانى ، عمان فى العصور الاسلامية الأولى . بغداد ، ١٩٧٧ ، ص ٧ .

(٢٧) راجع كتابنا : المغرب الاسلامى . . . ، سبق ذكره ، ص ٢٩ ومايليها

(٢٨) انظـــــر :

F. Braudel, Civilisation Matériele et Capitalisme, Paris, 1967, p. 372.

راجع كتابنا المغرب الاسلامى . . . ، سبق ذكره ، ص ٣٥ .

(٢٩) المقدمة ، سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٩٧٥ .

(٣٠) تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان ، سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٦ ، ومايليها .

(٣١) الروض المعطار فى خبر الاقطار ، سبق ذكره ، ص ٤٤٩ .

(٣١) الروض المعطار فى خبر الاقطار ، سبق ذكره ، ص ٣٣٩ . وعمان ، وكذلك اللبان هناك ، وفى أماكن من اليمن والله أعلم » ، نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، لايبزيغ ، ١٩٢٣ ، ص ٨٢ .

(٣٢) ابن البيطار ، عبد الله بن احمد المالقى الأندلسى ، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ، القاهرة ، ١٢٩١ هـ ، ج ٤ ، ص ٨٣ .

(٣٣) راجع قصة لؤلؤتين عمانيتين فى روض المعطار للحميرى ، مـادة عمـــان .

(٣٤) انظر : صالح احمد العلى ، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة . . . ، سبق ذكره ، ص ٣٠١ .

(٣٥) انظر : جورج فضلو حورانى ، العرب والملاحة ... ، سبق ذكره ، ص ٢٤٧ .

(٣٦) احسن التقاسيم ... ، سبق ذكره ، ص ٩٧ .

(٣٧) المسعودى ، اخبار الزمان ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ٥٩ .
راجع عن قضية الواق واق : جورج فضلو حورانى ، العرب والملاحة فى المحيط الهندى ... ، سبق ذكره ، ص ٢٣١ وما يليها ، تعليق رقم ٣ .

(٣٨) الدمشقى شيخ الربوة ، نخبة الدهر فى عجائب البــر والبحر ، لايبزيغ ، ١٩٢٣ ، ص ١٦٢ .

(٣٩) انظر السالمى ، تحفة الأعيان ... ، سبق ذكره ، ص ٩ وما يليها .

(٤٠) ابن حوقل ، ابو القاسم بن حوقل النصيبى ، صورة الأرض بيروت ، د ت ، ص ٤٤ وما يليها .

(٤١) احسن التقاسيم ... ، سبق ذكره ، ص ٩٢ .
انظر ايضا وصف ابن الفقيه ابى بكر احمد بن محمد الهمذانى ، مختصر كتاب البلدان ، ليدن ١٣٠٢ ، ص ١١ ، ووصف ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٣٩٣ .

(٤٢) راجع مقال : ادولف كروهمان عن صحــار فى دائرة المعــارف الاسلامية ، الطبعة الفرنسية الأولى ، ليدن ، ١٩٣٤ ، ج ٤ ، ص ٥٢٧ — ٥٣٠.

(٤٣) لبس الرسول صلى الله عليه وسلم الثياب الصحارية ، انظر : عبد الرحمن العانى ، عمان فى العصور الاسلامية الأولى ، سبق ذكره ، ص ٣٨.
وتذكر بعض النصوص أن الرسول عليه الصلاة والســلام قــد كفن فى نسيجين من صحار .

(٤٤) الروض المعطار ... ، سبق ذكره ، ص ٣٥٤ ومايليها .

ثالثاً :

عمان في شرقي إفريقية

الدولة العمانية في شرقي إفريقية

للأستاذ الدكتور جمال زكريا قاسم

هناك صفحات كبيرة فى تراثنا العربى لاتزال تحتاج من الباحثين والمؤرخين الى تسليط مزيد من الأضواء عليها والكشف عنها بعد أن أدت ظروف العزلة والتخلف الى حجبها وبخاصة تلك الصفحات المجيدة فى تاريخنا العربى الحديث .

وليس من المبالغة اذا ما أكدنا فى هذا المجال بأنه لم تعان منطقة من أجزاء وطننا العربى مثلما عانت منطقة الخليج من عوامل التخلف والركود التى فرضت عليها فى بعض فترات تاريخها .

ولعل سلطنة عمان كانت أكثر وحدات الخليج معاناة من تلك الظروف التى كادت تقضى على ما كان لها من انطلاقة حضارية لم تقتصر على حدودها فحسب وانما انطلقت اشعاعاتها الى خارجها فى كثير من فترات تاريخها القديم والوسيط والحديث .

ومن المؤكد أن البحوث التى سوف تنشر من هذا المهرجان الثقافى سوف تكشف بالأسلوب العلمى عن أهمية الدور الحضارى الذى أسهمت به عمان ، ويكفى أن نشير فى هذا المجال الى أنه كان لتجارها وملاحيها فضل نشر العربية والاسلام فى مناطق بعيدة فى آسيا وافريقيا كما سيطر أبناؤها على تجارة المحيط الهندى طيلة العصر الذهبى للملاحة الاسلامية حتى مقدم البرتغاليين الى بحار الشرق فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى[1] .

كما كان لأبنائها أثر لا ينكر فى تأكيد حرية البحار وذلك بالتصدى لسيطرة الاحتكارية البرتغالية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . وفى القرن التاسع عشر كان انتظام عمان وشرقى افريقيا تحت حكم واحد على

---

(١) راجع فى ذلك نضلو حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى وكذلك آدم متز الحضارة الاسلامية . ترجمة الدكتور عبد الهادى ابو ريدة ، ج ٢ ص ٤٢٩ — ٤٣٠ .

عهد دولة البوسعيد تحديدا لأول دولة آسيوية افريقية برزت فى تاريخنا الحـــديث •

ولم تقتصر هذه الدولة على جزيرة زنجبار أو السواحل الافريقية المواجهة لها وانما مضى العمانيون يحملون حضارتهم الى مجاهل القارة ى محاولات دائبة لاستجلاء معالمهـــا عن طريق قوافل التجارة وما يتبعها من تأسيس المحطات والمراكز التجارية على طول تلك الطرق التى كانت عونا كبيرا وفعالا فى عمليات استكشـــاف أواسط القارة ودواخلها وهو أمر لم ينكره رواد حركة الكشـــوف الجغرافية من أمثال بيرتون وسبيك وستانلى ولفنجستون كما اعترف به أيضا رواد حركة التبشير من أمثال كرايف ودريبمان وغيرهما[1] •

وقد أكد هؤلاء فى سجلاتهم اعتمادهم على التنظيمات والمستوطنات العربية التى امتدت الى مسافات بعيدة داخل القارة اذ أن العمانيين لم يقتصروا على الاستقرار فى الساحل وانما توغلت جماعات كبيرة فى الداخل واستقرت فى عدة أماكن متفرقة فى أوغندة ومنطقة البحيرات الاستوائية وأعالى الكونغو • وقد أسهمت تلك الجماعات فى نشر الاسلام والحضارة العربية بين القبائل الافريقية الخالصة •

وقد وصل الامتداد العمانى الى أقصى مدى له خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر أى فى نفس الفترة التى شهدت تعاظم الموجة الامبريالية وبالتالى فلم يكن من المقدر أن تحتفظ الممتلكات العمانية فى افريقيا بكيانها أو تماسكها وانما كان من المحتم أن تصطدم بالأطماع الاستعمارية وعجزت الامبراطورية العمانية أن تصمد فى وجه المنافسة الأوربية والصراع الذى احتدم بين الدول الإمبريالية للسيطرة على القارة وكانت نتيجة ذلك تقسيم أجزائها وانفصال قسمها الآسيوى عن الافريقى •

---

(١) جمال زكريا قاسم : دور العرب فى كشف افريقيا ـــ مجلة عالم الفكر ـــ الكويت ـــ العدد الثانى المجلد الأول ـــ مارس ١٩٧١ .

وفى الوقت الذى تفككت فيه أقاليمها الآسيوية بسبب المنافسات الأسرية أو توسع الدول الاقليمية المحيطة بها تقاسمت كل من انجلترا وفرنسا وايطاليا وألمانيا مقاطعاتها الافريقية ولم يعد هناك سوى بقايا متناثرة لهذه الامبراطورية اقتصرت على جزيرتى بمبا وزنجبار بالاضافة الى الشريط الساحلى المواجه لها فى شرق افريقيا وحتى هذه البقايا نجحت بريطانيا فى فرض حمايتها عليها فى عام ١٨٩٠ كما فرضت حمايتها أيضا على ما تبقى لهذه الدولة من ممتلكات فى القسم الآسيوى بعد ذلك بعام واحد(١) .

غير أن هذه النهاية المحزنة لا تمنعنا بطبيعة الحال من تسجيل الصفحات الناصعة وبخاصة ان هذه الصفحات لم تكن عارضة فى التاريخ العمانى اذ أنه من الأمور التى تسترعى الانتباه أن الحكم العمانى أو الامبراطورية العمانية فى شرق افريقيا لم تقم فجأة وانما كان قيامها تتويجا لمراحل متتابعة مرت بها العلاقات بين عمان وشرق افريقيا فى فترات بعيدة من التاريخ ولذلك فقد يكون من المناسب أن نستعرض تلك العلاقات والصلات باعتبارها تشكل أساسا هاما من الأسس التى استندت عليها الامبراطورية العمانية فى شرق افريقيا فى القرن التاسع عشر .

فمن المسلم به أن الروابط بين عمان وشرق افريقيا ترجع الى أزمنة قديمة(٢) وقد توطدت هذه الروابط بحكم التبادل التجارى من ناحية ثم

---

(١) انظر نص هذه المكاتبات فى :
جمال زكريا قاسم عن دولة بوسعيد فى عمان وشرق افريقيا منذ تأسيسها حتى انقسامها — القاهرة ١٩٦٧ .

(٢) عبد الرحمن بدوى : افريقيا والثقافة العربية — العدد ٤٨ من مجلة افريقيا كتاب وضعه أحد الملاحين الاغريق فى القرن الأول الميلادى وعرف بالدليل الملاحى للبحر الارتيرى Periplus Maris Erythraei

ولهذا الكتاب ترجمة انجليزية نشرها Schof بعنوان :
The periplus of the Erythrean Sea.

Allan Villiers : The Arab Dhow trade, Middle East Journal, October 1951.

انتشار الاسلام من ناحية أخرى وترتب على توثق هذه الروابط ظهور مراكز استيطانية سكنها مهاجرون من عمان ومن غيرها من مقاطعات الخليج وسواحل شبه الجزيرة العربية وكانت هذه المراكز الاستيطانية بمثابة الأساس الذى قام عليه الحكم العمانى فى شرق افريقيا خاصة بعد أن نجحت عمان على عهدى اليعاربة والبوسعيد فى توحيد تلك الكيانات الاستيطانية على سواحل شرق افريقيا وتجميعها تحت زعامتها .

ولذلك فقد يكون من المفيد أن نعرض بشىء من التفصيل الى تلك الهجرات العمانية التى تدفقت على سواحل شرق افريقيا ولم تجد صعوبة فى الاستقرار فى تلك السواحل حيث لم يصادف العمانيون تنظيمات قبلية متماسكة وبذلك سهل عليهم الاستقرار وبناء وحدات تجارية تحولت فيما بعد الى مراكز سياسية .

بيد أننا لا نستطيع أن نحدد تحديدا قاطعا الفترة التى ظهرت فيها تلك الوحدات ولكن من الثابت أن العمانيين عرفوا السواحل الافريقية قبل ظهور الاسلام اذ ساعدت العوامل الجغرافية على تنشيط حركة الملاحة العربية لأن الرياح الموسمية التى تهب على منطقة المحيط الهندى تمكن السفن الشراعية الصغيرة من القيام برحلتين منظمتين فى السنة بأقل مجهود ففى فصل الخريف تدفعها الرياح فى اتجاه جنوبى غربى فتخرج من خليج عمان الى المحيط الهندى ثم تسير بمحاذاة الساحل الافريقى الذى ينحنى فى اتجاه شمالى شرقى يمكن السفن من العودة الى قواعدها[1] .

على أن الاستقرار العمانى فى شرق افريقيا حدث بعد ظهور الاسلام نتيجة دوافع متعددة لم تعد قاصرة على التجارة وما كان يتبعها من استقرار مؤقت على الساحل وانما أثرت المنازعات الدينية والسياسية فى توافد كثير من الهجرات العمانية التى استقرت فى سواحل شرق افريقيا واستوطنت

---

(1) Zoe March : East Africa through contemporary Records, p. 6, London 1961.

فيها بصفة دائمة[1] حيث بدأ العمانيون يقيمون المدن والامارات والسلطنات الاسلامية على السواحل •

وقد صادف العمانيون جماعات من العرب سبقتهم الى هناك منذ أزمنة بعيدة تقطن المراكز التجارية كما لقوا شعبا سواحليا أسهمت العناصر الوافدة على الساحل فى تكوين سماته وفى وسط هذه العناصر نجح العمانيون فى اقامة منازلهم دون مشقة اذ حلوا أهلا على من سبقهم وتزاوجوا منهم ومن غيرهم من العناصر وأخذت شعوب الساحل منهم الدين الجديد والثقافة التى قامت عليه كما أخذت عنهم الكثير من وسائل عيشهم ونماذج حياتهم[2] •

والكثير من المصادر التاريخية تركز على عرب عمان ونجاحهم فى تأسيس بعض المدن والامارات العربية الاسلامية على ساحل شرق افريقيا اذ أن موقع عمان كان يوجه سكانها الى الملاحة والتجارة كما ظهرت مهارة العمانيين فى صناعة السفن وقد اندفع العمانيون بعد ظهور الاسلام فى حمل الرسالة الاسلامية عن طريق التجارة ، فمما يسترعى الانتباه أن انتشار الاسلام فى شرق افريقيا لم يتم نتيجة فتح عربى أو توسع عسكرى كما حدث فى فارس والشام ومصر وانما الذى قام بنشر الاسلام جماعات من التجار العرب وعلى الرغم مما ذهب اليه توماس ارنولد الى أن التجار العرب لم يعملوا على صبغ البلاد بالصبغة الاسلامية[3] • فإن بساطة التعاليم الاسلامية جعلت بعض القبائل الافريقية تقبل على اعتناق الدين الاسلامى بسهولة ويسر •

على أنه ينبغى أن نقرر من ناحية أخرى أنه على الرغم من سرعة انتشار الاسلام فى سواحل شرق افريقيا الا أن اللغة العربية كانت بطيئة الانتشار

(١) Ingrams, H. : Arabia and the Isles, p. 3.

(٢) ، (٣) توماس ارنولد : الدعوة الى الاسـلام ، الترجمة العربية ، ص ٢٨٨ •

اذ لم تصطبغ البلاد بالصبغة العربية انصباغا تاما رغم كثرة الهجرات العربية التى وفدت على الساحل ويعزى ذلك فى اعتقادنا الى اختلاط العناصر وتباينها .

وعلى الرغم من أن اللغة العربية لم تستطع أن تتغلب على اللغات واللهجات المتعددة التى وجدت على الساحل الا أنها استطاعت أن تتغلغل فى كيانها ونتيجة ذلك كانت ظهور لغة جديدة عرفت باللغة السواحيلية . شكلت المفردات العربية نسبة كبيرة منها . وقد أثبت الباحثون الذين عكفوا على دراسة اللغة السواحيلية قوة المؤثرات العربية فى تلك اللغة وأن لهذه المؤثرات مدلولاتها الحضارية . اذ أن أكثر المفردات العربية التى دخلت فى اللغة السواحيلية كانت ترتبط بالجوانب الفنية والثقافية والحضارية الى جانب المعاملات التجارية .

ويقدر رويش Reush وهو أحد المتخصصين فى دراسة اللغة السواحيلية وتاريخها عدد المفردات العربية فى هذه اللغة من الربع الى الخمسين[1] .

وقد يكون من المفيد مناقشة التنظيمات التى أوجدها العرب فى شرق افريقيا فى الفترة التى أعقبت ظهور الاسلام اذ أنه لم يثبت لدينا بشكل قاطع وجود مستوطنات عربية ثابتة فى الفترة التى سبقت ظهور الاسلام حيث لم تكن تتعدى صلات العرب بسواحل شرق افريقيا فى تلك المرحلة أكثر من الصلات التجارية .

وانما أحدث عرب عمان وغيرهم من عرب سواحل الجزيرة العربية بعد ظهور الاسلام تنظيمات جديدة أو بالأحرى تم تحويل المراكز التجارية المؤقتة الى مراكز استقرار عربية تطورت فيما بعد الى امارات وسلطنات كبيرة تناثرت على طول الساحل الشرقى لافريقيا وازدادت ازدهارا نتيجة

---

(١) Reush : History of the East Africa, p. 216. London 1954.

تدفق فيض من الهجرات العربية من البحرين وعمان والاحساء واليمن وحضرموت وكانت تلك الممالك والامارات العربية الاسلامية تمتد من خليج عدن الى مدار الجدى وهى المنطقة التى يطلق عليها جغرافيو العرب اسم « بر الزنج » وقد برز من هذه السلطنات والامارات مقديشيو وبراوة وكلوة وممبسة وزنجبار وغيرها[١] .

ولعل أقدم الهجرات العمانية المعروفة لدينا والتى أخذت طابعا استقراريا فى سواحل شرق افريقيا حدثت فى نهاية القرن السابع الميلادى وهى ترجع الى عهد عبد الملك بن مروان ٦٨٤هـ / ٧٠٧م وذلك حين اتبع سياسة قبلية فى شبه الجزيرة العربية وأخذ يستعين ببعض القبائل ضد بعضها الآخر وكذلك حين أولى السلطة فى العراق للحجاج بن يوسف الثقفى الذى أخذ يجهز الجيوش لاخضاع عمان وضمها تحت راية الأمويين .

وفى تلك الفترة كان يحكم عمان سليمان وسعيد أبنا عباد بن عبد الجلندى وكانا يعدان العدة لمقاومة جيوش الحجاج اذا ما حاولت دخول البلاد ، ولم يكن يحد من طموح الحجاج شىء ، فصمم على فتح عمان وأرسل بالفعل جيشا كبيرا بقيادة القاسم بن شعوة المزنى فقابله سليمان ابن عباد بجيشه واستطاع الانتصار عليه .

وحين بلغ الحجاج النبأ جن جنونه وزاد تصميمه على فتح عمان ؛ حتى أدرك سليمان وسعيد أنه لا قبل لهما بما كان يدبره الحجاج لهما ففرا الى شواطىء افريقيا[٢] مع قسم كبير من قبيلة الأزد العمانية ولا نعرف على وجه الدقة المكان الذى استقروا فيه مع اتباعهما وان كان من المحتمل أن تكون هذه الهجرة الكبيرة قد استقرت فى جزيرة مافيا .

---

(١) صلاح العقاد وجمال زكريا قاسم : زنجبار ص ٤ القاهرة ١٩٦٠ انظر ايضا جمال زكريا قاسم : استقرار العرب فى سواحل شرق افريقيا — حوليات كلية الآداب ، جامعة عين شمس — المجلد العاشر ١٩٦٦ .

(٢) محمد بن عبد الله السالمى وناجى عساف : عمان تاريخ يتكلم ص ١٠١ دمشق ١٩٦٣ .

وهناك رأى آخر فى أن تكون هذه الهجرة قد استقرت فى جزيرة لامو ويؤكد ذلك ما ذكره الأستاذ هتشنز Hichens من أنه عثر على كتاب ألفه شيخو فرج بن أحمد وعنوانه أخبار لامو يظهر فيه أن امارة لامو كانت أقدم الامارات العربية ظهورا على الساحل الشرقى لافريقيا .

وعلى ضوء هذه الدعامة التاريخية يستطيع المؤرخ أن يقرر أن الوجود العمانى على أرض شرق افريقيا قد بدأ ظاهرا فىصورة ما فى أواخر القرن التاسع الميلادى وأن هذا الوجود ارتكز على وجود آخر سبقه فى هذه البلاد اذ أنه مما لا يستقيم فى العقل أن يلجأ سلطانا عمان « سليمان وسعيد » فرارا بنفسيهما وبمن معهما الى أماكن خالية من الوجود العمانى يأمنون فيها على حياتهم أو دينهم[١] .

وقد أعقب هذه الهجرة هجرات أخرى نتج عنها ظهور أسرات عمانية حكمت بعض مناطق الشرق الافريقى وأهمها الأسرة النبهانية ، ففى السنوات الأولى من القرن الثالث عشر الميلادى وفدت هجرة كبيرة من عمان تزعمها أحد الملوك النبهانيين واستقرت هذه الهجرة فى جزيرة بات التى وجد بها النبهانيون خليطا من العرب والفرس الذين كانوا قد سبقوهم الى الاقامة فى تلك الجزيرة[٢] .

ولكن نظرا للشخصية التى كان يتمتع بها الملك النبهانى الذى كان ملكا على عمان فقد استقبله العرب وكان معظمهم من اقليم عمان استقبالا طيبا وكان أول ما فعله الملك النبهانى أن تزوج من ابنة حاكم الجزيرة السواحيلى

---

(١) جهينة الأخبار فى تاريخ زنجبار — انظر مقدمة عبد المنعم عامر — وزارة التراث القومى والثقافة — سلطنة عمان .

(٢) للهجرات المتتابعة التى وفدت على ساحل شرق افريقيا يمكن الرجوع الى جيان : وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن شرق افريقيا — عربه ملخصا الأمير يوسف كمال — القاهرة ١٩٢٧ وكذلك :

Freeman-Grenville : Select documents on East Africa p. 34.

المدعو اسحق الذى تنازل لابنته ولصهره عن حكم الجزيرة ، وبذلك بدأت الأسرة النبهانية فى جزيرة بات لتبدأ دورا ثانيا من حكمها الطـويل الذى مرّ بمراحل متتالية من القوة والضعف حتى انهيار نفوذها فى عام ٨٨٥هـ[1] .

وعلى الرغم مما تعرضت له الأسرة النبهانية من صراعات أسرية حول السلطة الا أنها استطاعت أن تحقق انتعاشا كبيرا فى الساحل الشرقى لافريقيا حتى أصبحت جزيرة بات مركزا للسلطنة النبهانية التى شملت عدة جزر وبعض الموانى الهامة على الساحل الفريقي واستطاعت أن تخضع معظم مقاطعات الساحل تحت لوائها وذلك قبل أن يدهمها الخطر البرتغالى فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى .

وكذلك نجحت الأسرة المزروعية ، وهى أسرة وفدت من ساحل عمان فى السيطرة على ممبسة وسوف نعرض لها بالتفصيل فى حوادث الشرق الافريقى وخاصة عند تأسيس السلطنة العربية فى زنجبار على عهد السيد سـعيد .

والمهم أن الأسرات العربية التى وفدت من عمان أو غيرها من سواحل الخليج والجزيرة العربية حققت نجاحا وازدهارا كبيرين وربطت المصالح الاقتصادية بين العرب والشعوب التى صادقوها ، فمن الظواهر التى تسترعى الانتباه أن التنظيمات التى أقامها العرب فى سواحل شرق افريقيا أو فى دواخلها كانت تفتقر الى المتطلبات العسكرية ويرجع سبب ذلك الى أنها لم تقم نتيجة فتح عسكرى أو توســع حربى وانما قام بها تجار أو مهاجرون أو مضطهدون سياسيون أو دينيون وهؤلاء جميعا كانت مصلحتهم تقتضى أن تكون علاقاتهم سلمية مع الأهالى الذين استقروا فى أوطانهم .

---

(١) Warner, A : A swahili history of Pate cf. Journal of East African Swahili Committee, London 1933. See also Prins : The Swahili speaking people of Zanzibar and the East African Coast (Arab-Shiraz and Swahili, London, 1961).

وكان وصول العمانيين الى سواحل شرق افريقيا منذ القرن السابع الميلادى وتأسيسهم المراكز والمدن والامارات والسلطنات فرصة للرحالة والكتاب العرب لزيارة هذه المناطق أو الكتابة عنها فالمسعودى صحب التجار العرب من عمان وسيراف الى شرق افريقيا .

وعلى الرغم من حديثه المطنب عن الشعوب الافريقية التى اختلط بها العرب الا أنه لم يصف الامارات والمدن الاسلامية التى أسهم العمانيون فى بنائها ، ومما يؤسف له أن الوقت الذى ساح فيه المسعودى كان عهد تأسيس بعض الامارات الاسلامية العمانية .

ولكن المسعودى صب حديثه كله على شعب الاقليمين أو شعب الزنج ومع ذلك فيمكن التعرف على جوانب من حياة هذه الامارات فيما كتبه الجغرافيون أو الرحالة أو أصحاب التقاويم الذين تعاقبوا بعد المسعودى كالادريسى فى مصنفه الشهير نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق أو ياقوت الحموى فى مصنفه المعروف بمعجم البلدان والذى يبدو فيه انه استقصى معلوماته من التجار الذين كانوا يذهبون الى شرق افريقيا لصلته بهؤلاء التجار وبرؤساء عمان على وجه خاص[1] . أو ابن بطوطه الذى وصل الى شرق افريقيا فى أقصى عهد الازدهار الذى عاشته الامارات والسلطنات العربية فيها[2] .

وبالاشارة الى ذلك يمكن التعرف على تاريخ المنطقة وصور مجتمعاتها فيما كتبه الرحالة البرتغاليون الذين رافقوا فاسكو دى جاما فى رحلاته وسجلوا اعجابهم بما شاهدوه من مدن ومجتمعات متحضرة[3] ولذلك فان

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر حـ ١ ص ٣٢٨ — ٣٣٣ دار الرجاء — القاهرة .

(٢) ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الاسفار وعجائب الأمصار حـ ١ انظر سلطنات كلوه ص ١٦٣ .

(٣) انظر ايضا بازل دافيد (ترجمة جمال محمد احمد) : افريقيا تحت اضواء جديدة ص ٢٦٤ وما بعدها — بيروت ١٩٦٥ .

التاريخ العمانى فى شرق افريقيا يمكن البحث عنه فى المصنفات العربية أو فى المصادر البرتغالية الى جانب الروايات المحلية التى سجلت بالعربية أو السواحيلية والتى عكف على تحليلها واستخلاص مادتها الكثير من الباحثين[1] .

ولقد ترتب على الصلات والروابط التى قامت بين عمان وشرق افريقيا ظهور دور عمان واضحا فى تحضير الشرق الافريقى وهو دور كبير اذا قيس بمساحة عمان أو حجم سكانها ولذلك يعتبر ذلك الدور من أهم الأدوار التى سجلها التاريخ لعمان ، وعلى الرغم من أن كثيرا من الباحثين المنصفين قدروا أهمية هذا الدور الا أن هناك باحثين آخرين تعمدوا التقليل من أهمية الدور الحضارى الذى قامت به عمان .

فقد اتجهت بعض المصادر الأجنبية الى التهوين من تأثير العرب الحضارى فى شرق افريقيا فهم مثلا لم يدخلوا الزراعة الا بالقدر الذى كان يكفى استهلاكهم وجل ما انصرفوا اليه هو اشباع نهمهم فى جمع العاج والذهب[2] .

واذا كانت هذه المقولة تصدق بعض الشىء على الفترة السابقة على تأسيس السلطنة العربية فى زنجبار بسبب القلاقل والتناحر بين الامارات والمدن الا أنه بعد أن تأكدت السيطرة العمانية على عهد دولة البوسعيد وتأكدت الوحدة بين مقاطعات الشرق الافريقى اتجهت الدولة الى الاهتمام بالزراعة ، كما سنشير الى ذلك فيما بعد .

ولكن ينبغى أن نؤكد أن طبيعة العرب فى زنجبار كانت طبيعة تجارية وذلك قبل أن يتم استقرارهم النهائى ويسيطرون على المقاطعات الزراعية ويديرونها لحسابهم .

---

(١) جمال زكريا قاسم : المصادر العربية لتاريخ شرق افريقيا — العدد الرابع عشر من المجلة المصرية للدراسات التاريخية — ١٩٦٦ .

(٢) جمال زكريا قاسم : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية ص ٧٩ وما بعدها — معهد البحوث والدراسات العربية — القاهرة ١٩٧٥م .

والغريب أن الأوروبيين أنفسهم لم يدخلوا الزراعة الا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بعد استيطانهم المناطق المرتفعة الصالحة للاستغلال فى الشرق الافريقى • أما الفترة التى سبقت ذلك فقد كان كل ما يعنيهم هو الاثراء والاشتغال بتجارة الرقيق(١) •

ومن نافلة القول أن نشير الى الأثر الحضارى الذى آدخله العرب فى شرق افريقيا ويكفى أن نشير بصدد ذلك آنه فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر حينما فكر الأوروبيون فى ارتياد منظم للقارة الافريقية بدعوى ادخال الحضارة اليها والحقيقة بهدف الاستعمار وقد اعتمدوا على جهود العرب وعلى المراكز التجارية التى أقامها العرب لربط الساحل بالداخل وكانت هذه المراكز عونا كبيرا للمستكشفين الأوربيين بل ان المناطق التى كشفت كانت معروفة لدى العرب •

هذا فضلا عن استعانة الرواد الأوربيين بالتجار والأدلاء العرب فى عمليات الكشف هذه والتى لم تكن فى حقيقتها كشفا وانما كانت مجرد تسجيل لحقائق كانت معروفة لدى العرب من قبل(٢) •

---

(١) جمال زكريا قاسم : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية ص ٨٠ وما بعدها •

Philips Wendell : Oman, A history, p. 24. See also G. Z. Kassem : Omani-Portuguese conflict in the 17th century, Bulletin of the Arab Research and Studies Institute, Cairo, 1980.

(٢) جمال زكريا قاسم : دور العرب فى كشف افريقيا — عالم الفكر — العدد الثانى جـ ١ مارس ١٩٧١ • وانظر أيضا :

1. Michael Crowder : The story of Nigeria.
   CF. The Atlantic Slave Trade, London, 1962.
2. Wendell Philips : op. cit. p. 117.
3. Coupland, R : East Africa and its invaders, pp. 18-20.

الصراع بين البرتغاليين والعمانيين فى شرق افريقيا

قنعت الشعوب السواحيلية فى شرق افريقيا بالعيش فى أمان تحت حكم الأسرات العربية التى توافدت من عمان ، وقد استمر السواحيليون يعترفون بالسيادة العربية حتى مقدم البرتغاليين فى أوائل القرن السادس عشر الذين استغلوا فرصة الصراع الذى كان محتدما بين بعض هذه السلطنات لتوطيد سيطرتهم عليها واخضاع المنطقة كلها لأسلوبهم العسكرى والاحتكارى(١) .

ومما تجدر الاشارة اليه أن فاسكو دى جاما فى وصوله الى الهند اعتمد على أدلاء من العرب والهنود الذين كانوا يترددون على هذه المدن والموانى وقد اشتهر من أولئك الملاح العربى العمانى الشهير شهاب الدين أحمد بن ماجد الذى تدرب فى المياه العمانية على فنون الملاحة ووضع عددا من المؤلفات والقياسات البحرية الهامة منها كتابه الشهير الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد ، وحاوية الاختصار فى أصول علم البحار بالاضافة الى الأراجيز البحرية التى اختصت بالملاحة وفنون الابحار فى الخليج والمحيط الهندى بصفة عامة(٢) .

وقد نجح البرتغاليون فى تطبيق سيطرتهم الاحتكارية على سواحل شرق افريقيا حيث أقاموا فى سفالة وكلوة وموزمبيق حكما مباشرا تسنده

---

(١) للتعرف على أسلوب البرتغاليين الاحتكارى وما اتصف به من عنف . انظر زين العابدين تحفة المجاهدين فى بعض احوال البرتغاليين . نشر دافيد لويز David Lopes لشبونه ١٨٩٨ ص ٤٥ وما بعدها .

(٢) أنور عبد العليم : احمد بن ماجد ص ٦ انظر ايضا مادة شهاب الدين احمد بن ماجد فى دائرة المعارف الاسلامية وكذلك اغناطيوس كراتشكوفسكى — مع المخطوطات العربية ص ١٨٠ — ١٨٣ .

الحاميات والأساطيل القوية ونتيجة للسيطرة البرتغالية انقطعت الصلات تقريبا بين سواحل شرق افريقيا وسواحل الخليج والجزيرة العربية التى كانت تمدها دوما بأفواج متجددة من أبنائها[1] .

وقد استمرت السيطرة البرتغالية فى أوج قوتها ما يقرب من قرن ونصف قرن من الزمان تعرضت خلالها الامبراطورية البرتغالية للتصدع بسبب المنافسات الاستعمارية ، التى واجهتها بالاضافة الى قصور البرتغال وهى دولة صغيرة محدودة المساحة والسكان فى الاحتفاظ والسيطرة الاحتكارية على سواحل امبراطورية بحرية ضخمة امتدت من لشبونه الى كاليكوت .

هذا فضلا عن خضوع البرتغال للعرش الأسبانى بين عامى ١٥٨٠ و ١٦٤٠ .

وما ترتب على كل هذه الأحداث من فقدان البرتغاليين لمعظم مستعمراتهم[2] ولعل عوامل الضعف هذه هى التى مكنت لدولة اليعاربة — وهى دولة عمانية ناشئة فى التصدى للامبراطورية البرتغالية ليس فى عمان فحسب وانما فى القواعد البرتغالية فى الخليج وسواحل الهند وشرق افريقيا .

ولعل أعظم انتصار أحرزه العمانيون على البرتغاليين فى شرق افريقيا هو نجاحهم فى اخضاع قلعة المسيح فى ممبسة فى ١٤ ديسمبر ١٦٩٨ وذلك بعد حصار دام ثلاثة وثلاثين شهرا .

---

(١) محمد بن عبد الله السالمى وناجى عساف ، عمان تاريخ يتكلم ص ١٨٢ .

(٢) عن ازدهار وانهيار الامبراطورية البرتغالية فى الشرق يمكن الرجوع الى :

Boxer C : Four centuries of Portuguese expansion, London, 1961.

ويقول كوبلاند أنه بسقوط ذلك الحصن المنيع وضعت نهاية لتفوق البرتغاليين فى شرق افريقيا اذ كان لسقوط ممبسة على يد عرب عمان أثره البالغ فى اجبـار البرتغاليين على الجلاء عن جميع الساحل الذى يقع شمال رأس دلجادو[١] وفشلت محاولاتهم فى اعادة سيطرتهم وكانت أهم تلك المحاولات محاولة قاموا بها فى عام ١٧٣٥ عندما تقدموا بأسطولهم صوب ممباسا منتهزين فرصة الاضطرابات التى وقعت فيها نتيجة الحروب التى قامت بينها وبين زنجبار[٢] .

ومهما كانت المحاولات التى بذلها البرتغاليون لاسترداد مركزهم فان الأمر الذى لاشك فيه أنه بسقوط قلعة المسيح فى ممبسة وضعت نهاية لتفوق البرتغاليين فى شرق افريقيا[٣] وينسب الى الامام سيف وهو الذى خلف أباه سلطان بن سيف فى عام ١٦٦٩ تحريره لسواحل شرق افريقيا من السيطرة البرتغالية .

وقد حفظ لنا المؤرخ العمانى نور الدين السالمى فى كتابه المعروف تحفة الأعيان بسيرة آل عمان شيئا من أعمال سيف وجهاده ضد البرتغاليين فذكر أن الامام حارب النصارى فى جميع الأقطار وعمل لهم مراكب عظيمة فى البحـر وعظم جيشه وقوى سلطانه وأخذ من النصـارى ممبسـة والجزيرة الخضراء وكلوة وغيرها من البلدان التى بالزنج ومن البلاد التى بالهنـد[٤] كما حفظ لنا بعض المراسـلات التى تبودلت بين الأئمـة

---

(١) Coupland : East Africa and its invaders, p. 67-68, See also Guillain . Documents sur l'Histoire, geographie et le commerce de l'Afrique Orientale, Tome I, pp. 67-68.

(٢) Eliot, Sir Charles : East Africa Protectorate, p. 19.

(٣) عن قلعة البرتغاليين فى ممبسة يمكن الرجوع الى :
Boxer, C : Fort Jesus and the Portuguese in Mombasa 1593-1927, London 1961.

(٤) السالمى — تحفة الأعيان بسيرة آل عمان جـ ٢ ص ٩٦ — ٩٨ .

العمانيين وبين بعض قادة البرتغاليين وكشفت لنا تلك المراسلات عما كان يتميز به الصراع من حماس دينى ورغبة العمانيين الحقيقية فى الجهاد[١] .

أصبح العمانيون بعد نجاحهم فى طرد البرتغاليين من الخليج وسواحل شرق افريقيا حتى رأس دلجادو جنوبا قوة ذات خطر كما أضحى أسطولهم الشراعى يسيطر على التجارة فى المحيط الهندى واعانهم على ذلك أن سياسة الدول الاوربية التى خلفت البرتغال فى بحار الشرق لم تكن قائمة على سياسة الاحتكار التجارى كما كانت سياسة البرتغاليين وانما انصرفت الى تأسيس المستعمرات واستغلال الاهالى وتشوين الامبراطوريات ، أما فى التجارة فقد أفسحت المجال للعناصر التى كانت تعمل فيها من قديم لتعمل فيها من جديد وانما حرصوا فى الوقت نفسه على تأمين المواصلات لامبراطورياتهم الاستعمارية وترتب على ذلك دخولهم فى علاقات مع القوى المسيطرة على أهم القواعد فى طريق هذه المواصلات.

وثمة حقيقة أخرى ينبغى أن نشير اليها وهى أن تدخل عرب عمان فى شرق افريقيا لم يكن عاملا هاما فى القضاء على السيطرة البرتغالية فى شرق افريقيا فحسب بل ان أهمية هذا التدخل هو أنه أتاح للدين الاسلامى وللغة العربية المناخ الصالح للانتشار دون عقبات[٢] .

فالمعروف أن البرتغاليين قد تمكنوا خلال المائتى عام التى قضوها فى ساحل شرق افريقيا فى التمكين للعقيدة الكاثوليكية ولذلك تعتبر سنة ١٦٩٨ سنة هامة لامن حيث القضاء على السيطرة البرتغالية بل

---

(١) انظر نص هذه المكاتبات فى :
Guillain : op. cit. Tome I, p. 520 ff.
وكذلك السالمى ج ٢ ص ١١ وما بعدها — انظر ايضا :
G.Z. Kassem : Omani-Portuguese conflict in the 17th century, Cairo 1980.

(٢) عبد الرحمن بدوى : افريقيا والثقافة العربية — العدد ٤٨ من مجلة نهضة افريقيا السنة الرابعة — اكتوبر ١٩٦١ .

أن أهميتها ترجع فى أنها أتاحت للاسلام الفرصة الواسعة للانتشار[١] •

وبعد سقوط ممبسة على أيدى العمانيين توالت السيطرة العمانية بعد ذلك على كثير من اجزاء الساحل على أن هناك أمرا جديرا بالانتباه وهو أن طرد العمانيين للبرتغاليين من شرق افريقيا لم يكن بمثابة تأكيد للادعاءات العمانية فى شرق افريقيا اذ أن العلاقات بين عمان وشرق افريقيا تعود كما سبق أن أشرنا الى روابط أقوى من ذلك بكثير وتمتد الى عصور موغلة فى التاريخ وانما يمكن اعتبار تحرير عمان لسواحل شرق افريقيا من سيطرة البرتغاليين بمثابة مرحلة من المراحل التى مرت بها العلاقات بين عمان والشرق الافريقى •

ومن ناحية أخرى فان سقوط ممباسة لم يكن نهاية للدور الذى قامت به عمان للتصدى لخطر البرتغاليين اذ استمر هذا الدور قائما حتى السنوات الاولى من القرن الثامن عشر وهناك ثمة ما يؤكد أن الامام اليعربى سيف بن سلطان وصل الى موزمبيق وشدد الحصار على حصن سان سبستيان الأمر الذى أثار ثائرة البرتغاليين ، وعلى الرغم من أن العمانيين كانوا على وشك الاستيلاء على الحصن الا أنهم لم ينجحوا فى ذلك نظرا لما وقع فى نفوسهم من ارتياع على أثر انفجار لغم كبير كان البرتغاليين قد أعدوه هناك •

وعلى أية حال فقد بادر سكان الساحل الشرقى لافريقيا بالاعتراف بالسيادة العمانية من خليج دلجادو جنوبا حتى رأس غردفون شمالا وهى المناطق التى تم تحريرها من السيطرة البرتغالية •

وعلى الرغم من تلك المنجزات الا أن الظروف لم تساعد ، دولة

---

(١) لوثروب ستودارد : حاضر العالم الاسلامى حـ ١ ص ٢٥٦ تعليق الأمير شكيب ارسلان •

اليعاربة على تأكيد سيطرتها على الشرق الافريقى رغم احرازها الانتصار ضد البرتغاليين وعلى الرغم من الصـلات الوثيقة التى كانت تربط بينها وبين المستوطنات العربية فى شرق افريقيا التى كانت تنظر الى عمان دوما باعتبارها الدولة الأم وتلجأ اليها خلال الازمات ٠ ولكن العمانيين مع ذلك لم يعملوا على وراثة النفوذ البرتغالى وانما اكتفوا بتبعية هذه المناطق لدولتهم تبعية اسمية (١) ٠

ويرجع ذلك فى تقديرنا الى أن دولـة اليعاربة قامت على أسـاس مذهبى ولذلك كان أهم ما يعنيها هو الارتباط بالمراكز الداخلية الدينية فى عمان كالرستاق ونزوى وبهـلا وازكى وغيرها ٠

ولا شك أن المشكلات الداخلية التى تردت فيها دولـة اليعاربة من تنازع حـول الحـكم واستمرار الصراع ضـد البرتغاليين فى تتبعهم فى سـواحل الهند كانت من أهم العوامل التى استنفدت جهودهم وجعلت السيادة العمانية على شرق افريقيا على عهد اليعاربة سيادة اسمية أكثر من كونها سيادة فعلية حيث لم يكن لـدى اليعاربة الوقت الكافى الـذى يتمكنون فيه من تفقد سلطانهم (٢) حتى اذا سقطت دولة اليعاربة وخلفتها دولة البوسعيد كانت هذه الدولة أكثر تفهما لحقيقة الصراع فى البحـار بين الدول الاستعمارية فوجهت ثقلها الى الشرق الافريقى لتسبق هذه الدول فى تكوين امبراطورية لها فى تلك الاجزاء ٠

وهكذا كان الخلاف كبيرا بين أسلوب الدولتين فى علاقاتهما بشرق افريقيا فبينمـا اكتفت دولة اليعاربة بالسيادة الاسمية تاركة الحكم لبعض

---

(١) جمال زكريا قاسم : دولة بوسعيد فى عمان وشرق افريقيا — ص ٢٤ — ٢٥ ٠

(٢)

Krapf, Rev .Dr. J. Lewis : Travels, Researches and Missionary Labours during an eighteen years residence in Eastern Africa, p. 529. London 1860.

الاسرات العمانية الموالية لها عمل البوسعيد على تأكيد سيطرتهم الفعلية، وقد يكون من المفيد أن نشير بصدد ذلك الى أهم الأسر التى ولاها اليعاربة على شرق افريقية وهى أسرة الحرث التى حكمت فى زنجبار والنبهانيون الذين أقرهم اليعاربة حكاما على جزيرة بات وان كان الامام سيف حرص فى الوقت نفسه على تقليص نفوذهم من مدينة ممبسة اذ عهد بها لاسرة جديدة وهى اسرة المعمرى .

وعلى الرغم من نجاح محمد بن سعيد المعمرى فى اخضاع زنجبار ومقديشيو وغيرهما من مدن الساحل الا أنه فشل فى تثبيت الحكم لأسرته حيث خلفتها أسرة جديدة هى أسرة المزروعى[1] . اذ كان أئمة اليعاربة يرسلون ولاتهم متناوبين على ولاية ممبسة وما كان يتبعها من مقاطعات فى سواحل شرق افريقيا وجزرها واستمر الوضع على ذلك حتى ضعفت قوة اليعاربة وعجزت عن مقابلة ولاياتها فى شرق افريقيا لقلة ايراداتها حيث لم يوجه اليعاربة أهمية لاستثمارها .

وفى عام ١٧٣٩ عرض الامام اليعربى سيف بن سلطان على المزاريع ولاية افريقيا على أن يدفعوا له شيئا من المال كل سنة [٢] وبهذه الطريقة جعل الشيخ محمد بن عثمان المزروعى خلفا لمحمد بن سعيد المعمرى ليكون واليا على ممبسة .

وفى أثناء ولاية الشيخ محمد بن عثمان انتقلت الامامة الى الامام

---

(١) اميلى رويت (مترجم) : مذكرات أميرة عربية ص ٢٥ .

(٢) المزروعيون او المزاريع فرع من قبيلة بنى ياس التى ماتزال تسكن الساحل العمانى وقد حكمت هذه الاسرة فى الشرق الافريقى ما يقرب من مائة عام وامتد سلطانها فى اوائل القرن التاسع عشر على طول ساحل كينيا من لامو شمالا حتى بنجا فى جنوبها . وقد نشر وليم اوين W. Owen الرحالة الانجليزى الذى زار شرق افريقيا عام ١٨٢٤ ملخصا لكتاب وجده فى ممبسة عن تاريخ آل المزروعى وذلك ضمن كتابة المعنون .
Narratives of voyage to explore the shores of Arabia, Africa and Madagascar, 2 vols. London, 1862.

أحمد بن سعيد ١٧٤١[1] ولما بلغ الخبر بانتقال الامامة من اليعاربة الى البوسعيد عزم الوالى الجديد على الاستقلال بملكية ممبسة ومتعلقاتها وامتنع عن دفع الجزية المفروضة ورفض الاعتراف بولاية ممبسة لدولة البوسعيد وعلل ذلك بأنه ظل مواليا لدولة اليعاربة حتى سقطت ولم تكن تبعيته لعمان معناها أن يستمر فى ولائه لها حتى بعد سقوط اسرتها الحاكمة .

كما ذكر أيضا بأن الامام أحمد بن سعيد مؤسس اسرة البوسعيد وصل الى الحكم بدهائه وطموحه الشخصى ، واذا كان الامام أحمد بن سعيد وهو والى اليعاربة على صحار قد استطاع أن يصل الى الحكم فى عمان فماذا يحول دونه وهو حاكم مبسة فى أن يقتدى بما فعله حاكم صحار ويبادر باعلان استقلال ممبسة وتوابعها فى شرق افريقيا عن التبعية العمانية[2] .

على أن الامام أحمد بن سعيد كان يدرك جيدا مساوىء حدوث انفصال بين بلاده وبين شرق افريقيا لما بين الاقليمين من روابط وصلات اقتصادية وروحية ولذلك فان المشاكل التى واجهها سواء فى داخلية بلاده أو فى الخليج أو فى صراعه ضد الفرس لم تكن لتشغله عن تثبيت السيادة العمانية على ممتلكاتها فى الشرق الافريقى .

ومن ناحية أخرى فانه بالاضافة الى الحركات الانفصالية التى تزعمها المزروعيون فى ممبسة واجه الامام أحمد بن سعيد حركات انفصالية أخرى تزعمها النبهانيون فى جزيرة بات[3] واذا كان الامام أحمد بن

---

(١) Rudolf Said, op. cit. p. 47.

(٢) Lyne : Zanzibar in Contemporary times, p. 10. See also Guillain : op. cit. Tome I, p. 543.

وكذلك جهينة الاخبار فى تاريخ زنجبار تحقيق عبد المنعم عامر ١١٨/١١٩

(٣) Pearce, F. B. : Zanzibar, the Island, Metropolis of Eastern Africa, p. 109, London 1920.

سعيد قــد لقى مقاومة عنيفة فى ممبســة وبات فانه كان أكثر توفيقــا ونجاحا فى المقاطعات الأخرى التى لم تدب فيها الثورات مثلما حــدث فى هاتين المقاطعتين فزنجبار ظلت على ولائها لعمان واعترفت بالدولــة الجديدة كذلك فعلت كلوة بينما انحازت كل من مقديشيو وبراوة وبقيــة المــوانى والجزر الواقعة فى الجنــوب حتى توانى لمبسة (١) .

حقيقة أن الامام أحمــد بن سعيد حاول التصــدى لهذه الثورات ولكنه سرعان ما أدرك أن تورطه فى مشكلات الشرق الأفريقى فى الوقت الــذى لم يكن حكمــه قــد توطــد فى عمان قد يؤدى الى انهيار دولته ويكفى أن نشــير الى أن العلاقات العدائية بينه وبين كريم خان الزندى . ومواجهته بالصراع الانجليزى الفرنسى الذى بدأ يظهر فى مياه مسقط أجبر الامام أحمــد على وقف نشاطه فى الشرق الافريقى مكتفيا بالعمل على ترويج التجارة واستمرارها بين مسقط وشرق افريقيا مقتنعا بسيادة عمان الاسمية .

ولكن هذه السيادة الاسمية أدت الى انفصال المقاطعات الافريقية واحــدة بعد الأخرى ســواء حــدث ذلك فى عهــده أو فى عهد ابنــه سعيد بن الامام أو سلطان بن أحمــد ففى خــلال عهد اولئك الحــكام انصرفت سياستهم الى تأكيد مركز دولتهم فى عمان وانصرافهم الى معالجة مشــاكل الدولة الخارجية وقــد استمر الوضع على ذلك حتى تولى السيد سعيد بن سلطان الحكم فى عمــان ١٨٠٦ حيث كانت له سياســة اختلفت اختلافا جذريا من حيث اتجاهه الى انشــاء امبراطورية عمانية فى شرق افريقيا وهو أمــل استطاع أن يحققه خلال المرحلة الثانية من حكمه الطويل الذى امتد حتى عام ١٨٥٦ (٢) .

---

(١) Guillain : op. cit., Tome I, pp. 549-550.

(٢) Pearce : op. cit. p. 117.

وقد كان أول ما اتجه اليه السيد سعيد هو التخلص من الأسر الحاكمة فى شرق افريقيا نظرا لجنوحها الى الاستقلال عن عمان وقد ركز بصفة خاصة على أسرة المزروعى فى ممبسة والأسرة النبهانية فى جزيرة بات وقد بدأ بالتخلص من الأسرة المزروعية التى سقطت تحت سيطرته الفعلية•

ونحن نرى أن سقوط الأسرة المزروعية وبقاء الأسرة النبهانية رغم كونها أضعف كثيرا من الأسرة المزروعية يثير جدلا قويا فى اتجاه السيد سعيد فى بداية الأمر الى الاستعانة بالاسرة النبهانية للاطاحة بآل المزروعى فى ممبسة خاصة وأن حوادث سقوط ممبسة فى أيدى السلطان سعيد تشير بوضوح الى المساندة الفعلية التى قدمها النبهانيون الى والى السيد سعيد فى ممبسة •

ومن ناحية أخرى فان الدارس لتاريخ شرق افريقيا يجد أن الأسرة النبهانية فى بات كانت قد سقطت تحت سيطرة آل المزروعى فى ممبسة ولكن السيد سعيد حرص قبل أن يبدأ صراعه ضد ممبسة على أن يعيد سلطة بات للأسرة النبهانية وكان يهدف من ذلك أن تستأنف هذه الاسرة صراعها القديم ضد المزروعيين فيؤدى ذلك الى اضعاف نفوذ الأسرتين •

ومما يؤكد لنا ذلك أن السيد سعيد راودته فكرة التخلص من النبهانيين بعد استقرار حكمه فى زنجبار كما فعل مع آل المزروعى فى ممبسة الا أنه فشل فى الاستيلاء على جزيرة بات ولم يخضع النبهانيون الى اسرة البوسعيد الا على عهد خلفائه من بعده وكان آخر استقرار لهم فى مقاطعة ديتو التى خضعت بدورها للسيطرة البريطانية [1] •

---

(١) تقع مقاطعة ديتو فى المناطق الداخلية فى الصومال البريطانى وعلى الرغم من خضوعها للسيطرة البريطانية الا أنها تحكم وتخضع لسلاطين مسلمين مستقلين ينتمون الى الاسرة النبهانية التى كانت تتوارث الحكم فى جزيرة بات — انظر صلاح العقاد وجمال زكريا قاسم : زنجبار ص (١٣١)

الامبراطورية العمانية فى شرق افريقيا على عهد البوسعيد

ولعل أزهى فترة عاشتها الامبراطورية العمانية فى شرق افريقيا حدثت على عهد السيد سعيد اذ امتزج العرب العمانيون بالسكان الوطنيين وانعقدت بينهم وبين السلاطين الأفارقة صلات مودة وحسن جوار كما أبقى العمانيون لهؤلاء الملوك والسلاطين نفوذهم بين مواطنيهم واحكامهم القائمة على رعاياهم ومماليكهم .

ولعل ابرز مثال على ذلك هو السلطان منى مكوا [١] وهو من السلاطين الوطنيين الذين سادوا جزيرة زنجبار قبل الوجود العمانى فقد ناصفه البوسعيد الحكم فى زنجبار كما لم يتعرض العمانيون للاهالى الوطنيين بشىء من الأذى أو القهر ولم يفرضوا عليهم ذلا بل انهم عملوا على تخليصهم من بطش أبناء جنسهم الذين استرقوهم فعلموهم الحرف والزراعات واشركوهم معهم فى شئون الحياة واعطوهم الاملاك والمزارع يتابعونها ويتوارثونها فى حرية تامة كما علموهم الدين الاسلامى وتزاوجوا منهم فصارت بعض نسائهم امهات ووالدات لعرب نبلاء .

وقد تميز عهد البوسعيد باتجاه عمان لتخطيط سياسة افريقية ورغم ماذهب اليه بعض المؤرخين من أن اتجاه السيد سعيد للشرق الافريقى كانت محاولة منه للتخلص من المشكلات التى كانت تواجهه فى عمان [٢] الا أننا لا نتفق مع هذا الرأى لأن اتخاذ السيد سعيد لنفسه

---

(١) هو السلطان احمد بن محمد بن حسن العلوى ويعرف فى زنجبار باسم منى مكوا ومعناه السيد الكبير وهو من سلالة السلاطين السابقين ، ولما نقل السيد سعيد ديوان حكومته من مسقط الى زنجبار جعل حكم البلاد مناصفة بينه وبين منى مكوا وكان يسود على جميع رعاياه فى زنجبار وكان السيد سعيد حكيما لم يعترض على الاحكام التى كان يصدرها متى مكوا منافسه فى دونغا بل كان معه على غاية الود والوفاق وكان منى مكوا يجمع الرسوم من رعاياه ويقسمها بينه وبين السيد سعيد — انظر جهينة الاخبار فى تاريخ زنجبار ص١٦٨

(٢) Pearce : op. cit. p. 117.

سياســة افريقية لم تكن لتبعده عن المشــاكل العمانية التى كان يفــرغ لها جزءا كبيرا من وقته وجهده وانمــا اتجــاه السيد سعيد الى الشرق الأفريقى كان يكمن فى حرصــه البالغ على هذا الجزء من دولته لكثــرة موارده ووفرة خيراته وزيادة فرص استغلالــه ٠

هذا فضــلا عن أن الظروف التى آلت اليها الدولــة فى عهده لم تكن تضطره كمــا اضطرت اســلافه من أئمــة وسلاطين الدولة على البقــاء فى اقليم عمان ذا الطابع الدينى التقليدى وظهر ذلك واضحا فى اتجاه السيد سعيد الى نقل عاصمــة ملكه من مسقط الى زنجبار فى عام ١٨٣٢ وجهوده الدائبة لتكــوين امبراطورية عمانية فى شرق افريقيا [١] ويمكننا أن نؤكد أن الفترة من عــام ١٨٣٩ وهى نهاية صراعه ضــد آل المزروعى فى ممبسة كانت حتى وفاته فى عام ١٨٥٦ هى الفترة التى انصرفت فيها جهــوده وراء رغبته فى توسيع ممتلكات أسرته فى شرق افريقيا والعمل على استغلالها ٠

وعلى الرغم من أن السيد سعيد كان يدرك جيــدا أن عمــان هى المصــدر الأول لقوته البحرية والعسكرية الا أنه بدأ يعهد بها الى وكلاء له ما استطاع الى ذلك سبيلا ووضح اهتمامه الشخصى بشئون ممتلكاته فى الشرق الافريقى [٢] ومن المعروف أن حــكم السيد سعيد بدأ فى مسقط عــام ١٨٠٦ وقضى سنوات حكمه الأولى فى تدعيم مركز حكمه فى عمــان ســواء كان ذلك فى صراعه ضــد القواسم أو ضــد السعوديين أو فى محاولته تأكيد كيان عمان وسط المنافسة الانجليزية الفرنسية فى ميــاه المحيط الهنــدى ٠

على أن السيد سعيد كان أكثر ادراكا الى أهمية الشرق الافريقى وكما سبق أن اشرنا الى الأسرات العمانيــة التى استقرت فى شرق افريقيــا

---

(١) جمال زكريا قاسم : دولة بوسعيد فى عمان وشرق أفريقيا ص ٢٠٧ ٠
(٢) ج ٠ ج ٠ لوريمر : دليل الخليج — المجلد الثانى ص ٧٠٢ / ص ٧٠٣ (الترجمة العربية — مكتب ديوان حاكم قطر) ٠

حاولت أن تؤكـد لنفسها كيانا منفصـلا عن الدولة الأم • ففى بدايـه حكمه لم تكن سلطته واضحـة الا على بعض المقاطعات التابعة لزنجبار وهى بمبا ومافيا وكلوة بينمـا استمرت اسرة المزروعى فى ممبسة تنازع عمـان سيادتها على الشرق الافريقى •

وقـد أدرك السيد سعيد أهمية العامل الاقتصادى فى الصراع بينه وبين ممبسة ويتضح ذلك فى اتجاهه الى تطويقها اقتصاديا وذلك بمنـع رعاياه العمانيين من التجارة معها ثم اتجـه بعد ذلك الى تخليص المقاطعات الافريقية من سيطرة آل المزروعى •

وفيما يبـدو أن الضغط الاقتصـادى والعسـكرى كانا عنيفين من قبل عمـان ، الأمـر الذى دفع بالمزروعيين فى عام ١٨٢٤ الى طلب الحماية البريطانية وبالفعل وقـع الشيخ المزروعى مع أحـد ضباط البحرية الهندية الكابتن وليم اوين اتفاقية حماية (١) وكان الـذى دفع ذلك الضابط الى توقيع هذه الاتفاقية من غير استئذان حكومته هو ادراكه بأن هـذه الاتفاقية ستكون مفيدة لتثبيت دعائم النفـوذ الانجليزى وقمـع تجـارة الرقيق ومواجهة النفـوذ الفرنسى فى شرق افريقيا •

ولكن حكومـة الهند ، مراعاة لصداقتها للسيد سعيد أسرعت باصدار أوامرها الى الكابتن اوين بالانسحـاب من ممبسـة وقد تم ذلك بالفعـل فى عام ١٨٢٦ (٢) •

ولا شـك أن سقوط الحماية البريطانية فى ممبسـة دفعت السـيد سعيد الى السيطرة عليها ففى ديسمبر من عام ١٨٢٩ قام بحملته الأولى

---

(١) Coupland : East Africa and its Invaders, p. 260. See also selectinos from the Records of Bombay Government. Vol. XXIV. p. 191, Bombay 1856.

(٢) Coupland : The exploitation of East Africa, p. 9.

على شرق افريقيا ولكن صـــد عن ممبسة وتكبد خسائر فادحـــة [١] بيد أنه استطاع فى حملته الثانية فى عام ١٨٣٢ أن يستولى على ممبســـة وبدأ يعد جزيرة زنجبار كى تكون قصبة حكمـــه فى شرق افريقيا .

ولكن مالبث أن انتهز المزروعيين فرصـــة تردده للاقامـــة بين مسقط وزنجبار وعودته الى عمان حتى تمكنوا من استرداد زعامتهم على ممبسة[٢] . وقد حاول السيد سعيد أن ينفس عن طاقته فى شرق افريقيا بمشروعه للزواج من ملكة مدغشقر وكان زوجها ملك الجزيرة قـد مات واعتلت ارملته الملكة رافا فولوتا ماتجاكا أريكـــة الحكم ولكن الملكة اعتذرت عن عـــدم الزواج بتقاليد بلادها التى لاتجيز زواج الملكة الارملـــة ولكنها تقبلت هداياه ورسائله الرقيقة التى بعث بها اليها وعرضت عليه أن تزوجه احدى الأميرات اليافعات[٣] .

كذلك حاول السيد سعيد أن يستعين بالولايات المتحـــدة الامريكيـــة لانتزاع موزمبيق من البرتغاليين على أن تمـــده بقوات لاستعادة ممبسة من آل المزروعى وقـــد ظهر ذلك خلال المفاوضات التى دارت بينه وبين ادموند روبرتس ممثل الولايات المتحدة الامريكية لعقد معاهدة ١٨٣٣ .

ولكن الحكومة الأمريكية لم تر من مصلحتها تنفيذ تلك المغامرات ورأت الاكتفاء بتوثيق العلاقات الاقتصادية مع سلطنة مسقط وخاصـــة القسم الافريقى منها [٤] .

---

(١) ج. ج . لوريمر — المصدر السابق جـ ٢ ص ٧٠٣ انظر ايضا
Guillain : Relation du voyage d'Exploration a la Cote Orientale d'Afrique Tome I, p. 193, Paris, 1856.

(٢) ج . ج . لوريمر — المصدر السابق جـ ٢ ص ٧٠٣ .

(٣) سلمى رويت : مذكرات أميرة عربية ص ٣٠ — انظر ايضا .
Lyne : op. cit. pp. 29-30.

(٤) Coupland : East Africa and its Invaders, p. 281.

على أنه يكــون تعليل عــدم نجاح الســيد سعيد فى توجيه ضربة قاصمة الى آل المزروعى فى ممبســة انمــا يرجع الى موقف الحكومــة البريطانية التى كانت تقف الى جانبهم خوفا من التجائهم الى فرنســا ويتضح ذلك فى فشــل المحاولات التى كان يوجهها السيد سعيد ضدهم بل وأكثر من ذلك فان السيد سعيد كان مضطرا الى التحفظ فى عدائه معهم وكان ذلك بطلب من الحكومة البريطانية •

على أن الصراعات الداخلية فى الأسرة المزروعية هى التى عجلت بفقدان نفوذهم [١] اذ أن السيد سعيد استغل التصــدع الداخلى الــذى كانت تواجهه الاسرة بارســال حملة فى عام ١٨٣٦ تمكن بواسطتها من الاستيلاء على قلعة المدينــة العاتيــة •

وقد ساعدته فى هذه الحملة قبائل بنى على القاطنة على الســاحل العمانى بزعامــة عيسى بنى طريف وقــد تأكدت السيطرة العمانية عــلى ممبســة بعــد ذلك بثلاثة ســنوات ١٨٣٩ م وتشتت زعماء الأسرة فى مقاطعات الشرق الافريقى •

وقــد ذكر المبشر الألمــانى لويس كرايف أنه فى أثناء تجواله فى مقاطعات الشرق الافريقى عام ١٨٤٣ قابله بعض زعماء المزروعى وحاولوا استغلاله فى الوساطه بينهم وبين السيد بسعيد ولكن كرايف اعتذر عن عدم القيام بهذه المهمــه مؤكــدا أن الغرض من بعثته غرض دينى لا شأن له بتلك الأمــور السياسية [٢] •

كان نجاح السيد سعيد فى السيطرة على ممبسة يعد عاملا هاما من

---

(١) جمال زكريا قاسم : دولة بوسعيد فى عمان وشرق افريقيا ص ٢٠٥ .

(٢) Krapt, Travels, Researches and Missionary Labours during an eighteen years residence in East Africa, pp. 536-567. See also Pankhurst, E. Sylvia. Ex Italian Somaliland, p. 16, London 1951.

عوامل الاستقرار فى الشرق الافريقى ولعل ذلك الاستقرار كان من أهم الدوافـع التى دفعته للاقامة الدائمـة هناك وكان قـد سبق لـه أن اتخذ جزيرة زنجبار عاصمة لحكمه واذا به يتجه الى قضاء معظم أوقاته فيهـا •

ولكن لا يعنى ذلك أن السيد سعيد قد أهمل شئون ممتلكاته فى عمان أو الجزيرة العربية اذ أن وجـوده فى زنجبار لم يكن يمنعه من التردد على القسـم الآسيوى من ممتلكاته لتفقد أوضاعه • وقد أورد كثير من الباحثين العديد من الدوافع التى دفعت السـيد سعيد الى الاستقرار فى جزيرة زنجبار واتخاذها عاصمـة لحكمـه •

وقد أكـد بيرس بصـدد ذلك على الدافع السياسى الـذى كان يكمن فى المعاناة التى كان يتعرض لها السيد سعيد فى عمـان من قبل السعوديين والقواسم مما جعلـه يلجأ الى تلك الجزيرة الواقعـة فى المحيط الهندى على بعد كبير من ممتلكاته فى عمان لكى يبتعد عن المؤامرات والثورات [١] •

أمـا كوبلاند وهو أحـد الباحثين الثقاة فى تاريخ شرق افريقيا فقد أكـد على الدوافع الاقتصـادية باعتبارها من أقـوى الدوافع التى دفعت السيد سعيد الى احـداث ذلك الانتقال ، وقـد ذكر بصـدد ذلك أنه لمـا كانت التجارة هى الشغل الشاغل للسيد سعيد فلم يكن هناك مكان آخـر فى ممتلكاته أكثر ملائمـة لتنفيذ سياسته الاقتصادية من زنجبار كمـا تكمن الدوافع الاقتصادية أيضـا فى جاذبية زنجبار الطبيعية اذا ما قورنت بمسقط التى تعتبر من أشـد جهات الأرض حرارة خلال أربعة أو أكثر من الشهور فى السـنة والى أهمية زنجبار التجارية بمـا تتمتع به من موان صالحـة لرسـو السفن وتسهيل عمليات النقـل والتبادل التجـارية •

---

(١) Pearce : op. cit. p. 118.

ولاشــك أن موقعها فى الشرق الافريقى جعلها مركزا وسيطا للتجارة والتبادل لمعظم مقاطعات الشرق الافريقى [١] .

ومما لاشك فيه أن العامل الاقتصــادى هو الذى يعلل لنــا ما يثيره بعض الباحثين من تســاؤلات عن الأسباب التى جعلت السيد سعيد يختار جزيرة زنجبار لتكون عاصمــة لدولته رغم أنه كانت هناك عــدة مــدن غير زنجبار كممبســة وكلوة ومقديشيو ولامو وغيرها وكل مدينــة مــن تلك المــدن كانت تنافس زنجبار فى ثروتها وفى تاريخها وعلى الأخــص مدينــة كلوة التى عرف أنها كانت العاصمــة لمئات السنين للدول الفارسية والعربية التى تعاقبت على الشرق الافريقى [٢] .

وهناك من الباحثين من يعتقد أن السيد سعيد اختار جزيرة زنجبار لطيب هوائها وبما فيها من المزارع والبســاتين حيث ملأهــا بمزارع الجوز وقصب الســكر والنارجيل والقرنفل وقصدها التجار من كل حدب وصوب .

والواقع أنه لولا فراســة الســيد سعيد وصــدق أمله لمــا استطاع المرء أن يتصــور بأن جزيرة صغيرة مثل زنجبار التى لم تكن وقتئذ الا جزيرة تكتنفها الزناجــل وتحيط بها الحشائش ويحتقرها كل من مر عليها ستكون لائقــة لتكون عاصمة للسلطنة .

وقد انتقل السيد سعيد الى جزيرة زنجبار وانتقل معه مئات من العرب وقــد رافقه التوفيق فعمت التجــارة واتســع نطاقها الى حــد لم يعرف

---

(١) D'Avezac : Ile de l'Afrique Troisieme Partie, p. 141.
See also Coupland : East Africa and its Invaders, p. 295.
Mona McMillan : Introducing East Africa, p. 162, London 1945.

(٢) Chappnis, F : Visite a l'Imam de Mascate an Zangular
(Extrait de memoires de la societé de geographie de Geneva 1860.

له نظير من قبل وتضاعف الدخل عشرات المرات وتحولت زنجبار من قرية صغيرة الى أعظم ميناء فى الاطراف الغربية من المحيط الهندى كما أصبحت المستودع الرئيسى للتجارة الأفريقية الآسيوية بصفة عامة .

وهكذا تبدل حال زنجبار من قرية صغيرة كانت تعيش على صيد الأسماك فى بداية القرن الثامن عشر أو كما وصفها بيسل فى نهاية القرن الثامن عشر عندما كانت لاتشتمل سوى على عدد قليل من الاكواخ الى تلك المكانة التى وصلت اليها على عهد السيد سعيد [١] .

ويتضح من تقارير اتكنز همرتون القنصل البريطانى فى زنجبار أن السكان ازدادوا فيها بانتقال السيد سعيد اليها ويقول كوبلاند بصدد ذلك أنه من خلال عشرين عاما قضاها السيد سعيد فى زنجبار استطاع أن يجعل منها واحدة من ثلاث أو أربع مراكز رئيسية للتجارة فى المياه العربية فى المحيط الهندى .

والواقع أن زنجبار لم تصل الى تلك الشهرة الا بعد وفود العرب العمانيين عليها على عهد السيد سعيد كما أن عمارة زنجبار من قصور ومساجد كانت أيضا عمارة العرب العمانيين حيث امتلأت الجزيرة بسكنى العرب والهنود [٢] .

وقد عرفت زنجبار ببستان شرق افريقيا لجمال منظر اريافها التى هى مدورة بشجر القرنفل والنارجيل والبرتقال ويرى المتجول فى اريافها كانه يتنزه فى بستان جميل المنظر تتدفق المياه العذبة فى جميع

---

(١) Lyne : op. cit. p. 4.

(٢) جهينة الاخبار فى تاريخ زنجبار ص ٢٠ — ٢٢ .

أرجائها ومن أهم القبائل العربيــة التى هاجرت من عمــان اليها فى زمن السيد سعيد قبيلة الحرث التى عمرت زنجبار ببطونها وأفخادها[١] .

وفى جزيرة زنجبار حرص السيد سعيد على زراعــة القرنفل حيث أصــدر منشــورا الى كافــة رعاياه فى زنجبار والجزيرة الخضراء بأنه يستلزم من كل صاحب مزرعة أن يزرع فيهــا ثلاث قورات من القرنفــل بدل كل شجرة نارجيل[٢] .

ويقال أن زراعــة القرنفل أدخلت الى زنجبار بواسطة رجــل من كبار مــلاك العرب نفاه السيد سعيد خارج الجزيرة لأمــر خالفه فيــه ولكن لم يلبث أن عــاد ومعــه بذور القرنفل لكى يستسمح بها مــولاه فصفح عنه وبدأت تلك الزراعــة فى زنجبار والمعروف أن العرب نقلــوا تلك الزراعة من جزيرة موريس ولعل الفرنسيين كانوا هم أول من أدخلوها الى تلك الجزيرة فى أواخر القرن الثامن عشر[٣] .

والمهم أن زراعــة القرنفل نجحت نجاحا كبيرا فى جزيرة بمبا وجزيرة زنجبار حتى أن هاتين الجزيرتين لاتزالان حتى الآن تمدان العالم بالقسط الأعظم من استهلاكه من القرنفل حيث يبلغ مقدار ما ينتجانه ٩٠ ٪ مــن الانتاجى العالمى[٤] .

---

(١) المرجع السابق ص ١٨ — ١٩ .

(٢) جهينة الاخبار فى تاريخ زنجبار ص ١٥٥ .

(٣) Rudolf Said Ruete, op. cit. pp. 73-74.
See also Coupland : East Africa and its Invaders, p. 303.

(٤) Coupland : Exploitation of East Africa, p. 4.
See also Pearce : op. cit. p. 122.
Coupland : Exnloitation of East Africa, p. 4. .

النظــام الادارى

وكانت نظم الحكم التى اتبعت فى زنجبار لاتختلف كثيرا عمــا كان متبعا فى البلاد العمانية من حيث بساطة الأنظمـــة الادارية .

فقــد تميزت الادارة فى شرق افريقيا بالبســاطــة وعدم التعقيد بسبب أن التجــارة كانت هى الطابع المميز للامبراطورية العمانيـــة فى شرق افريقيا وبالتالى فان الاتجــاه الى وضـــع الأنظمـــة الادارية أو الاقتصادية فى تلك الامبراطورية كان يستهدف فى الدرجـــة الأولى الحرص التام على انعاش الناحية الاقتصادية ويتضح ذلك فى تبسيط نظام الضرائب وجعله مطابقا للنظام الجمركى الــذى كان معمولا به فى مسقط حيث كانت الضريبة المفروضة على الواردات التى تأتى الى الموانى الافريقية لاتتجاوز ٥ ٪ من قيمتها فى حين أعفيت الصادرات تماما من الضرائب .

وقد عنيت السلطة العربيـــة فى زنجبار بتشجيع تجارة القوافــل العربيـــة التى كانت تمر فى داخلية القارة وكان الهــدف من ذلك الحصول على موارد كافية من العاج وغــير العاج [١] . ولتسهيل عمليات التجــارة والتبادل التجــارى وضعت السلطنة العربية نظاما جديدا للنقد اذ كان النقــد المتداول فى زنجبار الريالات النمســاوية والالمــانية والاسبانية . وقد أدخل بدلا منها نظام نقــدى بسيط حــل تدريجيا محــل تلك العملات الاجنبية ولم يكــد ينتهى عصر السيد سعيد حتى اختفت تماما تلك العملات وحل محلها النظام النقــدى الجديد الــذى يتمثل فى الروبيـــة وهى عملة صغيرة أدخلت من الهند [٢] .

---

(١) Coupland : East Africa and its Invaders, p. 304.

(٢) تعادل الروبية ١/١٢ من الجنيه الاسترلينى .

أما فى النظام القضائى فكان هو الآخر على درجة كبيرة من البساطة فالقرآن الكريم هو مصدر الاحكام ومراجعها وكان السيد سعيد يحكم فى القضايا الكبرى بنفسه أما القضايا الأقل أهمية أو خطورة فكان يتركها لابنه الأكبر خالد أو لحاكم مدينة زنجبار بينما تركت القضايا العادية للقضاة الذين كان يتم تعيينهم فى الاقاليم والمقاطعات المختلفة فى البلاد لفض ما يحدث من نزاع بين الرعايا [١] وكان السيد سعيد يميل الى الرفق والأخذ باللين فى معاملته لأهالى البلاد كما كان يعامل زعماء الأسر التى قضى عليها فى شرق افريقيا كالمزروعيين بالاحترام فابقى لهم الزعامة على جماعتهم كما أبقى العوائد التى كانوا يتعاملون بها فيما بينهم[٢] .

ولعل أهم ما تميزت به السلطنة العربية فى زنجبار من عدم التعصب للجنس والأديان فجميع الأجناس النازلة فى زنجبار من غير الجنس العربى عاملهم حكام السلطنة بغاية الاحترام ومهما تصفحنا تاريخ زنجبار لا نجد فرقا بين العرب وسائر الأجناس [٣] .

كذلك حرص السيد سعيد على اشراك الوطنيين فى الحكم فكان يعين فى كل مقاطعة حاكما محليا من أهل البلاد يدين له بالتبعية والولاء وان كنا نراه احيانا يفقد ثقته بالحكام المحليين ويستعيض عنهم بأعوان له من مسقط أو زنجبار يكونون بمثابة حكام تابعين له وكان يمدهم بحامية من الجند تكون بمثابة نواة يحرص الحاكم المعين على تنمية قوتها بنفسه وبشكل يحفظ له هيبته كما يحفظ للسلطان نفوذه .

وقد استمر الحكم فى زنجبار سائرا على طريقته التقليدية اذ

---

(١) Guillain : op. cit. Tome I, p. 239.

(٢) جهينة الاخبار فى تاريخ زنجبار ص ١٥٠ .

(٣) جهينة الاخبار فى تاريخ زنجبار ص ١٦٦ .

لم يكن اولئك الحكام يفعلون أكثر من جمــع الضرائب المقررة التى كان يرفضها السيد سعيد على التجــارة وتسليمها اليه وهــذا هو كل ما كان يطلبه السيد سعيد من حكام تلك المقاطعات(١) .

والجدير بالذكر أن السيد سعيد لم يكن يهتم بوضع حاميات قوية فى مقاطعات الشرق الافريقى ولعل تحقيق الأهــداف الاقتصادية التى كان يرمى اليهــا من وراء ممتلكاته هذه ورغبته فى حفظ الأمن والنظام فى ربوعها هــو الذى نأى بحكمــه عن الثورات أو المنازعات الى حــد كبير •

ونستطيع أن نتبين من سجلات الرحالــة الذين زاروا مقاطعات الشرق الأفريقى بأن جزيرة زنجبار كادت تكون خلــوا من الحاميات العســكرية باستثناء قوات صغيرة من الدرك تعمل على حفظ النظام واستتبابه(٢) بينما لم تتعد القوات التى أبقاها السيد سعيد فى شرق افريقيا أربعمائة شخص حسب تقدير بيرتون فى عــام ١٨٤٦ موزعين على أهم مقاطعات الشرق الافريقى كزنجبار وممبسة ولامو وبات(٣) •

ويذكر جيان بدوره قلة الجنود المعينين من قبــل السلطان ولكنه يضيف الى ذلك وجــود بعض الأفراد المسلحين والمدربين الــذين كانوا يعينون من قبل الرؤساء والحــكام المحليين وكانوا يقومون بمهام السلطة التنفيذية وحفظ الأمن ويمكن أن نضيف الى تلك القــوات الحامية الخاصة بالسلطان والتى كان يتكــون أفرادها عادة من البلوش والمغاربة وكانوا يتقاضــون مرتبات وجرايات بسيطــة لاتتجــاوز بضعــة قروش وبضــع

---

(١) Chappnis, op. cit. p. 385.

(٢) Coupland : East Africa and its Invaders, p. 329.

(٣) Burton, R : Zanzibar, City, Island and Coast, Vol. 1. p. 265, London 1872.

عبوات من الأرز والتمر[١] .

وقد شيد السيد سعيد لنفسه قصرين احدهما فى زنجبار ويسمى بيت الساحل وكان يشتمل على مجموعة غير قليلة من القصور الصغيرة التى كان يشغلها أبناؤه وأعضاء بلاطه وحاشيته أما القصر الثانى فكان أقدم من بيت الساحل وكان بمثابة المقر الرسمى للسيد سعيد وقد بناه فى متونى وهى ضاحية صغيرة تبعد ثلاثة أميال شمالى زنجبار وكان هذا القصر بمثابة مكانه المفضل اذ كان يقيم فيه غالبية الأيام[٢] .

وقد تزوج السيد سعيد عدة مرات ولعل من أشهر زوجاته ابنة عمه موزة بنت الامام ، ثم زوجته الفارسية ابنة اريش ميرزا وحفيدة شاه الفرس فتح على شاة وقد أخذها الى زنجبار فى عام ١٨٤٩ وبنى لها الحمامات على الطراز الفارسى بيد أنها كانت مكروهة من الاهالى وفيما يقال انها اغاظت العرب العمانيين بسبب غطرستها وكبريائها[٣] .

---

(١) Guillian : Relation du voyage d'Exploration a'la Cote Orientale de l'Afrique, Tome I, p. 238.

(٢) Coupland : East Africa and its Invaders, p. 303.

(٣) جمال زكريا قاسم : دولة بوسعيد فى عمان وشرق افريقيا ص ٢٣٢ .

السياسة الاقتصادية

لعل المجال الاقتصادى كان أهم ما يميز الامبراطورية العمانية فى شرق افريقيا ، وقد عرف عن السيد سعيد شغفه الشديد بالتجارة وحبه لممارستها من ذلك أنه كان يقوم بالاشتغال بها لحسابه الخاص . وقد أثر عنه قوله اننى تاجر قبل أن أكون سلطانا . وكان يستخدم أسطوله الخاص فى نقل البضائع ومن آونة وأخرى . وكانت بريطانيا وفرنسا تستقبلان فى موانئهما حمولات من البضائع الافريقية التى حملتها اليهما سفنه .

وقد فتح السيد سعيد بلاده للدول الأجنبية للمشاركة الاقتصادية كما يفهم ذلك من المعاهدات التى عقدها مع الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا وغيرها . وظهرت كثيرا من القنصليات الاجنبية فى زنجبار كذلك سمح لبعض الولايات الالمانية المشتركة فى اتحاد الهنسا بالاشتغال بالتجارة فى بلاده على الرغم من أنه لم تعقد معاهدات بين زنجبار واتحاد الهنسا الا بعد وفاته فى عام ١٨٥٦ [١] .

وعلى الرغم من أن السيد سعيد كان يؤمن بحرية التجارة الا أن سياسته الاقتصادية شهدت بعض الاحتكارات والتى كان يقوم بها لضمان مركزه الاقتصادى فقد حرم على طول الساحل الممتد من مصب نهر البانجانى حتى كلوة تصدير العاج والمطاط تحت أى علم خلاف علم مسقط وان كنا لانجد احتكارات أخرى باستثناء هاتين السلعتين [٢] .

وقد حرص السيد سعيد عند انتقاله الى زنجبار أن يأخذ معه التجار الهنود من طوائف الباتيان الذين كانوا يسهمون بنشاط وافر فى عمليات التجارة فى مسقط [٣] .

(١) Chappnis, op. cit. p. 350.
(٢) Coupland : East Africa and its Invaders, pp. 302-303.
(٣) D'Avezac, op. cit. p. 14

وقد شجع الهنود على الهجرة الى زنجبار لتسامح السيد سعيد ومعاملته الطيبة وتركه الحرية الدينية ومنح الهنود ما كانوا يتوقون اليه من مكانة فى المجال الاقتصادى ولا يعنى بذلك منحهم امتيازات تجارية لأنه كان يؤمن كما ذكرنا ايمانا راسخا بحرية التجارة وانما بتركه مجال التجارة حرا مما أفسح المجال لنشاطهم حتى أصبح الهنود يكونون الطبقة الرئيسية من بين المشتغلين بالتجارة فى زنجبار [١] .

ولعل نجاح الهنود فى المجال التجارى هو الذى دفع السيد سعيد للاستعانة بهم واستخدام الاكفاء منهم فى أعمال الاقتصاد والادارة [٢] وحسب تقدير بيرتون كانت أربعة أخماس التجارة الخارجية فى أيدى الهنود [٣] وبمضى الزمن كثر عددهم وتعاظم نفوذهم الاقتصادى وأخذوا يستولون من العرب تدريجيا على ممتلكاتهم عن طريق الرهن أو الشراء .

وبينما كان نشاط الهنود يقتصر على الساحل توغل العرب الذين وفدوا مع السيد سعيد فى المناطق الداخلية التى لم يكن قد ارتادها أحد من قبل واستقر كثير منهم فى تلك المناطق واسسوا المراكز التجارية التى جهدوا فى تقويتها ومن ثم أصبحت تلك المراكز تشع بعضا من السيطرة والنفوذ للسلطان حتى لقد اشتهر المثل السواحيلى القائل عندما يلعب أحد على المزمار فى زنجبار يرقص الناس طربا على البحيرات [٤] .

ومما لاشك فيه أن الازدهار الذى عاشته السلطنة العربية على عهد السيد سعيد قد أعان فى نواح كثيرة على اكتشاف العرب لمجاهل القارة الافريقية اذ أن الروايات التى كان يتناقلها اولئك التجار

---

(١) Chappnis, op. cit. p. 350

(٢) Burton, op. cit. pp. 315-317.

(٣) Pearce : op. cit. p. 113.

(٤) Coupland : East Africa & its Invaders, p. 342.

العرب عن منطقة البحيرات الاستوائية وعن الجبال ذات القمم الثلجية قد أثارت انتباه العالم الغربى بالنسبة لافريقيا .

ولما كان العرب تجارا بطبيعتهم فقد حرصوا على اقامة المراكز التجارية وبمرور الزمن نمت هذه المراكز وأصبح رؤساؤها بمثابة حكام صغار تحت سيادة سلطان زنجبار .

ومع ذلك فانه فى خلال بضع سنوات من وصول السيد سعيد الى زنجبار كان حلمه فى انشاء امبراطورية افريقية تمتد من محيط الى محيط على مشارف ألتحقيق فكل الساحل الشرقى الافريقى الممتد من رأس غردفون شمالا الى خليج دلجادو جنوبا كان يعترف بسيادة السلطان وبدا واضحا أن جزيرة زنجبار ستكون عاصمة لهذه الامبراطورية التى أخذت تمتد امتدادا كبيرا فى الداخل مرتبطة بسلسلة من المحطات والمراكز التى كانت تمر بها قوافل التجارة وقد حرص الافريقيون انفسهم على ابقاء تلك الروابط قائمة بينهم وبين السلطنة العربية فى زنجبار .

وقد ترتب على استمرار الاتصال بين الساحل والداخل وجود أقليات عربية كبيرة العدد فى الكونغو وتنجانيقا ونياسالاند ، والجدير بالذكر أن الوجود العربى استمر قائما حتى بعد انحسار نفوذ السلطنة العربية واقتصارها على الساحل اذ استمرت الكيانات العربية فى الداخل تعترف بالسيادة لسلطان زنجبار رغم خضوعها للتقسيمات الاستعمارية وخضوعها لدول استعمارية أجنبية كالمانيا وايطاليا وفرنسا وبريطانيا وغيرها حتى أن سلطان زنجبار قد استغل من قبل بريطانيا خلال الحرب العالمية الأولى للتأثير على العرب والمسلمين فى شرق ووسط افريقيا للابقاء على ولائهم لبريطانيا التى كانت قد مدت سيطرتها على معظم هذه المناطق .

ولعل ذلك يدفعنا الى التأكيد هنا أنـــه لو كانت السلطنة العربية فى زنجبار قد اتجهت الى دعم سيطرتها الاقتصادية على المقاطعات الافريقية بسيطرة ادارية وعســكرية لكان من الممكن قيام امبراطورية على اسس ثابتة بيــد أن الرباط الــذى يربط السلطنة بالداخل كان يعتمــد فى الدرجة الأولى على قوة شخصية السيد سعيد فلمــا انهارت تلك الشخصية بوفاته انهارت امبراطوريته معــه ٠

ويعنى ذلك أن سيطرة السيد سعيد على ممتلكاته فى شرق افريقيا لم تكن سيطرة حاسمــة وكان ذلك مما دفــع الدول الاستعمارية لكى تنفذ من خلال تلك السيطرة الواهية ويمكننا أن نتفهم ضعف السيطرة العسكرية اذا مارجعنا الى التقارير التى كان يكتبها همرتون ــ القنصل البريطانى فى زنجبار ــ الى حكومته حيث كان يؤكد فى تلك التقارير ضعف سيطرة السيد سعيد على ممتلكاته فى شرق افريقيــا بحيث لم تكن له ســوى ســيادة اسمية على الســاحل ٠

وقد سبق أن أشرنا الى أن السيد سعيد حاول الامتداد بسيطرته جنوبا حيث مدغشقر وموزمبيق ولكنه اخفق بسبب تواجــد كل من النفوذ الفرنسى والبرتغالى على أنه كان أكثر توفيقا فى مــد سيطرته نحو الشمال ففى عــام ١٨٤٠ نجح فى اخضاع موانى الصــومال لنظامه الاقتصادى كمــا نجح فى اخضاع مقديشيو وامتــد بسيطرته صوب براوه ، وان كان قــد فشــل فى الاحتفاظ بها طويلا (١) ٠

وعلى الرغم من تلك الجهود الا أنه لم تكن هناك فى حقيقة الأمــر سيطرة فعلية على الشرق الأفريقى فالواقع أن سلاطنة عمــان لم يعتمدوا على الضغط أو القوة العســكرية لاخضاع الشرق الافريقى الى سيطرتهم

---

(١) Coupland : East Africa, p. 339.

وانمـــا اعتمدوا على المصالح والمنافع الاقتصاديـــة المشتركة فى تأكيـــد نفوذهم على زنجبار وغيرها من مقاطعات الشرق الافريقى ، أى أن سلاطنة عمان لم يحرصوا على السيطرة السياسية أو العسكرية بقدر ما حرصوا على تحقيق الأهداف الاقتصادية والحضارية ٠

ومما يؤكد ذلك أنه على الرغم من حـــدوث ثورات فى الشرق الافريقى تنزع الى الانفصال الا أن حـــكام السلطنة العربيـــة لم يلجأوا الى قمعها بالقـــوة العســـكرية خوفا لمـــا قد يؤدى اليه ذلك من اعاقـــة التجارة التى كانوا يحرصون عليها كل الحرص وبالتالى عمل أولئك الحكام على معالجـــة مشاكلهم الأفريقية بالطرق السلمية بهـــدف ضمـــان استقرار المعاملات الاقتصادية وازدهارها ســـواء فى المقاطعات الداخلية أو الساحلية ولعل ذلك يدفع بنا الى أن نقرر فى هذا المجال أن عمان نجحت فى روابطها الاقتصادية والحضـــارية بالشرق الافريقى أكثر من نجاحها فى السيطرة السياسية أو العســـكرية [١] ٠

فئات السكان فى زنجبـــار

شكل العرب قسما هاما من فئات الســـكان فى زنجبار وعلى الرغم من أن عرب عمان كانوا هم الذين يشكلون الطبقة الارستقراطية الحاكمة الا أن ذلك لم يمنع من لجـــوء عرب من مناطق اخرى للاقامة فى زنجبار وغيرها من المناطق بمقاطعات الشرق الافريقى ٠

وقد برز من أولئك العرب عرب جزر القمر والحضارمة الـــذين ولى كثير منهم ولاية القضـــاء فى زنجبار ومنهم من ولى أمور الجمارك كمـــا

---

(١) جمال زكريا قاسم ـــ دولـــة بوسعيد فى عمـــان وشرق افريقيـــا ص ٢٢٠ ، ٢٢١ ٠

أستعانت بهم السلطنة العربية فى أعمال الجندية بالاضافة الى ماكانوا يقومون به من معاملات تجارية صغيرة فضلا عن اشتغالهم ببعض الصناعات اليدوية البسيطة .

وكان الحضارمة يعيشون فى احياء خاصة بهم فى زنجبار ويكونون قسما متمايزا من السكان العرب كما كانوا يتميزون بشعائرهم الدينية اذ كانوا يختلفون عن عرب عمان الاباضية من حيث اعتناقهم لمذهب السنة .

أما عرب جزر القمر فكان عددهم قليلا على عكس عرب الساحل الذين استقروا فى جزر وسواحل شرق افريقيا قبل تأسيس السلطنة فى زنجبار كما ينبغى الاشارة أيضا الى عرب عمان وهم الذين توافدوا مع السيد سعيد [١] وشكلوا الطبقة الحاكمة فى زنجبار .

وإلى جانب فئات العرب استعانت السلطنة العربية بطوائف من الفرس والبلوش بالاضافة الى الهنود بطوائفهم وفئاتهم المختلفة اذ كانت توجد طوائف وجماعات من الهنود تنتمى الى طائفتى البهرة والاسماعيلية [٢] .

وعلى عهد السلطنة العربية فى زنجبار تزايد عدد السكان تزايدا كبيراً ويمكننا أن نتبين الزيادة الواضحة فى اعدادهم خلال عهد السيد سعيد من مطالعتنا لدراسة كرايف الذى قدر تعدادهم بمائة ألف نسمة ذكر أن معظمهم يعيش فى العاصمة نفسها [٣] . أما بعد وفاة السيد سعيد فقد تناقص السكان تناقصا ملحوظا حيث قدر بيرس تعدادهم بخمسة وعشرين ألف نسمة [٤] .

---

(١) Pearce, op. cit. pp. 215-218.

(٢) جهينة الاخبار فى تاريخ زنجبار ص ١٦٥ .

(٣) Krapt, op. cit. p. 124.

(٤) Pearce, op. cit. p. 190.

والجدير بالذكر أن عدد السكان فى زنجبار كان يتأثر تأثرا كبيرا بموسم هبوب الرياح الموسمية الشمالية الشرقية حيث تصبح الجزيرة ملأى بالعرب الذين كانوا يفدون من عمـان وغيرها من موانى الخليج والجزيرة العربية وكان يستتبع ذلك انتعاش الحركة التجارية وتصبح زنجبار فى موسم رائج من الحياة والمعاملات[١] .

وكمـا سـبق أن اشرنا كان العرب هم الـذين يكونون الطبقـة الارستقراطية فى زنجبار اذ كانت تقع فى أيديهم ملكية أكثر الأراضى وفيما يبدو أن السيد سعيد قـد حرص على أن يكون للعرب ذلك المركز الممتاز اذ تعهد بأن يأخذ معـه عند انتقاله الى زنجبار اغنياء العرب وأثريائهم . ومع ذلك فلم تكن زنجبار مقصـورة فى سكناها على العرب ولكن كانت بحكم موقعها تعد ملتقى الشعـوب من ثلاث قارات وشـكل سكانها بذلك خليطا من العناصر الأفريقية الآسيوية [٢] مع التسليم بقلة عدد العناصر الأوربية والأرمنية بسبب الظروف المناخية القاسية[٣] .

وعلى الرغم من أن العرب كانوا يتوافدون بكثرة من عمان وسواحل الجزيرة العربية بغرض التجارة أو الاقامـة وامتلاك الأراضى الا أنه كمـا هو معهود فى المجتمعات الاسلامية لم يكن هناك فصل أو عزل جنسى بين العناصر المختلفة ومن ثم لم يستطع العرب أن يحتفظوا طويلا بنقائهم الجنسى ولكن ذلك لا يمنع من أن العرب قـد أسهموا بدور كبير فى نقل المؤثرات الحضارية الى سـواحل القارة الشرقية ودواخلها وكانوا عماد دولة عربية افريقية كانت تعد من أكبر الدول المحلية التى عرفتها الاجزاء العربية من المحيط الهندى فى تاريخنا الحديث [٤] .

---

(١) Ibid, p. 190.

(٢) Burton, op. cit. vol. 1, pp. 312-313.

(٣) Chkappnis, op. cit. p. 350.

(٤) Pearce, op. cit. pp. 117-120.

واذا كان من السهولة تحديد ممتلكات عمان الساحلية فى شرق افريقيا من رأس غردفون شمــالا حتى خليج دلجادو جنوبا فانه من الصعب تحديد السيطرة الداخلية لأن هذه السيطرة كانت تعتمد فى الدرجــة الأولى على الأسس الاقتصادية التى لا تعترف بالفواصــل السياسية طالمـا كانت عمليات التبادل التجارى قائمــة والقوافل التجارية تسير من مكان الى آخـــر .

ولم يكن يحمى نفــوذ السلطنة العربية فى الداخل ســوى محطات أو مراكز تجارية أنشئت خصيصا لتسهل عمليات التبادل التجــارى أو استراحات للقوافل التجارية وامتدت الى ما استطاعت أن تصــل اليــه من اصقاع كبحيرات بناســا وتنجانيقا وفيكتوريا وبعض المناطق الأخرى فى أعالى الكونغو[1] .

وكان المغامرون من التجــار يذهبون فى مغامراتهم بحثا وراء السلع التى يريدونها الى تلك المناطق وســط الغابات الكثيفة وفى ظروف مناخية وطبيعية شاقــة .

واذا عرفنا أن الواحدة من تلك الرحلات كانت تستغرق زمنا قد يمتد الى عــدة ســنوات فقــد كان من اللازم أن يقــوم هــؤلاء المغامرون بتأسيس المحطات والمراكز التجارية التى كانوا يعتمدون عليها فى اسفارهم وعلى هذا النحو قامت عدة مستوطنات عربيــة على طول تلك الخطوط التجارية التى كان يطرقها التجــار وكانت تلك المستوطنات تعد امتدادا للسلطنة العربية وانتشــار شهرتها فى اجزاء كثيرة من القارة الافريقية

---

(١) Colomb, R.N., Slave Catching in the Indian Ocean, p. 365, London 1870.

وكان يدعم تلك السيطرة أن الطرق التجارية من الساحل حتى الداخل كانت تقع تحت سيطرة عرب عمان [١] .

ويمكننا الاشارة فى هذا الصدد الى اسرة المراجبة التى كان لها أثر كبير فى توطيد النفوذ العربى على مقاطعات الشرق الافريقى كما أنها اشتركت فى عمليات المقاومة ضد البرتغاليين فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ثم توغلت بعد ذلك فى الداخل وكونت أسرة حاكمة فى شرق الكونغو بزعامة حميد الدين المرجبى .

وقد استقرت هذه الأسرة واستمرت قائمة حتى قضى عليها الاستعمار البلجيكى فى الكونغو على عهد ليوبولد الثانى ملك بلجيكا فى عام ١٨٨٥ [٢] .

---

(١) Pearce, op. cit. p. 128.

(٢) انظر بصدد ذلك : الشاطر بصيلى عبد الجليل ومقال عن حميد الدين المرجبى المعروف بتيبوتيب ١٨٣٤/١٩٠٥ عدد ١ من مجلة نهضة افريقية — نوفمبر ١٩٥٧ ص ١٠ — ص ٢٠ وكذلك جورجى زيدان : اشهر مشاهير الشرق جـ ١ ص ١٦٧ حميد الدين المراجبى نقلا عن الشيخ ناصر بن سليمان اللمكى ولمزيد من التفاصيل عن الدولة العربية فى الكونغو انظر .
Ruth Slade : King Leopold's Congo, p. 84, London 1962. See also Celeman, La Question Arabe et Congo, p. 31, Brussels. 1959

الدور الحضارى للامبراطورية العمانية فى شرق افريقيا

ساهمت عمـان بدور مباشر وغير مباشر فى تحضير القارة الأفريقية ونقصـد بالـدور المباشر الدور الذى قام به العمانيون أنفسهم فى نقل المؤثرات العربية والاسلامية والحضارية الى شرق القارة ودواخلها وتم ذلك عن طريق التجارة فى المقـام الأول وظهر التأثير العربى العمانى فى انشـاء نظام للحكم وبنـاء المراكز الحضـارية على طول طرق القوافل وفى ادخال طرائق مختلفة من الحياة والمعاملات .

وفى عهـد السلطنة العربية فى زنجبار وبفضـل الأمن الذى حققته نجح العرب فى التوغل فى داخلية القارة حيث ألِفَ العمانيون السياحات البعيدة ولذلك فمن الانصـاف أن نقرر هنا أن العرب العمانيين كانوا أول من اكتشفوا أواسط القارة وجاسوا خلالها الى حـوض نهر الكونغو وهم الذين أخبروا عن البحيرات الاستوائية وعن الحياة المعممة رؤوسهـا بالثلوج (١) والمهم أن العمانيين كانوا أول من توغلـوا فى داخلية البـر الافريقى واستقروا فى بعض جهاته وعمروا المراكز التجارية وعلى مـر الأعـوام تعاظم نفوذهم وصـاروا رعايا فى هيئة سلاطين تحت سـيادة سلطان زنجبار (٢) .

ومن المؤسف أن الكتاب الأوروبيين تعمدوا اهمال الدور الشجاع الـذى قـام به العرب فى افريقيا وتلك الجهود التى قام بها العمانيون

---

(١) تعنى بذلك جبال كينيا وتنجانيقا ونخص بالذكر جبال كليمنجارو .

(٢) جهينة الاخبار فى تاريخ زنجبار ص ١٥٢ .

الـذين اخترقوا البـر الافريقى يجاهدون الطبيعة بقسـوتها والناس بدائيتهم [١] .

والى جانب الدور المباشر الذى أشرنا اليه ظهر دور آخر غير مباشر اسهمت بـه الامبراطورية العمانية فى شرق افريقيا وتمثل ذلك الـدور فى تشجيع حكام السلطنة العربيـة للرحالة والمبشرين والمستكشفين الاوروبيين فى عملياتهم التبشيرية والكشفية .

وقد ظهرت بالفعل الكثير من المراكز التبشيرية فى زنجبار وفى غيرها من مقاطعات الشرق الافريقى بدءا من القرن الثامن عشر[٢] وبرز من رؤسـاء البعثات التبشيرية فى شرق افريقيا كرايف ورفيقه ريجان وهما مبشران المـانيان استقرا فى شرق افريقيا ولقيا الكثير من رعاية السلطنة العربية فى زنجبار وقـد اعترف المبشر كرايف فى الكتاب الـذى وضعـه عن التبشير فى شرق افريقيا[٣] بمقـدار ما منحه له السيد سعيد مـن رعاية وتسهيلات وكيف كان يبعث معـه برسـائل للرؤساء التابعين له فى الداخل يطلب فيها منهم أن يعاملوه معاملة طيبة لأنه رجـل يعمل عـلى تحـويل الوثنيين الى معـرفة الله[٤] .

كذلك ظهرت فى كثير من مقاطعات الشرق الأفريقى مراكز تبشيرية أخرى تابعـة لانجلترا وفرنسـا ، وكمـا لقى المبشرون اهتماما من حكام

---

(١) جهينة الاخبار فى تاريخ زنجبار — المقدمـة — وكذلك دكتور جمال زكريا قاسم دور العرب فى كشف افريقية — مجلة عالم الفكر — الكويت — مارس ١٩٧١ .

(٢) Mona McMilan : Introducing East Africa, p. 167.

(٣) CF. Rev. Dr. Lewis Krapf : Travels, Researches and Missionary Labour during an eighteen years residence in Eastern Africa, London 1860.

(٤) Ibid, p. 127.

السلطنة العربيــة فى زنجبــار لقى أيضــا ذلك الاهتمــام المستكشفون الأوروبيون الذين قاموا برحلاتهم الكشفية فى افريقيا معتمدين على المنافذ الساحلية للسلطنة العربية فى زنجبار ومسترشــدين بمــا أوجــده التجار العمانيون من مراكز تجارية فى قلب القارة •

وقد نوه المستكشف البريطانى ريتشــارد بيرتون أنه بفضل الســيد سعيد نجحت بعثتــه فى الشرق الأفريقى [1] كمــا أكــد لفنجستون فى عــام ١٨٧١ بأنه كان محاطا بالعرب من كل جانب فى كثير من المناطــق الداخلية التى وصــل اليها فى شرق أفريقيا [2] • كذلك تعاون حكام السلطنة العربية فى زنجبار مع الحكومة البريطانية فى الحــد من تجارة الرقيق •

ويمكننا تقدير مــدى التضحيات المــادية التى تكبدتها سلطنة زنجبار من جــراء حدهــا من تجارة الرقيق ثم الغائه فيمــا بعد اذا ذكرنا أنه بموجب اتفاق السيد سعيد مع بريطانيا تم تحرير جميع الرقيق التابعين للرعايا البريطانيين من الهندوس والبانيان وقــد أدى ذلك الى تعــرض ممتلكات السلطنة فجأة لعمليات من السطو والنهب واخلال بالنظام لعدم تدبير عمــل للرقيق المحررين الذين وجــدوا أنفسهم فجأة بلا مــورد يعتمدون عليه فى حياتهم [3] •

ومما يجــدر التنويه به بصــدد ذلك بأن السيد سعيد كان بحق حاكما انسانيا فلم يكن تحديده لتجــارة الرقيق مجرد استجابة منــه لضغوط بريطانية وانمــا بسبب ايمانه المطلق بوجــوب القضاء على الرق وعهده •

---

(1) Burton, op. cit. vol. I, p. 34.

(2) The Iast Journal of David Livingstone in Central Africa from 1865 to his death 2, Vols. London 1880.

(٣) سلمى بنت سعيد : مذكرات اميرة عربية ص ٣٤٨ .

ومما تجــدر الاشــارة اليه أيضــا أن السيد سعيد وافق بموجب ملحق اضيف الى المعاهدة المبرمــة بينه وبين بريطانيا فى عام ١٨٣٩ على توسيع مساحــة المنطقة التى كان يسمح فيها للسفن البريطانية بتفتيش ومصــادرة السفن العمانية التى تشتغل بتجــارة الرقيق .

وفى معاهدة ١٨٤٥ تعهــد بأن يمنع تحت أشــد العقوبات تصدير الرقيق من ممتلكاته الافريقية الى ممتلكاته الآسيوية بل لقد ذهب توكيدا لصــدق نواياه بأن ضمــن للانجليز حق مصــادرة السفن حتى ولو كانت سفنه الخاصة اذا ما اشتبه فى أنهــا تحمل رقيقا من المقاطعات الافريقية .

ومن الطريف أن نشــير أيضــا الى ان السيد سعيد رفض عن اباء وشمم أن يأخذ أية تعويضات مــادية من بريطانيا مقابل تعاونه معهــا فى الحــد من تجارة الرقيق ولذلك رشحته الحكومة البريطانية ليكون عضو شرف فى الجمعية الآسيوية الملكية فى لندن Royal Asiatic Society

اعترافا منها بوقوفه معها فى الغاء تجارة الرقيق فى شرق افريقيا وتقديرا لنجهــود البناءة التى كان يبذلها لادخــال الحضارة وتقــدم العلوم فى بلاده وليس مــن شــك فى أن ذلك أظهــر اســمــه فى المجتمع الــدولى الاوروبى [١] .

---

(١) Pearce, op. cit. p. 133.

العلاقــات الدوليــة

لعل أبرز ما كان يميز الامبراطورية العمانية فى شرق افريقيا هــو افتتاحها على العالم الخارجى حيث عقــد حــكام الامبراطورية عـــدة معاهدات مع كثير من الدول الأجنبية •

وقد استطاعت الولايات المتحــدة الأمريكية أن تنافس غيرها مــن الدول الأجنبية فى التجارة مع زنجبار ، ويعد النشـــاط الأمريكى فى سلطنة زنجبار من الارهاصات الأولى للعلاقات العربية الأمريكية بصفة عامــة ، وقــد تميزت العلاقات بين السلطنة العربيــة والولايات المتحدة الامريكية بالود والصداقــة •

ويعــود الفضــل فى بدء هذه العلاقات الى أحــد التجار الامريكيين ويدعى ادموند روبرتس Edmond Roberts حين تعرض لبعض المتاعب فى زنجبار وما اعتبره قيودا يتعرض لها الامريكيون اذا قورنت معاملتهم بمعاملة التجار البريطانيين الذين لم يكونوا ليرغمــون على بيع بضائعهم لوكلاء السلطان أو يدفعون عمولات باهظة أو رسوم ميناء •

ولهذا كله كتب روبرش احتجاجا مؤلفا من عدة صفحات وجهه إلى السيد سعيد ، وقد أجابه الأخــير بأنه يمكن التغلب على هــذه الصعاب

بعقد معاهدة بينه وبين الولايات المتحــدة الامريكية •

وبالفعل مثل روبرتس الرئيس الأمريكى اندرو جاكســون فى عقــد معاهدة ١٨٣٣ ويقول جيان أن عقــد هذه المعاهــدة لقى هــوى فى نفس السيد سعيد ، وفى سبتمبر ١٨٣٥ اتخذت المعاهــدة وضعها النهائى بعد تعديلها وفى نفس العام قامت الولايات المتحــدة الامريكية بتأسيس قنصلية لهــا فى زنجبار وعينت عليها أحد التجار الامريكيين ويدعى ريتشــارد واترز [(١)] •

---

(١) Lyne, op. cit. p. 34.

وكانت هذه المعاهدة عبارة عن معاهدة مودة وصداقه وتجارة بين الولايات المتحدة الامريكية وسلطنة زنجبار وتوابعها فى شرق افريقيا وعمان والخليج العربى . وقد اعطت المعاهدة للولايات المتحدة الامريكية حق تعيين قناصل لها ومنحهم بعض الامتيازات .

ولاشك أن توقيع هذه المعاهدة قد أفسح المجال للولايات المتحدة الأمريكية كى تنشط اقتصاديا فى زنجبار . ولذلك يؤكد جيان أن بريطانيا قد ساورها الكثير من القلق عن مسلك السيد سعيد مع الولايات المتحدة الأمريكية حتى أنها بادرت بارسال الكابتن هارت من ضباط البحرية الهندية الى زنجبار ، ولكن السيد سعيد أظهر له صدق نواياه واستعداده لكى يعقد معاهدة مع بريطانيا تماثل المعاهدة مع الولايات المتحدة الامريكية [١] .

ومن المؤكد أن تأثير بريطانيا على السيد سعيد كان سببا فى اضمحلال التجارة الأمريكية فى الشرق الأفريقى حتى جاء الوقت الذى بدأ يعامل فيه القناصل الأمريكيين معاملة غير ودية ولعل ذلك مما دفع الرئيس الأمريكى فلليمور أن يكتب الى السيد سعيد فى مايو ١٨٥٤ طالبا تنفيذ الامتيازات المنصوص عليها فى معاهدة ١٨٣٣ وأن يسمح للسفن الامريكية بالدخول فى موانيه وقد جاء فى هذه الرسالة أن الولايات المتحدة الأمريكية ترحب فى جميع موانيها بجميع السفن التى تحمل علمكم وبالتالى سوف نرسل بسفننا الى موانى بلادكم ولكن ينبغى أن تلاقى الرعاية التى كفلتها لنا نصوص المعاهدة المبرمة بيننا وبينكم [٢] .

وفى عام ١٨٣٩ رأت بريطانيا توثيق علاقاتها بالسيد سعيد خوفا

---

(١) انظر تقرير هارت فى وثائق حكومة بومباى .
Selection from the Records of Bombay Government, Vol. XXIV, pp. 274-283, Bombay 1856.

(٢) Sanger : Arabian Peninsula, pp. 188-190

من انصرافـه الى غيرها من الدول وتم عقـد معاهدة ١٨٣٩ بين الطرفين وهى معاهدة تجارية منحت للقناصل الانجليز امتيازات قضائية أكثر مما قـد منحته المعاهـدة الأمريكية للقناصل الأمريكيين •

فبينما كانت المعاهـدة الامريكية تنص على أن سلطات القنصـل القضائية لاتتعـدى الرعايا الأمريكيين كانت المعاهدة البريطانية تعطى القنصل البريطانى سلطـة الفصـل فى المنازعات بين الرعايا البريطانيين والعـرب •

وقـد أعطت هذه المعاهـدة الفرصـة لبريطانيا لتوسـيع نشاطها فى السلطنة العربية فى زنجبار ، ففى عام ١٨٤١ قامت بتأسيس قنصلية لهـا فى زنجبار وتم تعيين الكابتن اتكنز همرتون ليكـون أول قنصـل ووكيل لبريطانيا فى زنجبار (١) •

وقد بلغت العلاقة بين السيد سعيد وهمرتون أقصى غاية من التوثيق والصـداقة حتى أن السيد سعيد كان يعتبره ناصحه الأمين وكثيرا ما كان يعهـد اليه بالاشراف على شئون الحـكم فى الشرق الأفريقى مع ابنـه خالـد وقت قيامه بتفقـد شئون ممتلكاته فى عمان (٢) •

والأمـر الذى لاشـك فيه أن توثق العلاقات بين بريطانيا والسلطنة العربيـة دفـع كثيرا من الهنود الى الهجرة الى الشرق الأفريقى وربمـا عملت بريطانيا من ناحيتها على تشجيع تلك الهجرة •

أمـا فى العلاقات بين فرنسـا والسلطنة العربية فى زنجبار فالثابت أن السيد سعيد كان يبـدى قلقه من النشـاط الفرنسى فى مدغشـقر وجزر نوسيبى لمـا قد ينتج عن التوسع الفرنسى فى شرق افريقيا من تهديد لممتلكاته الحيوية فى شرق افريقيا ولذلك فكر فى أن يضمن صداقة فرنسـا

(١) Young husband, Glimpses of East Africa, p. 238.

(٢) Lyne : op. cit. p. 34.

عن طريق عقد معاهدة بينه وبينهم وفيما يبدو أن السيد سعيد كان على استعداد لكى يمنح الفرنسيين بحكم نفوذهم فى شرق افريقيا امتيازات أكثر مما نصت عليه المعاهدتان الأمريكية والبريطانية ولكن بريطانيا أصرت ألا يعطى السيد سعيد فرنسا امتيازات تفوق الامتيازات التى منحت للرعايا البريطانيين •

ولاشك أن عقد المعاهدة الفرنسية مع سلطنة زنجبار فى عام ١٨٤٤ كان يعد نصرا للسياسة الفرنسية اذ أدت هذه المعاهدة الى ازدهار العلاقات بين الامبراطورية العمانية وبين فرنسا [١] •

وفى عام ١٨٤٧ أسست فرنسا قنصلية لها فى زنجبار [٢] كما تأسست الكثير من البيوت التجارية الفرنسية فى الشرق الافريقى وخاصة من مرسيليا ونشير بصدد ذلك الى بيت رابو وفيدال اللذين كان لهما نشاط تجارى واسع فى شرق افريقيا [٣] •

كما أخذت سفن السيد سعيد تصل الى الموانى الفرنسية حاملة معها متاجر الشرق الافريقى اليها كذلك شاركت بعض الولايات الألمانية تأسيس قنصليات لها فى زنجبار بحكم اشتراكها فى اتحاد الهنسا وذلك طبقا للمعاهدة التى عقدت بين سلطنة زنجبار واتحاد الهنسا سنة ١٨٦٠ وعلى الرغم من أن هذه المعاهدة قد عقدت بعد وفاة السيد سعيد الا أن تجار همبورج كانوا يحتلون مركزا هاما فى تجارة الشرق الأفريقى خلال عهد السيد سعيد [٤] •

---

(١) Firouz Kajar : La Question de Mascate et le Sultanate d'Oman, p. 98, Paris 1914.

(٢) Pankhurst : op. cit. p. 16.

(٣) Coupland : East Africa & its Invaders, p. 425.

(٤) Lyne : op. cit. pp. 365-386.

تفكك الدولة العمانيـــة

هناك عوامل كثيرة كان لها تأثيرها على تفكك الامبراطورية العمانيـــة وضياع ممتلكاتها فى الشرق الأفريقى ولعل أكثر هذه العوامل تأثيرا ترتبط بالعوامل الخارجية ونعنى بذلك أن الامبراطورية العمانية عاصرت الموجه الامبريالية التى اجتاحت القارة الافريقية فى القرن التاسع عشر ، وقـــد أثبتت الظروف التى مرت بها الامبراطوريـــة العمانيـــة فى شرق افريقيا ان النشـــاط الأوربى الكشفى والتبشيرى الـــذى اتخـــذ شـــكل بعثات كشفية وتبشيرية ، وما واكبه من نشـــاط اقتصادى للدول الأجنبية لم يكن الا مقدمـــة للحركـــة الامبريالية التى شهدتها القارة الافريقية بصفـــة عامة والامبراطورية العمانية بصفة خاصـــة ، ولذلك فان الاحـــلام التى تراءت للســـيد سعيد فى الاحتفاظ بامبراطورية عمـــانية كبيرة لم تجـــد طريقها الى التنفيذ ، اذ سرعان ما اثبتت الأحداث أنه من الصعب الاحتفاظ بتلك الامبراطورية التى جاهدت عمـــان من أجل بنائها فى غمـــار القرن التاسع عشر ذلك القرن الذى شهد تفوق قوة أوربا العسكرية والصناعية وشهد هـــذا الرتل الطويل من المستكشفين والرواد والمبشرين والتجـــار والمغامرين الاوروبيين الـــذين انتهـــوا الى حقيقة واقعة وهى أن هناك امكنة فى افريقيا صالحة للاستغلال وانها قارة جـــديرة بالامتلاك والسيطرة .

وهكـــذا شاءت الظروف أن تصطدم رغبة السيد سعيد فى تأسيس امبراطورية عربية فى افريقيا مع رغبة الدول الأوروبية فى السيطرة على القارة الافريقية واستعمارها واقتسامها فيها بينها ويمكننا أن نستعير بصدد ذلك ما أورده بيرس فى تعليقه على الامبراطورية العمانية فى شرق افريقيا بأن السيد سعيد ولـــد متأخرا خمسمائة عام وفى وقت غير ملائم لتحقيق تلك الآمال التى كان يحرص على تحقيقها [١] .

---

(١) Pearce : op. cit. p. 120.

وفيمـــا يبدو أن السيد سعيد كان يدرك جيدا الأخطار التى ســـوف تتعرض لها الامبراطورية كما كان يدرك أيضـــا صعوبة الاحتفاظ بالسيطرة على الممتلكات الآسيوية والأفريقية فى آن واحد ، فان بقاءه فى زنجبـــار كان يعنى الفوضى فى عمـــان وكثيرا ما كان يضطر الى مغادرة زنجبار لكى يواجه الأمـــور فى عمان التى تعرضت الى مرحلة التفكك بسبب الاطماع الاقليمية التى اجتاحتها من قبل الدول الاقليمية المجاورة لها أو بفعـــل الصراعات والأطماع الأسرية .

ورغم الهيبة الكبيرة التى كان يتمتع بها السيد سعيد الا أن المشاكل كانت تواجهه فى الاقليمية حتى بات يدرك أن أحدهما ســـوف ينفصـــل لا محالـــة ، ولذلك قرر قبل وفاته توزيع ممتلكات دولته بين أبنائه ولعله كان يقـــدر أن بقاء عمـــان وزنجبار خاضعتين لأسرته حتى فى حالة انفصالهما خير من أن يحـــدث ذلك الانفصـــال على أيدى قوم غرباء عن الأسرة أو معادين لها وهو أمر لم يكن بعيد الاحتمال .

ومن المؤكـــد أن تكـــون رغبة السيد سعيد فى تقسيم ممتلكاته قـــد راودته عقب نقـــل عاصمته من مسقط الى زنجبار واقامته الدائمـــة فى تلك الجزيرة ففى عام ١٨٤٠ كتب الى اللورد ابردين وزير الخارجية البريطانية رسالة يقول فيها « استقـــر تنظيمنا الـــذى وضعناه لدولتنا عند وفاتنا على تعيين ابننا السيد خالـــد حاكما على ممتلكاتنا فى افريقيا وتعيين السيد ثوينى حاكمـــا على جميع ممتلكاتنا فى عمان والخليج العربى [(١)] .

وفى عام ١٨٥٦ ادركت السيد سعيد الوفاة فى البحر وكان عائـــدا من مسقط الى زنجبار بعد حربه مع فارس وجىء بجثمانه الى زنجبـــار حيث دفن فى حديقة بيته الذى كان يسكنه فى زنجبار وفى تلك الجزيرة التى

---

(١) نقلا عن تقرير البريجادير كوجلان المقيم السياسى البريطانى فى عدن وهو تقرير يبحث فى اصول النزاع بين مسقط وزنجبار .

احبها وأخلص فى تعهدها ورعايتها [1] وليس من شـــك فى آن وفاة السيد سعيد كانت تعد نقطة التحـــول الخطيرة فى مصير امبراطوريه البوسعيد •

وقد حدث أن توفى خالد فى حياة أبيه وفيما يبدو آن السيد سعيد أوصى قبل وفاته أن يخلفه ماجـــد الـــذى بايعه ســـكان زنجبار بعد وفاة أبيـــه ولكن ثوينى من مركزه فى مسقط أخـــذ يعارض تقسيم الدولة ويعمل على استمرار اتحاد الشرق الافريقى مع عمـــان معتمدا على قبيله عمانيـــة كانت قـــد انتقلت مع السيد سعيد واقامت فى زنجبار •

كذلك وجـــد ثوينى تأييدا من الفرنسيين وقد اعتمـــد ثوينى فى دعواه على آساس أنه الابن الأكبر وأنه طبقا للتعاليم الاســـلامية فانه ينبغى أن تؤول اليه ممتلكات الدولة وآن والده حينمـــا أوصى بتعيينه حاكما على مسقط والآخر حاكما على زنجبار كان يقصـــد من ذلك تقسيم فى الادارة وليس تقسيم فى الدولة نفسها اذ أن تقاليد العرب لاتعطى للحاكم اطلاقا الحق فى تقسيم ممتلكاته [2] •

وبينما كان من المنتظر أن يتطـــور هـــذا الخلاف بين الأخوين الى حرب بينهما رسمت بريطانيا سياستها على أساس الوقوف بصلابة ضد أى اضطراب أو حرب تنشب فى ذلك الجزء من المحيط الهندى ، وفى الوقت نفسه رأت حكومة الهند أن تتوسط فى حل الخلاف الذى نشب بين الشقيقين ولذلك بادرت بارسال بعثة الى كل من مسقط وزنجبار وقـــد رأس هذه البعثة البريجادير كوجلان المقيم السياسى البريطانى فى عدن وكـــان من اعضائها الدكتور برسى بادجر الذى يعد واحدا من أبرز الباحثين الثقاه فى تاريخ عمان • وفى عام ١٨٦١ قدمت البعثة تقريرها الذى تضمن أسباب

---

(١) حميد الدين بن رزيق : الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيديين ص ٤٦٠ •

(٢) Coupland : Exploitation of East Africa, p. 13.

النزاع بين مسقط وزنجبار وقــد ارتكزت اللجنة فى توصياتها الى ضرورة فصــل الاقليمين مؤكدة أن المستوطنات العربية فى شرق افريقيا أصبحت مدنا كبيرة تفوق فى أهميتها بــلاد عمان نفسها .

ومن الطريف ماجاء بالتقرير أنه كما استقل الانجلو ساكسون والأسبان الذين وغدوا الى العالم الجديد وكونوا مستعمرات هناك فكذلك هنا يحق للشعب العربى فى شرق افريقيا الانفصال عن عمــان واكــد التقرير أن الانفصال سيكون فى مصلحة القارة الافريقيه اذ أن ذلك سيركز جهــود العرب على نشر الحضــارة فيها .

وبنــاء على تقرير اللجنة اصدر اللورد كاننج نائب الملك فى الهنــد تحكيمه المشهور فى عام ١٨٦١ وكان ذلك التحكيم ينص على تعيين السيد ماجــد حاكما على زنجبار والممتلكات الأفريقية خلفا للسيد سعيد على أن يدفع الى أخيه حاكم مسقط ٤٠٫٠٠٠ ريال سنويا بالاضــافة الى ٨٠٫٠٠٠ ريال قيمة المتأخرات عن السنوات السابقة .

ونص قرار التحكيم على ألا يعنى هذا الدفع أية تبعية من جــانب زنجبار لمسقط وانما قصــد ذلك تحقيق المساواة بين الاثنين اذ كان دخل زنجبار يفوق كثيرا الدخل السنوى فى مسقط . وكتب اللورد كاننج الى كل من سلطان مسقط وزنجبار يؤكد أن الذى دفع بريطانيا الى التدخل هــو رغبتها فى الا يقع خلاف بين شقيقين وان الشروط التى تم التوصل اليهــا ليس فيها ما يمس الشرف واعرب عن رغبته فى أن يعمل كل من سلطان مسقط وسلطان زنجبار على تنفيذ شروط التحكيم [١] .

---

(١) Aitchison : A collection of Treaties, Engagements and sands relating to India and neighbouring countries, vol. XI, p. 225, Calcutta 1892.

ومما تجدر الاشارة اليه هو أن انفصال الاقليمين قد عززته الحكومه البريطانية بجهودها الدبلوماسية وذلك باشراك فرنسا فى الاعتراف بالوضع الجديد وصدر نتيجة لذلك تصريح انجليزى فرنسى مشترك فى عام ١٨٦٢ تعلن فيه الدولتان استقلال كل من سلطنة مسقط وسلطنة زنجبار كما قررت حكومة الهند منح كل من الحاكمين لقب سلطان [١] .

ومن الطبيعى بعد هذه التنظيمات التى وضعتها بريطانيا أن تقف أى معارضة لأية محاولة للإخلال بالاوضاع . فعندما تولى السيد سالم الحكم فى مسقط خلفا لابيه ثوينى عام ١٨٦٦ وتوترت العلاقات بينه وبين عمه السيد ماجد سلطان زنجبار الذى توقف عن دفع الاعانة السنوية التى نص عليها قرار التحكيم معللا بأن هذه الاتفاقية كانت اتفاقية شخصية بينه وبين أخيه ثوينى وأنه لايمكن أن يستمر فى دفع أموال لحاكم اغتصب السلطة من أبيه ، رفضت حكومة الهند هذه الحجة ووضوح قرار التحكيم فيما يتعلق بتنظيم دفع المعونة السنوية من زنجبار الى مسقط غير أنه حقنا لماء وجه ماجد رأت حكومة الهند أن تأخذ المعونة من سلطان زنجبار وتقدمها الى سلطان مسقط .

ولاشك أن هذا التصرف أدى الى زيادة فى تأزم العلاقات المباشرة بين السلطنتين ، كذلك امتنع ماجد عن دفع المعونة السنوية — خلال فترة حكم عزان بن قيس ١٨٦٨ — ١٨٧١ على أساس أن عزان لا ينتمى الى الفرع الأساسى الحاكم فى أسرة البوسعيد خاصة وأنه كان يعد حملة يستهدف بها ضم زنجبار الى مسقط فى عام ١٨٦٩ .

ولكن حكومة الهند تمسكت بموقفها حيث استمر وضع الاعانة السنوية الى عهد برغش بن سعيد وعلى وجه التحديد حتى عام ١٨٧٣

---

(١) ج . ج لورير — دليل الخليج ج ٢ ص ٧٣٢ .

اذ انه على أثر توقيع معاهدة الغاء تجارة الرقيق بين بريطانيا وزنجبار فى ذلك العام ونظرا لما أدى اليه الغاء هذه التجارة من فقدان سلطة زنجبار كثير من مواردها المالية رأت الحكومة البريطانية أن تعفى السلطنة من دفع الاعانة السنوية الى مسقط حيث تولت حكومة الهند دفعها بعد ذلك التاريخ •

ومنذ ذلك التاريخ أيضا بدأت الحواجز تقوى بين عمان وشرق افريقيا بل ان عمان نفسها أخذت تتعرض لتفكك اقليمى حاد ، وبالتالى انحسار المكانة التى كانت تتمتع بها فى القرن التاسع عشر حين كانت توصف بالدولة البحرية الأولى ويعزى ذلك التدهور الى الظروف الاقتصادية السيئة التى مرت بها والى عدم استقرار الاوضاع فيها •

ومما زاد فى مصاعبها فقدانها لقسم كبير من أسطولها البحرى الذى كان راسيا بمحض الصدفة فى زنجبار حينما توفى السيد سعيد • كما أن استخدام الملاحة التجارية فى رحلات بحرية بدأتها شركة الملاحة التجارية البريطانية بين الهند وموانى الخليج اصابت ملاحة عمان الشراعية بضربة قاضية وفى غضون سنوات قليلة اضمحلت القوة البحرية العمانية [١] •

أما زنجبار فقد ترتب على انفصالها عن عمان أن أخذت مقاطعات شرق افريقيا تفقد مقوماتها العربية نتيجة ضعف ارتباطها بالوطن الأم الذى كانت تعتمد عليه فى ابراز تلك المقومات وبدأت تخضع من ناحية أخرى للدماء الأفريقية بالاضافة الى المؤثرات الاستعمارية خاصة وأن الاستعمار كان حريصا على مسح الشخصية العربية فلم تعد اللغة العربية فى

---

(١) جمال زكريا قاسم : اثر الاستعمار فى تفكيك الروابط بين الخليج وشرق افريقيا — من مجموعة اعمال مؤتمر شرق الجزيرة العربية — الدوحة ١٩٧٧ .

زنجبار الا لغـة الارستقراطية الحاكمـة وأخذ الطابع الافريقى يغلب على السلطنة العربية فى زنجبار .

ومن ناحية اخرى كان لمعاهدات الغاء تجارة الرقيق التى عقـدتها بريطانيا مع مسقط ورؤساء الخليج دور فى ذلك لأن هذه المعاهدات تضمنت تشديد القبضـة والرقابة الاستعمارية على الملاحـة العربية ومصـادرة السفن ، هذا الى جانب القرارات التى اصدرتها السلطات الاستعمارية فى زنجبار والتى كانت تحرم على سـكان زنجبار تأجير مساكنهم للتجار العرب الآتين من الخليج والجزيرة العربية كمـا اوقف سلاطنة زنجبـار الهدايا التقليدية التى كانوا يقدمونها عادة الى رؤسـاء القبائل العربية فى عمـان .

وعلى الرغم من أن انفصال مسقط عن زنجبار كان من الممكن أن يترتب عليه زيادة المؤثرات العربيـة فى المقاطعات الأفريقية الا أن النتيجـة كانت على العكس من ذلك تماما فبينما كان عرب زنجبار يزيدون من نفوذهم الاقتصـادى والسياسى فى الداخل الا أنهم كانوا فى نفس الوقت يتعرضون للذوبان اجتماعيا وجنسيا فى البيئات الافريقية يضـاف الى ذلك ما اقدمت عليه السلطات الاستعمارية فى الحـد من انتشار الاسـلام واللغـة العربيـة فى شرق افريقيا واتباع سياسـة التفتيت اللغـوى شحـذا للعصبيات القبلية .

وعلى الرغم من أن العرب فى شرق افريقية أصبحت مصلحتهم مشتركة مع مصالح الأجناس الأخرى الا أن السلطات الاستعمارية البريطانية (١) شجعت الحزب الافروشيرازى الذى عرف بمناوئته للعناصر العربيـة فى زنجبار وقـد برز ذلك الحزب فى السنوات الاخيرة وكان له دور بارز عند

---

(١) فرضت بريطانيا حمايتها على زنجبار فى عام ١٨٩٠ .

قيام ثورة زنجبار التى اطاحت بالحكم العربى فى عام ١٩٦٤ م وما اعقب ذلك من اضطهادات سياسية وعنصرية شديدة وقعت على الأقلية العربية فى زنجبار التى فر معظم افرادها الى مواطنهم الأولى فى عمان وبقية أقطار الخليج •

وهكذا اسدل الستار على الحكم العربى فى زنجبار الذى انتهى بمأساة دامية يمكن اضافتها الى مآسى العروبة المتعددة فى الاندلس وعربستان والاسكندرونة وفلسطين •

دور عُمان فى بناء حضارة شرقى إفريقية

للأستاذ الدكتور رأفت غنيمى
استاذ التاريخ المعاصر المساعـد
بجامعتى عـين شمس وقطـــر

بسم الله الرحمن الرحيم

خطـــة البحـــث

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــــة

لمـــاذا عمان وشرق أفريقيا ؟ هذا سؤال أطرحه أولا قبل الحديث عن البنـــاء الحضـــارى الذى أقامه العمانيـــون فى شرق أفريقيا ، وفى هـــذه المقدمـــة سأحاول الاجابة على هـــذا التساؤل ، ولأبدأ بالشـــق الأول من التساؤل وهو لمـــاذا عمان والعمانيون !

كانت عمان فى مطلع العصـــور الحديثـــة ــ القرن الســـادس عشر الميـــلادى ذات مكانة متميـــزة وكيان بارز فى منطقة الخليـــج العربى والجزيرة العربيـــة ككل ، اذ بينما كان الشاطىء العربى للخليج خلوا من أى تنظيم سياسى ، فانه يمكن استثناء عمان من هـــذا الوصف ، فقد كانت منذ عهد بعيد أكثر ازدحاما بالســـكان ، وساعد على وجـــود هذا التنظيم النسبى ، وجود المذهب الاباضى الذى اشتهر بنظام الامامة على أساس البيعـــة ولو أن الامامـــة فى ذلك العصر تحولت الى ملك أساســـه القوة فى ظل الأسرة النبهانية [١] .

كانت عمان اذن تخضع لتنظيم سياسى سبقت به غيرها من الاقطار الخليجية المجاورة ، وقد ساعد على ذلك موقفها الجغـــرافى الممتاز الذى أعطاها أهميـــة استراتيجية واقتصـــادية اذ أن عمـــان تحد شمالا بالخليج العربى وجنوبا ببحـــر العرب وشرقا بخليج عمـــان وغربا بصحراء الربع الخالى وهى بذلك منطقة تطل على البحر من جهـــة والصحراء من جهـــة أخـــرى وقـــد أعطى لها ذلك الموقع الجغرافى مميزات خاصـــة طبعت حياة أهلها بطابع خاص [٢] .

ولا نكون بعيدين عن الصواب اذا قلنا أن الطابع المميز لعمان هو الطابع البحرى الجبلى ، اذ ألقى الموقع الجغراف الذى تتميز به أهمية خاصة على ذلك الاقليم الذى يحتل مركزا هاما بالنسبة للطرق الموصلة الى الهند وأفريقيا والبحر الأحمر ؛ مما أدى الى أن يكون مركزا وسيطا للتجارة خاصة تجارة المرور ، كما ساعدت الرياح الموسمية الملاحين العرب فى عمان أن يصلوا فى رحلاتهم البحرية الى مناطق بعيدة (٣) .

وكان لعمان منذ القدم اذن مكانة مرموقة ، فابن خلدون يصفها بأنها من ممالك جزيرة العرب ، وهى اقليم سلطانى « منفرد على بحر فارس — الخليج العربى من غربيه مسافة شهر ، شرقها بحر فارس وجنوبيها بحر الهند وغربيها بلاد حضرموت ، وشمالها البحرين (٤) فهى اذن بلاد لها تنظيم سياسى يحكمها سلاطين منذ ذلك الوقت المبكر الذى عاش فيه ابن خلدون أى منذ القرن العاشر الميلادى .

كان لهذا الوضع المستقر المنظم فى عمان أثره الكبير فى نشاط العمانيين البحرى . وكانت الفكرة عن العرب أنهم لايحبون البحر ويخشون مياهه ، ولكن العرب أثبتوا بجولاتهم البحرية فى المحيط الهندى وفى غيره أنهم بحارة مهرة ، وأن العربى يركب مركبا كما يركب جملا ، وقد وصف المسعودى فى رحلة له فى المحيط الهندى خبرة العرب فى الملاحة بقوله : وصاحبت مشايخ فيه ولدوا ونشأوا من « ربابين » و « أشاتمة » ووكلاء وتجار ورأيت معهم دفاتر فى ذلك يتدارسونها ويعولون عليها ويعملون بما فيها (٥) .

وتروى المصادر التاريخية أن « عثمان الثقفى » والى البحرين اتخذ من عمان مركزا لارسال حملات فتح اسلامية الى الهند والشرق الأقصى ، فقد أبحر بنفسه من عمان فى غارة جريئة على ساحل الهند عند « تانة » بالقرب من بومباى ، ووجه أخاه المغيرة الى « خور البيل »

عند مصب نهر السند عام ٦٣٦ م [٦] • ووجه أخاه الآخر المسمى « الحكم » الى « بروص » التى تعرف الآن باسم بهروج — بالهند أيضا ، وتم فتح بلاد السند على يد « الحجاج » بعد عام ٧١٠ م بقليل فاقترب العرب بذلك خطوة من الشرق الأقصى •

ومن عمان اهتم الملاحون العرب بساحل « المليبار » حيث التوابل والأخشاب التى تصنع منها السفن وغيرها ، وكانت سفن العرب تعود من ساحل « المليبار » بالسير الى جزيرة سيلان فجزيرة الياقوت التى يسميها العرب « سرنديب » وكان الملاحون العرب يذهبون الى الصين عبر « ملقا » وكانت الرحلة تبدأ من مدينة « مسقط » بعمان الى مدينة « كانتون » فى الصين وتستغرق حوالى ١٢٠ يوما عدا فترات الوقوف فى الموانى ، وتستفيد من الرياح الموسمية ذهابا وعودة [٧] •

كانت خبرة العمانيين البحرية اذن قديمة وراسخة تؤهلهم لكى يخضعوا المحيط الهندى بين عمان والهند وشرق أفريقيا لجولاتهم البحرية ، غير آبهين بأمواجه العالية التى ذكرها المسعودى فى آخر رحلة له عام ٩١٧ [٨] على لسان البحارة فى قولهم : وموجه عظيم كالجبال الشواهق وأنه موج أعمى ، يريدون بذلك أنه يرتفع كارتفاع الجبال وينخفض كأخفض مايكون من الأودية ، لاينكسر موجه ولايظهر من ذلك زبد ككسر أمواج سائر البحار ويزعمون أنه موج مجنون •

ومع ذلك فقد نبغ من البحارة ملاحون عمانيون كان أشهرهم العمانى شهاب الدين أحمد بن ماجد الذى صال وجال فى مياه المحيط الهندى دون أن يهتز فؤاده أو يفقد سيطرته على سفينته فى يوم ما •• واذا كان الموقع الجغرافى لموطن أحمد بن ماجد وأعنى عمان قد تحكم فى اختيار مهنة الخليج العربى أى على طرق التجارة المنتعشة ، وان أهل عمان ارتبطوا بالبحر حيث كان بعضهم مقيدا طوال حياته بعمل شاق وهو صيد اللؤلؤ ،

وبعضهم حقق ثروة عن طريق العمل بالتجارة وأصبحوا ملاك سفن وقاموا برحلات خطيرة عن طريق المحيط الهندى الى الأراضى الغنية فى شرقـه (الهند) وفى غربه (أفريقيا) ، فان البعض الآخـر من أهل عمان قد وهب نفسـه لدراسـة فن الابحار وتفهم قواعده وأصوله الثابتة وادخال بعض التعديلات على القواعد القديمة ، ومن هنا قام كل ملاح بتأليف مجموعـة كبيرة أو صغيرة من المقالات البحرية ، والى هذه المجموعة الأخيرة من أهل عمان ينتمى أحمد بن ماجد الذى ورث هذا العمل عن جده وأبيه (٩) .

والتزم أحمد بن ماجد بقوانين الملاحـة وتعاليمها التى سجلت على السنة الملاحين فى كلمات تقول :

نحن الأخـوة الملاحين مرتبطون بواجبنا وأقسمنا ألا نغادر سفننا حتى النهاية المهلكة ، ونحن الملاحين نصعـد على ظهر السفينة ، وبهذا ترتبط بها حياتنا ومصيرنا فاذا نجت السفينة نجونا واذا هلكت هلكنا معها (١٠) .

ونتيجة لخبرة أحمـد بن ماجد البحرية لم يظهر دهشته عندما عرض عليه الملاح البرتغالى « فاسكودى جاما » أدوات الملاحـة التى يستعملها البرتغاليون عندما التقيا فى مدينة مالنـدى بشرق أفريقيا عام ١٤٩٨ م . وأظهر ابن ماجـد أجهزة أخرى صنعها بنفسـه واستخدمها الملاحـون العرب مما أثارت دهشـة « دى جاما » مما دفعـه الى التمسك بابن ماجد ليرشده الى الهند ، ولا عجب أن يسمى ابن ماجد باسم « ليث البحـر » دون أى تأنيب من ضميره (١١) .

هذه العوامل مجتمعـة مسئولة عن تطلع عمـان الى القيام بدور حضـارى فى شرق أفريقيا فموقع عمان الجغرافى ذو البعد الاستراتيجى والاقتصادى ، والاستقرار السياسى فى ظل تنظيم نسبى يميز عمـان عن غيرها من الأقطار الخليجية المجـاورة ، وحيوية أهل عمان بوجود امامة

بينهم توحدهم وخبرتهم الملاحية التى جعلتهم سادة المحيط الهندى لسنوات طويلة بل لقرون .. كل ذلك أجاب على التساؤل المطروح سابقا : لمـاذا عمان ؟ . لمـاذا شرق افريقيا ؟ .

ان الجزء موضوع بحثنا من شرق أفريقيا هـو ذلك الجزء المطل على المحيط الهندى والممتد من « رأس جردافون » شمالا الى خليج « دلجادو » جنوبا والتى أطلق العرب عليها سـاحل الزنج أو زنجبار ، وبار بالفارسية تعنى الساحل ، حيث كان التجار من جنوب الجزيرة ... العربية وسواحل الخليج العربى أقـدم من وطئها ، وكان قدومهم اليها للتجارة أو الاستيطان حينا آخـر [١٢] .

وهذا الجزء من أفريقيا تميز بموقعه الجغرافى المتميز عن بقية الأجزاء الأفريقية حيث يواجه جنـوب الجزيرة العربية والخليج العربى والهند ، ويتعرض للرياح الموسمية التى تسهل عملية الاتصـال مع هـذه المناطق الآسيوية .

فالرياح التى تؤثر فى حركة الملاحـة شتاء وتمتد من شهر نوفمبر الى شهر مارس هى الرياح الموسمية الشمالية الشرقية ومن ثم فهذه الفترة أفضـل موسم مناسب لحركـة الملاحة بالسفن الشراعية من شبه جزيرة العرب وشرق أفريقيا ، والحـد الجنوبى للاستفادة من هذه الرياح مدينة سفالة بينما تسـود الرياح الموسمية الجنوبيـة والغربية فى المدة من شهر مايـو الى شهر سبتمبر من كل عام ، وفى هذه الفترة تقوم السفن الشراعية برحلة الصيف أو الاياب الى جنوب جزيرة العرب والخليج العربى وساحل الهنـد [١٣] .

وقد ساعدت ظروف شرق أفريقيا الطبيعية على ارتباط هذا الجـزء بالخليج العربى والجزيرة العربية والهنـد ، فالى جانب سهولة الابحـار

باستخدام انرياح الموسمية فان ظروف شرق أفريقيا الطبيعية تؤهل لهذا الارتباط ، اذ يتميز شرق أفريقيا بوجـــود مساحات كبيرة صالحـــة للزراعة، وتوفر أعداد كبيرة من الحيوانات التى استطاع الانسان استئناس بعضها وصيد البعض الآخـــــر .

كما أن الكثافة البشرية فى شرق أفريقيا واضحـــة وتفوق الكثافـــة البشرية فى الجـــزء المقابل من غرب القارة فى منطقة حوض نهر الكنغو على سبيل المثـــال ، وفى شرق أفريقيـــا استطاع سكانها التعرف على التنظيم الاجتماعى الراقى واحتكوا بالمدنيات القديرة والحديثـــة ، وارتبطوا بآسيا التى حملت اليهم الثقافة والنظم الاجتماعيـــة والديانات . وقـــد أثرت الحضارة الاسلامية كثيرا فى أهل أفريقيا الشرقية (١٤) .

تلك اذن الاجابة فى رأيى عن التســـاؤل الثانى لمـــاذا شرق أفريقيا ؟ ومن هذه الاجابة والاجابة التى سبقتها عن التســـاؤل الأول لمـــاذا عمان والعمانيون ؟ يأتى هـــذا البحث عن دور العمانيين فى بناء حضارة شرق أفريقيا فى الصفحات التالية التى أقدمها لندوة الدراسات العمانية فى اطار احتفالات سلطنة عمان بمهرجان التراث العمانى .

شرق أفريقيا قبـــل اليعاربـــة

من الثابت أن وجـــود العرب ومنهم العمانيون فى شرق أفريقيا قديم قبل ظهور الاســـلام ، حيث كان عرب جنوب الجزيرة العربية هم أقـــدم الشعوب العربية اتصـــالا بالســـواحل الشرقية لأفريقية بحكم الجـــوار الجغرافى ، وساعدهم على قيام هذه الصلات نظام الرياح الموسمية اذ كانت الرياح الموسمية تمكن السفن الشراعية الصغيرة المعروفة باسم «الداو» من القيـــام برحلتين على الأقـــل فى العـــام ، ففى الخريف تدفعها الرياح الموسمية الجنوبيـــة الغربية من خليج عمان وســـواحل الجزيرة العربية

الجنوبية نحــو الســاحل الافريقى الشرقى . وفى فصل الربيع تدفعها فى اتجاه شمال شرقى يمكنها من العودة الى قواعدها . وفى خلال دورة ـــ الرياح يتم التعامل التجارى (١٥) .

كما كان لشعــوب الرافدين ووادى النيل اتصــال بالساحل الشرقى لأفريقيا ، حيث تثبت النقوش التى عثر عليها فى شرق أفريقيا أنها وافــدة من بلاد الرافدين ، وحيث سجل فراعنة مصر على معابدهم رحلات سفنهم الى شرق أفريقيا . منذ عهد الأسرة الخامســة (٢٥٦٠ ـــ ٢٤٢٠ ق . م) . ولعل أشهر ما سجل على الآثار المصرية كانت مناظر الرحلة التى أوفدتهــا الملكة حتشبسوت (١٤٩٠ ـــ ١٤٦٩ ق . م) الى شرق أفريقيا والتى سجلت على جدران معبدها بالدير البحرى » (١٦) .

وفى هذا الوقت المبكر من علاقات العرب بشرق أفريقيا لم يثبت أن العرب توغلوا داخــل القارة وانمــا اكتفوا باقامة بعض المراكز التجارية على الساحل لتصدير تراب الذهب والعاج الى الامبراطوريتين الفارسيــة والرومانية ، وتعاونت القبائل الافريقية مع العرب فى هذه التجارة حيث كان الرؤســاء وزعماء القبائل يأتون الى الساحل بالذهب والعاج فيقايضون التجار العرب المتعاملين معهم بما يحملونه . وخاصة الخرز الذى كانــوا يجلبونه من الهنــد وكانت البضائع الأفريقية غالبا ماتستبقى فى المراكــز التجارية التى أقامها العرب على الســاحل الى أن يحين موسم الرياح حيث ينم نقلها الى الخليج العربى وســواحل الجزيرة العربيــة فى رحلــة العــودة (١٧) .

ومن هناك تنقلها القوافل الى الشــام والعراق ومصر أو تنقلها السفن الى الهنــد (١٨) .

ورغم عــدم توغل العرب داخل أفريقيا فانهم اختلطوا بسكان الساحل

الشرقى لأفريقيا وتزوجوا من نساء القبائل الافريقية ، ومن ثم وصفهم البعض بأنهم يألفون أهل البلاد ويتزاوجون معهم ويعرفون الساحل واللغة [١٩] ، كما يرى البعض أن ازدياد اختلاط العرب بالقبائل الافريقية ـ منذ هذه الفترة القديمة كان بداية لظهور ثقافة مميزة المعالم أخذت من كل الشعبين العربى والافريقى ، وأصبحت السواحلية لغة قائمة بذاتها مزيجا من الذى أتى به العرب ، والذى كان ملكا خاصا للأفريقيين ، وهذا لاينفى وجود اللغة العربية فى الساحل الشرقى لافريقيا كلغة قائمة بذاتها باعتبارها لغة الطبقة الحاكمة فى هذا الساحل [٢٠] .

وبعد ظهور الاسلام وقيام الدولة الاسلامية الكبرى لم تنقطع الصلات بين العرب وشرق أفريقيا ، اذ استمرت الهجرة الى ساحل الزنج « كما أطلق عليه العرب وأصبح لدى العرب دوافع جديدة غير الواقع التجارى للاستقرار الدائم فى سواحل أفريقيا الشرقية واقامة أنظمة سياسية ذات هوية عربية اسلامية .

ومما زاد من الهجرات العربية الاسلامية الى شرق أفريقيا حدوث المنازعات الدينية والسياسية بين المسلمين فى عهد الدولتين الأموية والعباسية، ومن ثم كان من الطبيعى أن تهاجر جماعات اسلامية عربية من الاحساء والبحرين وعمان وحضرموت واليمن الى شرق أفريقيا حيث الأمن والأمان ، ومن الطبيعى أيضا أن تنقل هذه الجماعات المهاجرة معها صورا من الحضارة العربية الاسلامية الى شرق أفريقيا ، وكان أبرز هذه الصور انشاء المنازل العربية ، والمراكز التجارية ، وانتشار الدين الاسلامى والحضارة الاسلامية فى اريتريا والصومال وزنجبار والى الجنوب من خط الاستواء [٢١] .

ولم تلبث أن تحولت المنازل العربية والمراكز التجارية الى مدن عربية اسلامية يسكنها المهاجرون العرب ، ومن ثم أصبحت مراكز الالتقاء الحضارى والالتقاء السكانى بين العرب والأفريقيين [٢٢] .

فاذا تتبعنا دور الهجرات العمانية الى شرق أفريقيا فاننا نجـد أن أهم هجـرة عمانية الى شرق أفريقيا كانت تلك الجماعة التى قادها الأخــوان « سليمان وسعيد ابنا عباد الجلندى » من قبيلة الأزد خلال الفترة مــن ٧٥ ــ ٨٥ هـ الموافق ٦٩٤ الى ٧٠٤ م ٠

وكان هذان الأخوان من الشيوخ الذين حكموا عمان أيام الدولــة الأموية وثاروا ضد الحكم الأموى زمن الخليفة عبد الملك بن مروان ، وعندما فشلت ثورتهما أمام قوات الحجاج بن يوسف الثقفى عام ٧٥ هـ الموافق ٦٩٤ م هرب الأخوان مع أنصارهما الى ساحل الزنج ، وكان منذ وصولهما الى ساحل أفريقيا الشرقى رسولى سلام ودعوة الى الاسلام ، ولايعرف على وجه التحديد أين نزلوا على البر ، ومن المحتمل أن يكونوا قد نزلوا فى « بــات » جزيرة « مافيــا » بأرخبيل «لامــو » أو فى مدينة « حــدابو » التى أسسوها شمالى ممبســة (٢٣) ٠

وكان النجاح الذى أصاب الأخوان سليمان وسعيد ابنا عباد الجلندى بشرق أفريقيا دافعا لمزيد من الهجرات العربية من الخليج والجزيرة العربية، كان من هذه الهجرات جماعات من الزيديين ــ المنتسبين لزيد بن على زين العابدين بن الحسن بن على بن أبى طالب والسيدة فاطمة الزهراء ــ الذين تضاعفت هجراتهم قادمين من اليمن خاصــة فى الفترة الممتدة من ١٤٠ ــ ١٤٣ هـ ٧٥٧ الى ٧٦٠ م حيث انتشروا على ساحل بنادر فى الصومال الحالية وتوغلوا الى الداخل قليلا ، واتسع ملكهم حتى ضم منطقة « مقديشيــو » على المدينة التى أسسها العرب فيما بعد ٠

وقد تدعمت هجرة العمانيين بهجرة خليجية أخرى خرجت من اقليم الاحســاء فى أوائل القرن الرابع الهجرى الموافق للقرن العاشر الميلادى ٠ حين خرج سبعة أخوة من قبيلة الحارث العربية على رأس جماعــة مــن انصارهم فى ثلاث سفن ــ نتيجة الصراع بين الخلافة العباسية والقرامطة ــ

وهبطوا الى ساحل أفريقيا الشرقى عند ساحل البنادر وأخـذوا يمدون نفوذهم حتى وصلوا الى الجنوب من مدينة ممبسة ومن ثم اصطدمـوا بالزيديين الذين اضطروا الى الانسحاب الى داخـل أفريقيا بعيـدا عن الساحل حيث استقروا حول أودية نهرى جوبا وشبيلى [٢٤] .

وكان الوافدون الخليجيون قـد اختلفوا مع الزيديين . مما اضطر الأخيرين الى التوغل داخل أفريقيا جيث اختلطوا بالسكان هناك بل تزاوجوا معهم ، وقد تكـون من هذا المزيج أمة خليطة من العرب ، والزنوج حيث عرفوا باسم « الأموزيدج » [٢٥] ويبدو أنها تحريف سواحيلى للزيدية أما الأولون وأعنى « الحارثيون » فاليهم يرجع الفضل فى تأسيس مشيخـة « مقديشـو » التى تزعمت الساحل الشرقى لافريقيا لفترة طويلة ، كما يرجع اليهم الفضل فى تأسيس مدينتى مقديشيو وبراوة [٢٦] .

وكان عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان قد شهد ظهور عدة مدن أقامها المهاجرون العرب فى ساحل الزنج منها مـدن : مالندى ــ أو مالنده ، وزنجبار ، وممبسة ولامو ، وكلوه ، وبات [٢٧] ، ولم ينته القرن الرابع الهجرى الموافق للعاشر الميلادى الا وكانت مدن الساحل قـد استكملت مقوماتها وسماتها العربية ، وهذه المدن من الشـمال الى الجنـوب هى : مقديشيو ، براوة ، قسمايو ، بات ، لامـو ، زنجبار ، موفيه ــ اومافيا ، كلوة ، موزمبيق ، سفالية ــ أو سفالة ــ وانتشر الاسلام فيها جميعا ، وأصبح لكل مدينة مسجدها الخاص [٢٨] .

وشهد أول القرن السـابع الهجرى (٦٠١ أو ٦٠٣ هـ) ظهور أول دولة عربية عمانية بشرق أفريقيا ، وذلك حين هاجر من عمان ونتيجة لخلافات هناك سليمان بن سليمان بن مظفر النبهانى الذى كان ملكا على عمان ونزل بساحل الزنج ليعيد تأسيس الملك النبهانى الذى انتهى فى عمان عام ٦٠١ هـ، ونظرا للشخصية التى كان يتمتع بها الملك النبهانى سليمان والذى كان ملكا

على عمان فقد استقبله العرب فى جزيرة بات وكان معظمهم من اقليم عمان استقبالا طيبا (٢٩) • ثم تزوج سليمان من أميرة سواحلية هى ابنة اسحق حاكم الجزيرة وهو من سلالة الشيرازيين حكام كلوة ؛ وبعد اتمام الزواج تنازل اسحق عن الحكم فى جزيرة بات لسليمان الذى أصبح أول حكام أسرة بنى نبهان فى الســاحل الشرقى لأفريقيا (٣٠) •

وقد استطاعت الأسرة النبهانية أن تخضع معظم ساحل الزنج تحت لوائها وأن تجعل من جزيرة بات مركزا للسلطنة النبهانية التى بلغت شأنا كبيرا فى بعض فترات من تاريخها وقد ضمت السلطنة اليها كلا من قسمايو وبراوة ومقديشيو ، ومالندى وكلوة وممبسة وتلقب الملوك النبهانيون بلقب « بوانافومادى » وهو لقب سواحلى تقليدى فيما يبــدو (٣١) • وقد ظلت الأسرة النبهانية تحكم من بات حتى عام ١٧٤٥ م رغم وجود البرتغاليين فى شرق أفريقيا (٣٢) •

وخلال فترة حكم الأسرة النبهانية التى استمرت من القرن الثالث عشر الميــلادى حتى أواسط القرن الثامن عشر فى شرق أفريقيا وضعت الأسس لحضارة اسلامية عربيــة عمانية مزدهرة ، شملت مختلف حيــاة الناس فى هــذه الجهات الأفريقية •

ففى المجال الاقتصادى كانت التجارة فى مقدمة نشاط الشرق الأفريقى، وقــد ساعد نشاط الحركة التجارية فى شرق أفريقيا فى هذه الفترة الى توافد الكثيرين من التجار العرب والهنود على ساحل الزنج (٣٣) •

وقد عمل هؤلاء التجار بنقل حاصــلات المنطقة مثل العاج والذهب وريش النعام والعسل والجلود والموز واللؤلؤ والصمغ واللبان ، الى البلدان المطلة على المحيط الهندى ، كما ظهرت هذه السلع فى الاسواق العربية فى الشــام والعراق ومصر ولاشك أن التجارة جانب حضارى بما تؤدى اليه

من احتكاك وتفاعل بين ساحل الزنج وأجزاء أخرى من العالم أكثر تحضرا •

وكان استخراج الذهب من منطقة سفالة من الأمور التى اهتم بها العرب فى ساحل الزنج حيث كانت كميات كبيرة من ذهب سفالة تذهب الى الدولة الاسلامية فى بلاد العرب (٣٤) ، وقد شارك العرب فى البحث عن الذهب والفضة والنحاس والحديد فى ساحل الزنج مما يعتبر عاملا حضاريا آخر ساهم فيه العرب فى تلك البقاع التى للعمانيين — كما رأينا — قصب السبق فيها •

وفى مجال الزراعة فقد ادخلت فى بقاع كثيرة من ساحل الزنج وظهرت كثير من النباتات التى زرعها العرب هناك مثل القرنفل وقصب السكر •• الخ، وارتبط بالزراعة اهتمام العرب بالرعى ، فالى جانب عناية العرب بتربية الماشية والأغنام عناية فائقة ، فقد ادخلوا كذلك تربية الابل فى تلك البلاد ، وكان من نتيجة الاهتمام بتربية هذه الحيوانات ازدهار تجارة الجلود •

فاذا انتقلنا الى جانب آخر من الحضارة العربية الاسلامية فى ساحل الزنج فى عهد الأسرة النبهانية العمانية فاننا نجد أن الجانب الاجتماعى ظهرت فيه ملامح التغيير بصورة واضحة ، حيث اختلط العرب بالقبائل الأفريقية كالبانتو • وغيرهم مما ساعد على انتشار الاسلام واللغة العربية بين سكان الساحل الشرقى لأفريقيا ، كما انتشر التعليم الدينى فى المساجد والمدارس الدينية التى وفد اليها كثير من الوطنيين الأفارقة ليحفظوا القرآن الكريم ويتعلموا القراءة والكتابة باللغة العربية لغة القرآن الكريم ، وقد ساعد تزاوج العرب مع الأفارقة إلى ادخال العادات والتقاليد العربية فى ذلك الساحل الشرقى الافريقى سواء فى المسكن أو الملبس أو العلاقات الاجتماعية •

وعلى سبيل المثال فقد تجلت الحضارة العربية فى شرق أفريقيا فى المبانى المعمارية وتخطيط المدن ، وزخارف الأبواب والشبابيك ، كما أدخل العرب فن النقش والحفر والنحت وعقود البنـاء العالية ، والفسيفساء المتحدة مع الرخام الملون ، وقد ظهر ذلك بوضوح ـ مثلا ـ فى قصـور كلـوة ومساجدها (٣٥) .

وكان أكثر الارتباط الحضارى بين شرق أفريقيا وعرب الخليج والجزيرة العربيـة وبقيـة الأقطار العربية ، شعور عرب ساحل الزنج بالانتماء للوطن الأم الذى قدموا منه وتطلعهم الى أخواتهم فى أوقات الشـدة ؛ وخير مثال على هـذا الكلام تطلع عرب شرق أفريقيا الى عرب الخليج وجنوب الجزيرة العربيـة عندما قدم البرتغاليون وأخذوا فى تخريب المدن العربيـة الاسـلامية بشرق أفريقيا .

وكان التعليم فى أقطار الوطن العربى فى ظل الخلافـة الاسـلامية مطمعا للشباب من ساحل أفريقيا الشرقى الذين حرص الكثير منهم على أن يحصلوا على المعرفة الدينية فى كل من مكة والمدينة المنورة ودمشـق وبغداد والقاهرة ، وعلى سبيل المثال فقد تنقل السلطان « أبو المواهب » (١٣٠٨ — ١٣٣٤ م) قبل ارتقائه عرش السلطنة فى كلوة بين عدن ومكة لطلب العلم ، وكان قد وصل الى مكة وهو لم يزل فى الرابعة عشرة من عمره (٣٦) .

ولم يكن هذا البناء الحضـارى العربى الاسلامى بشرق أفريقيا ليحـدث لو لم يكن العرب الوافدون الى هذه الجهات قد اختلطوا بروح التسامح وعـدم الاستعلاء التى يتمتع بها العرب مع القبائل الأفريقية وتزاوجوا منهم وامتزجوا بهم ، وأخـذت شعوب الساحل عنهم الـدين الجديد والثقافة العربية التى قامت عليه ، كمـا أخذت عنهم الكثير مـن وسـائل عيشهم ونماذج حياتهم ، وثمـة ملاحظة جديرة بالذكر وهى أن معظم المهاجرين كانوا من اقليم عمان فى الجنـوب الشرقى من الجزيرة العربية (٣٧) .

ومما تجـــدر ملاحظته أن ساحل الزنج لم يشهد قيام دولة واحـــدة أو لم يخضع كله على امتداده لسلطنة أو مملكة واحدة ، بل شهد كثيراً من الوحـــدات الاســـلامية على طول الساحل من شماله الى جنوبه •

وقد زار الرحالة ابن بطوطة هذه الوحدات بمدنها وأعجب بهـــا وقال عنها : ثم ركبت البحر من مدينـــة « مقديشـــو » متوجها الى بلاد الســـواحل قاصـــدا مدينة كلوة من بلاد الزنوج فوصلنا الى جزيرة بمبا وهى جزيرة كبيرة بينها وبين الســـواحل مســـيرة يومـــين فى البحـــر ولا بـــر لها ، وأشجارها المـــوز والليمون والأترج وأكثر طعامهم المـــوز والسمك ، وهم شافعية المذهب ، أهل دين وعفاف وصـــلاح ، ومساجدهم من الخشب محكمة الاتقان ، وبيتنا بهـــذه الجزيرة ليلة وركبنا البحر الى مدينة كلوة وهى مدينة عظيمة ساحلية أكثر أهلها من الزنوج المستحكمى الســـواد •

ويضيف ابن بطوطة قائلا : وذكر لى بعض التجار أن مدينـــة سفالة على مسيرة نصف شهر من مدينـــة كلوة ، ومدينة كلوة من أحسن المدن وأتقنها عمارة وكلها بالخشب والأمطار بها كثيرة ، وهم أهل جهاد لأنهم فى بر واحـــد متصـــل مع كفار الزنوج ، والغـــالب عليهم الدين والصلاح وهم شافعية المذهب • كما تحـــدث عن سلطان سفالة « بأنه يغـــير على الكفار ويأخذ الغنائم فيخرج خمسها ويصرفه فى مصارفه المعينة فى كتاب اللـــه » (٣٨) •

ولكن الوحدات السياسية بشرق أفريقيا دخلت فى صراع مع بعضها البعض بحيث لم تستطع مقاومة الغزو الاستعمارى البرتغالى الذى استطاع أن ينفرد بكل وحـــدة سياسية ويخربها مما اضطر العرب الى ترك الساحل والنزوح الى داخل القارة ، وان بقيت بعض هذه الوحدات خاصـــة تلك التى قامت فى الجزر عربية الطابع اسلامية المنحى (٣٩) •

شرق أفريقيا فى عهـد اليعاربة

لفهم دور اليعاربة العمانيين فى بناء الحضارة العربية الاسلامية بشرق أفريقيا ، ينبغى أن نسجـل ظروف السـاحل الافريقى أثنـاء السيطرة البرتغالية • ذلك أن البرتغاليين وفدوا الى ساحل افريقيا الشرقى منـذ عام ١٤٩٨ هـ وبقوا هناك حتى طردهم اليعاربة من الجزء الشمالى من ساحل الزنج أواخر القرن السابع عشر • وعندما جـاء البرتغاليون أثناء دورانهم حول أفريقيا فى طريقهم الى الهند لأول مرة على يد الملاح « فاسكودى جاما » ونزلوا الى الساحل الشرقى لافريقيا وجدوا الساحل عامرا ومزدهرا •

وقد شعر البرتغاليون أن مـدن وممالك شرق أفريقيا العربية الاسلامية أكثر تقدما ورقيا بفضل وجـود العرب والمسلمين بينما كان سكان غرب أفريقيا أقل بكثير من درجة التحضر رغم وجـود سلطنات اسلامية ولكنها كانت داخلية وليست ساحلية مثل سلطنات مالى وصقار وغانا فلم يصطدم بها البرتغاليون المهتمون بالسـواحل دون الدواخل ، كمـا فعلوا فى شرق أفريقيا (٤٠) •

وقد اندهش البرتغاليون من تحضر مدن شرق أفريقيا ، فيذكر الملاح البرتغالى « دورات باربوسا » أنه ما إن وصلت المراكب الصغيرة التى كان يقودها « فاسكودى جاما » الى مدينة سفالة حتى فوجئت مفاجأة لم تكن تتوقعها ، فقد لقى البحارة البرتغاليون مالم يكن فى حسبانهم حين خرجوا يضربون فى البحر ، لقوا موانى تطن كخلايا النحل ومدنا ساحلية عامرة بالناس ، وفرحوا حين وجدوا بين رجال البحر عددا من البحارة العرب الذين انتشروا فى سفن هذه المنطقة ، وكانوا يعرفون من أجل ذلك تفاصيل موانية ، وسجلوا هذه التفاصيل فى خرائط متقنة لاتقل فائدة عما كانوا يرسمونه هم من خرائط فى أوروبا •

ويضيف الملاح البرتغالى « باربوسا » فى حديثه عن شرق أفريقيا بأن

البرتغاليين رأوا على هذا الساحل الشرقى لافريقيا مدنا آهلة بالسكان لاتقل نشاطا عن مدنهم فى البرتغال ورأوا تجارة بحرية نافعة فى الذهب والحديد والعاج والخرز والجلود والأقمشة القطنية كما وجد البرتغاليون عالما تجاريا أوسع من عالمهم الذى جاءوا منه وأكثر ثراء من بلادهم وحتى السفن التى وجدها البرتغاليون كانت أكبر من سفنهم وأضخم حجما حتى لقد عجب سكان الساحل الشرقى لإفريقيا من أين أتى البرتغاليون وكل البلاد عندهم معروفة (٤١) .

لم يكن البرتغاليون اذن يتوقعون مثل هذه الحياة المتحضرة فى شرق أفريقيا ومن ثم فقد بهرتهم مدن الساحل وثروتها وسجلوا ذلك فى كتبهم قبل أن يدمروا تلك المدن المزدهرة ويحرقوا مزارعها ، فقد كتب أحد البرتغاليين عن مدينة «كلوة » ما يلى : هى ذات بيوت حسنة مبنية بالحجر والجص ، كثيرة الشبابيك على مثال شبابيكنا شوارعها منتظمة حسنة ، وسطوح بيوتها مستوية ، والأبواب من خشب منحوت مزخرف وصناعتها متقنة محكمة ، وحولها أنهار وبساتين وجنات تجرى فيها قنوات ماء عذب ، وفى هذه المدينة ذهب وافر وما من سفينة تأتى من « سفالة » أو تمر عليها الا وتقف فى هذه المدينة كلوة (٤٢) .

كانت سياسة البرتغاليين فى شرق أفريقيا اتخاذ هذه الجهات معبرا للوصول الى الهند ومن ثم أقاموا محطات عسكرية مسلحة فى ساحل أفريقيا الشرقى محل المدن العربية التى خربوها ، واكتفوا بهذه المحطات دون اقامة المستعمرات ، ولذلك فقد ظهر أثرهم فى شرق أفريقيا فى ناحيتين :

الأولى : اتجاههم الى احتلال الساحل وعزله عن الداخل الذى كان يمده بالسلع التجارية والتى كانت تصدر بدورها الى موانى الخليج العربى والهند والشرق الأقصى .

والثانية : اتجاه البرتغاليين الى اثارة الحروب والمنازعات الأسرية بين حكام الساحل والهدف من ذلك أضعاف الزعماء والرؤساء ليؤول للبرتغاليين السيطرة فى نهاية الأمر (٤٣) .

وعندما سيطر البرتغاليون على ساحل افريقيا الشرقى اضطر كثير من العرب والمسلمين الى التوغل بعيدا عن الساحل خوفا من بطش البرتغاليين بهم . ومن ثم نشروا معهم الحضارة العربية الاسلامية بين القبائل الداخلية، وهذا أمر نكاد نلحظه أكثر مايكون وضوحا بالنسبة لاعتداء البرتغاليين على المدن الصومالية مثل « مقديشيو » و « زيلع » و « بربرة » ، واتجاه المسلمين الى الداخل حيث انتشر الاسلام بين القبائل الصومالية بصفة خاصة (٤٤) .

كما أن المؤرخين يعتبرون كشف طريق رأس الرجاء الصالح كان يشكل كارثة كبيرة بالنسبة الى مدن شرق أفريقيا المزدهرة اقتصاديا وعمرانيا ، ولذلك فانهم يحددون نهاية القرن الخامس عشر بأنه يسجل انهيار العصر الذهبى للحضارة الاسلامية على الساحل الشرقى لأفريقيا حينما أخذ البرتغاليون يعملون فيها معاول الهدم والتخريب (٤٥) .

أما الصراع بين المدن العربية الاسلامية بشرق أفريقيا والذى أسهم البرتغاليون فى اشتعاله واستمراره ، فقد نشأ بين معظم مدن الساحل يحركها فى هذا الصراع الدوافع الاقتصادية والتجارية فضلا عن دوافع السيادة والرغبة فى السيطرة على الساحل ومن أمثلة هذه الصراعات ما حدث بين « مالندى » و « ممبسة » حيث ادعى حاكم مالندى أنه من سلالة حكام حكموا المنطقة الساحلية منذ القديم ، بينما كان حاكم ممبسة من أقوى حكام الساحل سلطة ونفوذا (٤٦) .

وحقيقة أن هذا الصراع كان موجودا قبل مقدم البرتغاليين ولكن

الأخيرين استفادوا منه واستغلوه فى القضـــاء على الزعامات والكيانات العربية الاســـلامية فى المنطقة من أجـــل بســـط سيطرتهم هم ، وان كان الصراع بين هـــذه المـــدن ما يلبث بعد أن شعر أهلها بخطر البرتغاليين أن توقف من أجـــل الوقوف أمام بطش البرتغاليين والاستغاثة بأهلهم فى عمـــان وبقية أنحـــاء الجزيرة العربية •

وكان ظهور اليعاربة كقوة عربية فى عمان وقفت بصلابة ضـــد الوجود البرتغالى فى منطقة الخليج العربى مشجعا لســـكان شرق أفريقيا العرب على أن يطلبوا مساعدة بنى دينهم ، وفعـــلا بعث حـــكام كل من زنجبـــار وبمبـــا وغيرهمـــا الى اخوانهم عرب عمـــان يطلبون منهم المعاونة ، وهكذا بدأ تدخـــل عمـــان فى الصراع العربى البرتغالى فى شرق أفريقيا واستطاعت دولـــة اليعاربة أن تقضى على سيطرة البرتغاليين فى الشرق الافريقى ، كما فعلت فى عمان والخليج •

ويمكن لنا القـــول مع القائلين بأن هناك ثلاثة ركائز اعتمـــدت عليها دولـــة اليعاربة عندما انطلقت من عمـــان تبسط نفوذها على أقســـام من ســـواحل المحيط الهندى فى شرق أفريقيا وغيرها وهذه الركائز هى :

الركيزة الأولى :

نجاح الدولـــة فى تكوين قوة بحرية كبيرة قادرة استطاعت بواسطتها مـــد نفوذها عبر البحـــار من ناحية ، كمـــا استطاعت أن تحولها الى جسر يربط بين ســـائر مناطق الدولة ، فى الخليج وشرق أفريقيا والمحيط الهندى من ناحية أخـــرى •

الركيزة الثانية :

التحـــدى الذى ترتب على الوجـــود البرتغالى فى مناطق امتـــداد اليعاربة ، ولمـــا كانت الدولة الجديدة قد نجحت فى تحـــدى هـــذا الوجود

فى الخليج والقضاء عليه ، فان هـذا النجاح قد أغراها بمزيد من العمل على تعقبه خارج الخليج تدفعها الى ذلك روح دينيـة قوية للتخـلص من السيطرة الأجنبية على أراض كان يحكمها العرب .

الركيزة الثالثة :

وهى تتصل بالحقيقة الثانية . ذلك أن عرب الخليج والعمانيين بالذات كانوا موجودين فى تلك المناطق منذ وقت طويل حتى قبل الاســلام وأن جذورهم لم تكن قـد تقطعت بعـد ممـا كان باعثا لهم على العـودة اليهـا (٤٧) .

وخلال فترة حكم اليعاربة فى عمـان والتى امتدت من عام ١٦٢٤ الى عـام ١٧٤١ م . شهدت مياه الخليج العربى والمحيط الهندى صراعا طويلا وعنيفا بين العمانيين والبرتغاليين انتهى لصالح العمانيين والعرب بصفة عامـة سـواء باجلاء البرتغاليين من الخليج العربى أو بانتهاء النفـوذ البرتغالى فى سـاحل الزنج من « رأس جردافون » شمالا الى « رأس دلجـادوا » فى الجنوب من الساحل ، وظهور الوجود العمانى فى هـذا الساحـل .

وقـد سبق اليعاربة فى صراعهم هـذا على الاهتمام ببناء اسطول كبير حربيـا وتجاريا ، فلم يكتفوا بالسفن العربيـة المصنوعة محليا وانما حاولوا أن يجـاروا الأساطيل الحديثة سـواء بشراء السفن من الـدول الأوربية أو بمحاولة تقليدها فى الصنع على قـدر الوسـائل المتوفرة ، وبهـذا صـارت بحرية عمـان سيدة المحيط الهندى خـلال فترة مـن الوقت امتدت من نهاية القرن السـابع عشر حتى أوائل القرن الثامـن عشـر (٤٨) .

وقد ذكر أن الامام سلطان بن سيف ثانى حكام عمان (١٦٤٩ —

١٦٦٨ م) امتلك اربعة وعشرين مركبا — وقيل ثمانية وعشرين فالكيا أسماؤها « الملك » « والفلك » « وكعب رأس » ، « الناصرى » « والوافى » ... الخ وأن المركب الفلك فيه ثمانون مدفعا ، وبعض المدافع أتته من الولاية (٤٩) .

وقد نجح العمانيون أواخر الخمسينات من القرن السابع عشر فى الانتصار على البرتغاليين وطردهم من مسقط على يد الامام سلطان بن سيف ، ومن ثم شرع فى تتبع البرتغاليين فى الهند وفى شرق أفريقيا مستجيبا فى ذلك لاستنجاد المسلمين الذين تربطهم بالعمانيين وشائج متينة منذ القدم (٥٠) وشجع ذلك الانتصار على البرتغاليين فى الخليج سكان شرق أفريقيا على أن يطلبوا مساعدة بنى دينهم ، وبهذا بدأ تدخل عمان فى الصراع العربى البرتغالى فى شرق أفريقيا ، واستطاعت دولة اليعاربة أن تقضى على سيطرة البرتغاليين فى شرق أفريقيا كما قضت على هذه السيطرة فى كل من عمان والخليج العربى (٥١) .

وليس من شك فى أن اتجاه عرب عمان الى تحرير سواحل شرق أفريقيا انما يؤكد لنا عمق الروابط التى كانت تجمع بين عرب عمان واخوانهم من شعوب ساحل الزنج ، وقد بلغ أعظم انتصار حازه العمانيون على البرتغاليين فى عهد الامام سيف بن سلطان اليعربى جيث نجاحهم فى اخضاع ممبسة فى ١٤ ديسمبر ١٦٩٨ م بعد حصار عنيف دام ثلاثة وثلاثين شهرا سقطت خلاله أقوى قلعة أقامها البرتغاليون فى ساحل شرق أفريقيا (٥٢) . وجاءت نجدة العمانيين نتيجة لطلب ممبسة « مما دفع بالامام سلطان بن سيف الى أن يرسل أسطوله الذى نجح فى الاستيلاء على ممبسة وطرد البرتغاليين منها ونصب عليها حاكما وذلك عام ١٦٦٥ م ، وان كان البرتغاليون قد استطاعوا استرجاع سيطرتهم عليها ونكلوا بأهلها (٥٣) .

واذا كان البرتغاليون قد استعادوا سيطرتهم على ممبسة بعد عام ١٦٦٥ م وأساءوا معاملة سكان المدينة ، فقد استعادها منهم الامام سيف بن سلطان كما رأينا ١٦٩٨ م ، فان والده الامام سلطان بن سيف اتجه بعد حصاره لمدينة ممبسة الى جزيرتى زنجبار وبمبا وتمكن من تخليصهما من أيدى البرتغاليين الذين استبد بهم الغضب ، فقام القائد البرتغالى « كابريرا » بمهاجمة سكان هاتين الجزيرتين لمساعدتهم العمانيين ولكنه لم يستطع مواجهة العمانيين أنفسهم الذين استطاعوا خلال النصف الثانى من القرن السابع عشر من اقصاء البرتغاليين عن مستعمراتهم فى شرق أفريقيا والتى كانت تمتد من جزيرة سقطره شمالا الى خليج دلجادو « جنوبا » (٥٤) .

وكان للتعصب الشديد والقسوة غير الانسانية التى لجأ اليها البرتغاليون فى معاملة العرب والمسلمين فى شرق أفريقيا دافع لهؤلاء العرب والمسلمين للثورة ضد البرتغاليين والاستغاثة باخوتهم العمانيين ، مما جعل الصراع مستمرا بين العمانيين والبرتغاليين حتى حسمه الامام سيف بن سلطان بالسيطرة على تلك الجهات بالاستيلاء على بات عام ١٦٧٩ م . وزنجبار وبمبا ، ثم ممبسة .

وترتبط ثورة ممبسة على البرتغاليين بالعلاقات التى قامت بينها وبين دولة اليعاربة فى عمان ، فقد أدرك أهالى ممبسة أنه من الأفضل ان يحموا أنفسهم من البرتغاليين وذلك بالتجائهم الى قوة كبيرة يعتمدون عليها، ومن ثم كان من الطبيعى أن يلتجئوا الى عمان نظرا للعلاقات الوثيقة التى قامت بينهما وأن يطلبوا من امامها وضع بلادهم تحت حمايته . وكانت هذه خير فرصة انتهزها الامام سيف بن سلطان فبعث بأحد رجاله ويدعى محمد بن سعيد العموري فى عام ١٧٢٨ ليكون نائبا عنه فى حكم ممبسة ، ونجح ذلك الرجل فى اخضاع زنجبار وغيرها من مدن وجزر الساحل فأصبحت من توابع عمان اذ كانت تقوم بدفع الجزية

السنوية اليها ، ولم تلبث أن ظهرت السيادة العمانية بصورة واضحة على الساحل الشرقى لأفريقيا حيث امتدت من مقديشيو شمالا الى خليج دلجادو جنوبا [٥٥] .

وتعد شخصية الأمام سيف بن سلطان من أقوى شخصيات الأسرة اليعربية واليه يرجع الفضل فى استقرار الوجود العمانى بشرق أفريقيا ، وقد قال عنه السالمى : حارب النصارى فى جميع الأقطار وعمل لهم مراكب عظيمة فى البحر وعظم جيشه وقوى سلطانه ، وأخذ من النصارى ممبسة والجزيرة الخضراء وكلوة وباتا وغيرها من البلدان التى بها الزنج ومن البلاد التى بالهند[٥٦] .

وبهذا اتضح أن شرق أفريقيا أو ساحل الزنج كماكان يسمى يشكل عند اليعاربة العمانيين أهمية كبرى فى بناء دولتهم سواء فى الخليج العربى أو خارجه ، وترجع هذه الأهمية الى عاملين هما :

أولا : استقرار الوجود البرتغالى وتشكيله لتحد سافر للوجود العربى الاسلامى على السواحل الشرقية الأفريقية .

ثانيا : الروابط الوثيقة التى ظلت تربط العرب المسلمين فى شرق أفريقيا باخوانهم فى عمان والتى لم تنقطع فى أى وقت سواء قبل مجىء البرتغاليين الى هذه البلاد أو بعد مد نفوذهم عليها [٥٧] .

ومن ثم ماكادت السيطرة البرتغالية تنتهى فى ساحل الزنج حتى أخذت السيطرة العمانية تتوطد ، فقد عين الأمام سيف بن سلطان على هذه الجهات بعض الأسر العربية للحكم باسمة ، فعين أسرة الحارث على جزيرة زنجبار ، وأسرة النبهانى لحكم بات ، « وأسرة العمورى » لحكم ممبسة وتلتها أسرة المزروعى [٥٨] .

ويعتقد المؤرخـون ان سقوط ممبسـة بصفة خاصـة فى يد العمانيين عام ١٦٩٨ م باستخلاصها من البرتغاليين كان من الممكن أن يؤدى بالامـام سيف بن سلطان الذى تولى الامامة عام ١٦٩٢ م الى تأسيس امبراطورية عربيـة عمانيـة على أنقاض امبراطورية البرتغاليين ، ويبدو أن تلـك الفكرة قد داعبت خياله فى يوم من الايام ، ولكن ضعف مركزه فى الداخل — داخل السلطنة جعله يهمل تنفيـذ ذلك المشروع ، وبذلك تأخـر تأسيس الامبراطورية العربية الى نيف ومائة عام حينما قام بها سعيد بن سلطان البوسعيدى الـذى حكم من عام ١٨٠٦ الى عام ١٨٥٦ م (٥٩) .

ولكن سيطرة عمـان فى عهـد اليعاربة على ساحل شرق آفريقيا كانت سيطرة اسمية اذ أن المشكلات التى واجهتها الدولة فى عمـان نفسها ، وهى الصراع على السلطة ، جعل سيادة اليعاربة على سـاحل الزنج «اسمية» . حيث لم يكن لـدى الائمـة الوقت الذى يتمكنون فيه من تفقـد المـدن الخاضعة لهم فى شرق أفريقيا ، وكان الصراع على الحكم سببا من أسباب تفكك الدولة اليعربية وانهيارها فى عمان وشرق أفريقيا أيضا ، هذا الى جانب صراع اليعاربة مع البرتغاليين فى الخليج العربى والشرق الأفريقى ، ممـا أنهك قواها وأضعف نفوذهـا وأنهى سيادتها فى شرق أفريقيا (٦٠) .

وقد اعتبر الكثير من المؤرخين أنه كان فى تولى محمـد بن عثمـان المزروعى الحكم فى ممبسـة تحت السيادة اليعربيـة العمانية ، بدايـة النهاية للسيطرة اليعربية فى شرق أفريقيا ذلك أن الخـلاف اشتد فى عمان نفسها بعد وفاة الامام سلطان بن سيف عام ١٧٤١ م . مما أدى الى نشوب الحرب الأهلية بين قبائل الهناوية والغافرية ، أى بين عرب الجنوب وعرب الشمـال ممـا أدى بالامـام الى الاستعانـة بالفـرس ضـد منافسيه على الامـامة ، ولكن الفرس كانت لهم أطماع أخرى غير انقـاذ الامامـة ، وقـد أدرك الامـام تلك الأطماع ممـا دعاه الى الانزواء فى الرستاق « عاصمته الدينية الى أن مات ، وبقيت « صحار » فقط تقـاوم

الحكم الفارسى ، واستطاع حاكمها فيمـــا بعد أن يؤسس دولة تعتبر من أقوى الدول التى حكمت عمـــان وشرق أفريقيا وهى دولة البوسعيد [٦١] .

وقد استفاد محمد بن عثمان المزروعى من سقوط حـــكم اليعاربة فى عمان لكى يعلن انفصاله عن عمـــان بدعوى بأنه مازال على ولائه لليعاربة ويرفض التبعية لأحمـــد بن سعيد البوسعيدى ، وقد نجح المزروعى فى اثارة العديد من المـــدن الإفريقية وأقنعها برفض تبعيتها للحكم الجديد فى عمان، الا أنه فشل مع مـــدن وجزر أخرى ظلت على ولائها لعمـــان تحت حـــكم البوسعيديين مثل زنجبار « وبات » « وكلوة » « وبركـــة » [٦٢] .

ونتســـاءل عن التأثير الحضارى لليعاربة العمانيين فى شرق أفريقيا ؟

نستطيع أن نقول أن التأثير الحضـــارى العـــربى الاســـلامى فى الساحل الإفريقى الشرقى فى عهـــد اليعاربة العمانيين قـــد تضاءل لعوامل سبقت الاشارة اليها كانشغال اليعاربة بالقضايا الداخلية فى عمان ذاتها ، وصراع اليعاربة مع البرتغاليين ســـواء فى الخليج أو فى المحيط الهندى أو فى ســـاحل أفريقيا الشرقى ، الى جانب سيطرة البرتغاليين على ســـاحل شرق أفريقيا ، ممـــا يؤدى الى عـــدم ازدهار الحضـــارة العربية الاسلامية بشرق أفريقيا فى عهـــد اليعاربة .

الا أن احلال السيادة العمانية بدلا من السيطرة البرتغالية فى عهـــد اليعاربة فى ســـاحل أفريقيا الشرقى قـــد أسهم فى عـــودة الازدهـــار الحضـــارى العربى الاســـلامى ، ذلك أن تدخل عرب عمان فى شرق أفريقيا لم يكن عاملا هاما فى القضاء على السيطرة البرتغالية فى ساحل شرق أفريقيا فحسب ، بل ان أهمية هـــذا التدخل تكمن فى أنه أتاح للدين الاسلامى المناخ الصالح للانتشـــار دون عقبات [٦٣] .

اذا كان البرتغاليون قـــد تمكنوا فى خلال المائتى عام التى قضوها

بشرق أفريقيا فى نشر العقيدة المسيحية على المذهب الكاثوليكى الذى يدينون به ، فان سقوط قلعة المسيح البرتغالية فى مدينة « ممبسة » فى ١٤ ديسمبر ١٦٩٨ م فى رأى الكثيرين يعد عاملا هاما لا من حيث القضاء على السيطرة البرتغالية فى شرق أفريقيا فقط وانما فى اتاحة فرصة ملائمة لانتشار الاسلام هناك كذلك (٦٤) .

ورغم هذه الظروف التى أحاطت بساحل شرق أفريقيا فى عهد اليعاربة العمانيين فقد امتدت مظاهر الحضارة العربية التى وضعت أسسها قبل مجىء البرتغاليين . فالى جانب التجارة ــ وان صارت محدودة فى نشاطها ــ استمر العرب يزرعون ويعلمون الأفارقة الزراعة فغرسوا عددا لايحصى من أشجار جزيرة العرب وفارس مثل المانجو والرمان والاترج وقصب السكر وأدخلوا زراعة القطن والسمسم الهندى والبهارات الهندية والأرز وأتوا بكثير من حيوانات بلدانهم كالإبل . ومن ثم بقيت المدنية الاسلامية قرونا طويلة فى هذه السواحل حتى أدخلها العرب الى الداخل فى القرن التاسع عشر (٦٥) .

وخلاصة القول ان الحضارة العربية الاسلامية استمرت فى ساحل شرق أفريقيا رغم محاولات البرتغال طمسها ، وكان لهذه الحضارة سند قوى فى العمانيين سواء قبل اليعاربة أو أثناء حكمهم لعمان وشرق أفريقيا .

ولايمكن التقليل مثلا من تعويد الأفارقة على الزراعة والاستقرار وبناء المساكن الحديثة وتعلم اللغة العربية وحفظ القرآن الكريم واعتناق الدين الاسلامى لأن ذلك التعود قد خلق تماسكا عربيا أفريقيا ظهر بوضوح حينما خاض العرب والأفارقة كفاحا مشتركا لتحرير سواحل هذه المنطقة من شرق أفريقيا ، وأعنى بها ساحل الزنج ، من الغزو البرتغالى ، ونتيجة للمحاولات الدائبة التى بذلها البرتغاليون لاستعادة سيطرتهم على المنطقة قدر لسكان الساحل الشرقى من أفريقيا أهمية

التجائهم الى عمـان لحمايتهم من البرتغاليين ، حيث تم وضع الاســاس لحكم عربى امتد على جزء كبير من سواحل شرق أفريقيا (٦٦) .

شرق أفريقيا فى عهـد البوسعيديين

بدأ حـكم السادة البوسعيديين بأولهم أحمـد بن سعيد فى عــام ١١٥٤ هـ الموافق ١٧٤١ م والذى اتخذ من مدينة الرستاق « باقليم عمان عاصمة له » ، وخلفه ابنه « سعيد بن أحمد » منذ عام ١١٩٨ هـ الموافق ١٧٨٣ م ــ وهو عام وفاة الامام أحمـد ــ وقد بقيت مدينـة « الرستاق» عاصمـة الدولة فى عهـده أيضا ، وعند وفاته عــام ١٢٠٣ هـ الموافــق ١٧٨٩ م . ــ خلفه ابنه السيد حمد بن سعيد « حيث نقل العاصمة إلى مدينة مسقط » وعقبه تولى السيد « سلطان بن أحمد » من عام ١٢٠٦ هـ الموافق ١٧٩٢ م ، ثم خلفه السيد « بدر بن سيف » عام ١٢١٩ هـ الموافق ١٨٠٤ م ، ثم كان أعظمهم السيد « سعيد بن سلطان » الذى حكم مــن عــام ١٢٢٢ هـ الموافق ١٨٠٦ م (٦٧) .

وقــد واجهت دولة البوسعيد منذ نشأتها عــدة صعوبات ســواء فى عمان أو فى شرق أفريقيا ، فبينمــا ظهرت بعض المنازعات القبلية فى عمــان واستمرت فى عهد الامام « أحمد بن سعيد » وفى عهــد أبنائه ظهرت حركات انفصالية فى ممتلكات عمان الأفريقية فى (ممبســة) «وبات» و « مقديشيو » ، وبقية المــدن الواقعة فى الجنوب ، بينما بقيت كل من « زنجبــار » « ومركــة » و « كلوة » على ولائهــا لعمــان وللســادة البوسعيديين (٦٨) ، ومن هنا دار صراع طويل مرير من أجل تأكيد السيطرة العمانية فى ســاحل الزنج وقــد تم ذلك على يد السيد « سعيد بن سلطان»

ورغم ضعف السيادة العمانية على شرق أفريقيا قبل عهــد الســيد

سعيد بن سلطان » فقد حرص السادة البوسعيديون على انعاش العلاقات التجارية بين عمان وشرق أفريقيا ومن ذلك أن الامام أحمد بن سعيد اكتفى بالعمل على تشجيع التجارة واستمرارها بين عمان وشرق أفريقيا ؛ فكان يرسل كل عام مجموعة من سفنه لتأتى له بالموارد الأفريقية من المقاطعات التى كانت تعترف له بالسيادة ، أما المقاطعات التى لم تعترف بسيادته فقد حرص على ألا يفرض سيادته عليها بالقوة خوفا من انقطاع الصلات التجارية بينها وبين عمان (٦٩) .

وعندما تولى سلطان بن أحمد اتجه الى تركيز السيطرة والسيادة العمانية الفعلية على مدن وجزر الساحل الافريقى بما كان يمتلكه من قوة بحرية تكونت من ٥٠٠ (خمسمائة) سفينة تتراوح حمولتها بين ٢٥٠ (مائتان وخمسين) الى ١٠٠٠ (ألف) طن عدا مائة ١٠٠ سفينة أخرى يمتلكها أهل « صور » . أما السفن الكبيرة المخصصة للحرب فلم تزد عن ثلاث ، ومن الطبيعى فى مثل هذه الظروف أن تنمو العلاقات بين مسقط وبين العالم الخارجى (٧٠) .

وعندما تولى السلطنة السيد سعيد بن سلطان من عام ١٨٠٦ — ١٨٥٦ م الموافق ١٢٢٢ الى ١٢٧٣ هـ (٧١) ، شهد المحيط الهندى قيام دولة عربية أفريقية كبرى امتدت من عمان الى شرق أفريقيا فى زنجبار أو ساحل الزنج ، والى شخصية سعيد يرجع الفضل فى ذلك ، حيث كان حاكما عظيما فرض شخصيته على مسرح الحكم ، ووصفه أحد مترجميه بأنه استطاع بفضل العون الربانى الذى تفضل الله به عليه أن يخضع ملوك عصره ، وأن ينال العزة فى حروب خاضها ضد أعدائه ؛ ففتح بالسيف بلاداً لم تكن معروفة وشق الطريق فوق هامات العصاه المقطوعة (٧٢) .

وكانت له مطامح كبيرة تمتد من منطقة الخليج العربى وجنوب ايران الى ساحل أفريقيا الشرقى وجزيرة مدغشقر ، فهو لم يكن شخصية

عادية ومن ثم استحق ما أطلقه عليه المؤرخون من صفات تصفه وتصف عصره فى عمــان وشرق أفريقيا بأن عصره يعتبر من أزهى العصور التى مرت بعمان وشرق أفريقيا خلال القرن التاسع عشر ان لم يكن أكثرهـــا ازدهارا رغم الصعوبات الكثيرة التى واجهته فى بناء الدولة •

وأما صفاته فى رأى المؤرخين فانه اعتبر بلا شــك أبرز الشخصيات فى أسرة البوسعيد التى لعبت دورا بارزا فى تاريخ عمان وشرق أفريقيا ، ولا نكون مبالغين اذا اعتبرناه من الشخصيات الهامــة جــدا فى تاريخ العرب الحديث والمعاصر (٧٣) •

وقد اشتهر السيد سعيد بأنه « السيد البحار » اذ ســافر مسافات كبيرة فى البحر وكانت لديه شخصيا حوالى عشرين سفينة يستخدمها فى تجارته الخاصــة ، وكان يشعر بسعادة كبيرة وهو يقود سفينته التى تتقدم الأسطول والتى كانت تسمى « شاه علم » فلاعجب أن يولى اهتمامه بقوات السلطنة البحرية الكبيرة (٧٤) •

ونظرا لقوة السيد سعيد وقوة سلطنته فى عهده فقد اهتم بشرق أفريقيا، بل انه نقل عاصمة حكمه من مسقط الى جزيرة زنجبار عام ١٨٣٢ م ؛ وان جاءت اقامته الدائمــة فى زنجبار العاصمة الجديدة فى عام ١٨٤٠ م ، اذ ظل من عام ١٨٣٢ الى عام ١٨٤٠ م • متنقلا بين مسقط وزنجبار • ولاشك أن هناك دوافع كثيرة دفعت به الى الانتقال من مسقط الى زنجبار ، من ذلك أهمية جزيرة زنجبار باعتبارها مركزا وسيطا للتجارة وعمليات التبادل التجارى لمقاطعات الشرق الأفريقى هــذا فضــلا عما تتمتع به جزيرة زنجبار وغيرها من جزر ومقاطعات شرق أفريقيا من موارد كثيرة (٧٥) •

كانت هناك دوافع أخرى وراء انتقال السيد سعيد الى زنجبار ، منها أن جزيرة زنجبار تمتلىء بالتجار العرب الذين ينقلون منتجات شرق أفريقيا الى بلادهم أوالى البلاد التى تطلبها ، كما أن السيد سعيد أراد أن يؤكــد

نفوذه على منطقة الشرق الأفريقى وهذا أمر سهل له بعد العناء الذى واجهه فى توطيد نفوذه فى عمان ، وقد نجح فى تأكيد نفوذه على ساحل الزنج بأكمله بالقضاء دون كبير عناء على كل المناوئين لمشروعاته ، وبانتقاله الى زنجبار نبدأ المؤثرات الفعالة فى تاريخ زنجبار وشرق أفريقيا بصفة عامة ، ووضع الأسس السياسية والاقتصادية التى سيترتب عليها مركز السلطنة [٧٦] •

وقد وفد مع السيد سعيد الى زنجبار مئات من عرب عمان والجزيرة العربية وبهم وبمن سبقهم من عرب وضحت المؤثرات الحضارية التى لم تتوقف على أرض جزيرة زنجبار أو — ساحل الزنج فقط بل وضحت فى داخل القارة وامتدت الى حوض نهر الكنغو • وقد تزايد عدد السكان العرب تزايدا مطردا خلال عهـــد السلطنة العربية . وكان عرب زنجبار يشكلون الطبقة الارستقراطية ، اذ كانت تقع فى أيديهم ملكية أكثر الأراضى . ويبدو أن السيد سعيد حرص على أن يكون للعرب ذلك المركز الممتاز اذ تعمد أن يأخذ معه عند انتقاله الى زنجبار أغنياء العرب وأثرياء التجار [٧٧] •

وكان تزايد السكان العرب فى زنجبار مرتبطا أشـــد الارتباط بموسم هبوب الرياح الموسمية الشمالية الشرقية . حيث تصبح جزيرة زنجبار ملأى بالتجار العرب الذين كانوا يفدون اليها من ســـواحل الخليج والجزيرة العربية ، وكان يستتبع ذلك انتعاش الحركة التجارية ، اذ تصبح كثير من مقاطعات الشرق الأفريقى فى موسم رائج من الحياة والمعاملات ، وكان أكثر هؤلاء العرب هم عرب عمان الذين ازدهرت بهم السلطنة العربية فى زنجبار بعد قدومهم اليها [٧٨] •

والآن نتساءل عما فعلته السلطنة العربية العمانية البوسعيدية بالنسبة للبناء الحضارى فى شرق أفريقيا ؟

للإجابة على هذا التساؤل ســـوف نتناول النقطتين التاليتين :

١ — التأثيرات العربية فى ساحل أفريقيا الشرقى •

٢ — التأثيرات العربية فى الداخل •

أولا : التأثيرات العربية فى ساحل أفريقيا الشرقى :

يرجع الى السلطنة العربية بشرق أفريقيا فى عهد السيد سعيد وخلفائه من بعده الفضل فى النهوض بالزراعة ، والمعروف أن تعويد الأفارقة على العمل بالزراعة تعويد لهم على الاستقرار ، والاستقرار أساس هام للبناء الحضارى ، وقد ازدهرت الزراعة فى ساحل الزنج وجزره خاصة جزيرتى « زنجبار » و « بمبا » واشتهر من المزروعات القرنفل وقصب السكر ، حتى أن الجزيرتين المشار اليهما لاتزالان تقومان حتى الوقت الحاضر بامداد العالم بالجزء الأكبر من احتياجاته من القرنفل ، اذ يقدر ماتنتجه الجزيرتان من القرنفل بحوالى ٩٠٪ من الانتاج العالمى من هذا المحصول •

وحظيت التجارة بالاهتمام الاكبر للسلطنة العربية بشرق أفريقيا ، ولا عجب فى ذلك فان سلاطين البوسعيد اعتمدوا الاعتماد الاكبر على التجارة فى بناء السلطنة اقتصاديا بل وسياسيا وسيطروا بذلك على المحيط الهندى وساحل أفريقيا الشرقى بل وداخل القارة الافريقية حتى حوض نهر الكنغو ، وقد عمل العرب فى عمليات النقل البحرى وتسيير القوافل التجارية على الساحل وانشاء المراكز التجارية على الأرض الأفريقية وهذه كلها وسائل حضارية تشع على من يرتبط بها ويحتك بها •

وفى هذا المقام فقد حرصت السلطنة العربية العمانية البوسعيدية على تحقيق اتصال بين اقتصاد شرق أفريقيا والاقتصاد العالمى عن طريق مجموعة من المعاهدات والاتفاقيات التجارية التى عقدها بعض السلاطين مع كل من الولايات المتحدة الأمريكية وبعض الدول الأوربية مثل انجلترا وفرنسا وبعض الامارات الألمانية (٧٩) ، وكل هذه — المعاهدات قامت على أساس اعطاء الافضلية الأولى للدولة الأخرى •

وكان تطوير الشق الأفريقى من سلطنة عمان فى عهد السيد سعيد

بن سلطان عامل جــذب للقــوى الأجنبية فى العالم لدى تسعى الى تقوية علاقتها بالسلطنة ككل تحصل على متجر فى شرق أفريقيا بصفة خاصة ؛ وكانت الولايات المتحدة الأمريكية أهم القوى الأجنبية وأكثرها الى فتــح أســواق زنجبار أمام التجار الأمريكيين لبيع المنتجات والسلع الأمريكية من ناحية ولشراء المنتجات والسلع المنتجــة فى الشق الأفريقى من سلطنة عمــان من ناحية أخرى •

وقد تم توقيع الاتفاقية التجارية بين سلطنة عمــان والولايات المتحدة الأمريكية فى ٢١ سبتمبر ١٨٣٣ م ، وكانت أول اتفاقية تجارية يعقدهــا السيد سعيد بن سلطان مع دولة كبرى ، وقد صارت تلك الاتفاقية المثل الذى سارت على منواله معاهدات السلطنة مع كل من بريطانيا عام ١٨٣٩ م ومع فرنســا ١٨٤٤ م • وقد ظلت الاتفاقية الأمريكية العمانية ســارية المفعول حتى عام ١٩٥٨ م حين أبطل مفعولها واستبدلت بمعاهــدة جديدة للصــداقة الاقتصادية والحقوق القنصلية بين الطرفين •

وقد جعلت الاتفاقية التجاريه العمانية الأمريكية السيد « سعيد بن سلطان » يشعر بأهميته وبقدرته على الدخول فى اتفاقية كبرى ، وبأنه قادر على عقــد اتفاقية مع دولة تشعره بالندية ويستند اليها فى مواجهة القوى الكبرى خاصة انجلترا وفرنســا فى تحقيق نفع له ولسلطنته تكسبه مكانة دولية وتكسب السلطنة اعترافا دوليا •

وعلى الجانب الأمريكى فقــد كان وقع الاتفاقية عند الرئيس أندرو جاكســون والمسئولين الأمريكيين طيبا ، حيث أصبحت الولايات المتحــدة الأمريكية مرتبطة بصداقة احدى القوى ــ الآسيوية الأفريقية التى تفخر بامتلاكها أسطولا أكبــر من الأسطــول الامريكى ، اذ كــان أسطــول السلطنة مكونا من حوالى ٧٥ سفينة مختلفة الأحجــام كل منها مزودة بعدد من المدافع بين أربعة مدافع وستة وخمسون مدفعا ، كمــا أن السفن

العمانيه التجارية ــ وكما لاحظها المبعوث الأمريكى الى زنجبار « روبرتس » تبحر شرف الى الهند وسيلان وجاوة الى جانب موانى شرق أفريقيا •

وقد أدت الاتفاقية الأمريكية العمانية التجارية الى ازدهار التجــارة الأمريكية فى ممتلكات السلطنة الأفريقية أكثر من ازدهارها فى مقر السلطنة بمسقط ، أذ تزايد عدد السفن الأمريكية التى ترسو فى زنجبار والتى تحمل تماشا قطنيا أمريكيا متينا سرعان ماشاع استعماله فى شرق افريقيا والخليج العربى والجزيرة العربية • الى جانب الملاءات والشراشف القطنية والآنية المنزلية والبنادق والبارود ومخزونات السفن والساعات والأحذية . وفى المقابل تحمل من زنجبار القرنفل والعاج وصمغ الكوبال الراتينجى الــذى يستخدم فى تحضير الطلاء ولب جوز الهند المجفف والتوابل (٨٠) •

وكان هــدف السيد سعيد بن سلطان من عقد معاهدات مع الدول الأجنبية الى جانب ما سبق أن ذكرناه هــو تنمية موارد شرق أفريقيــا وأستغلال امكانيات هذه المناطق ، ومن ثم إنشاء امبراطورية عربية بشرق أفريقيا ، وان حال دون ذلك ظهــور المطامع الأوربية لاستغلال وامتلاك أراض فى آفريقيا وخاصــة فى الجانب الشرقى منها ، ومن ثم زحف على هذا الجانب رجال الاستعمار الأوروبى من مستكشفين ومبشرين وتجار •

ومهما يكن فقد نجح الســيد سعيد بن سلطان فى أن يترك بصماته الحضارية فى زنجبار ، ومعروف أن شهرة السيد سعيد فى العالم الخارجى انمــا ترجع الى حكمه فى زنجبار أكثر مما ترجع الى حكمــه فى عمان ، ولاشك أن النواحى الاقتصادية وما يتبعها من حركــة مرور القوافل بين الداخل والساحل كانت من أبرز ما تميزت به سلطنة زنجبار ، كما كانت سلطنة زنجبار فى عهده ، وفى عهد خلفائه من بعده عاملا هاما فى ادخال المؤثرات الحضارية الى مجاهل القارة الأفريقية(٨١) •

ثانيا : التأثيرات العربية داخل أفريقيا :

. لبيان التأثيرات العربية والاسلامية التى كان للعمانيين وسلطنتهم البوسعيدية فى زنجبار الدور الأكبر فى وجودها ، ولتفصيل ذلك علينا أن نتناول النقاط التالية :

١ — المراكز العربية داخل أفريقيا •
٢ — امتداد السلطنة حتى الكنغو •
٣ — مساعدة المستكشفين الأوروبيين •
٤ — الدور المصرى والدور العمانى فى شرق أفريقيا •

١ — المراكز العربية داخـل أفريقيا :

رغم وجود السلطنة العربية العمانية البوسعيدية فى شرق أفريقيا فان العرب الذين توغلوا داخل القارة التجارة وكونوا جاليات متناثرة فى هذه المناطق حتى حوض نهر الكنغو لم يعتنوا باقامة كيانات سياسية تخضع تلك البلاد وأهلها لتنظيمات سياسية أو تلحقها بالسلطنة العربيـة عـلى الساحل ، وقد اختلف العرب فى ذلك عن الأوروبيين الذين كان رجالهم يضعون أيديهم على مساحات كبيرة من الأراضى يحكمونها ويضعون فيها حاميات عسكرية وينشئون فيها قلاعا مسلحة ، ويستغلون الأهالى والأراضى ويحتكرون تجارتها وهم يستندون فى نشاطهم هذا الى تأييد دولهم القوية وحمايتهـا (٨٣) •

واذا كانت الجماعات العربية داخل أفريقيا قد أهملت اقامة نظـم سياسية — امارات أو سلطنات أو ممالك — فانها نجحت فى اقامة تنظيمات تجارية بايجاد خطوط منتظمة من القوافل تصـل بين ساحل أفريقيا الشرقى والداخل وأصبحت زنجبار بمثابة المركز الرئيسى للتجارة • وعن طريق رحلات العرب الى الداخل وتأمين طرق القوافل بين الساحل والداخـل

والعكس ظهــرت محطات ومستوطنات عربية عديدة على طــول الخطوط التجاريه التى كانت تطرقها قوافل التجارة العربية .

وقد نجحت القوافل التجاريه أن تمد نشاطها من الســاحل باتجاه الداخل حيث وصلت الى وسط وغرب أفريقيا ، اذا وصلت هذه القوافــل الى المناطق التى بها بحيرات وسط أفريقيا مثل « نياسا » و « تنجانيقا » و « فيكتوريا نيانزا » كمــا وصلت الى أعالى نهرى النيل والكنغو بحثــا عن العاج ، وكانت هذه الصفة التجارية التى طبعت العرب فى الســـاحل والداخل امتدادا من سلطنة زنجبار قد حالت دون قيام فواصــل حــادة تحدد مــدى اتســاع السلطنة فى الداخل .

كانت المراكز والمستوطنات العربية داخل افريقيا اذن تخضع بصورة أو بأخرى أو مباشرة أو غير مباشرة للسلطنة العمانية البوسعيدية ، وقد سجل لنا التاريخ أن سلطان زنجبار كان يعين حكاما محليين من أهالى البلاد . يدينون له بالتبعية والولاء ، وفى بعض الأحيان يرسل بحكام من العرب أو السواحليين مع حامية قليلة العدد يعمل الحكام على زيادة عددها باستخدام السكان المحليين بحيث يتم حفظ نفوذ السلطان وسيطرته .

وقد ساعدت تلك المراكز والمستوطنات فى عملية التبادل التجارى ، ومن ثم نشطت حركة القوافل واذدهرت المراكز والمستوطنات من النواحى الاقتصادية والعمرانية أو بمعنى أكبر من الناحية الحضارية بصورة لفتت انتباه المستكشفين الأوروبيين ، وقد شجع على ذلك استقرار الأمر فى هذه المناطق الداخلية المرتبطة بنفوذ سلطنة زنجبار ، كما ساعد عليه أيضا أن السلطنة لم تفرض مكوســا عالية على التجارة بين الســاحل والداخــل وانما جعلت هذه المكوس قليلة جدا ، وذلك ايمانا من السلطنة بأهمية التبادل التجارى فى البناء الحضارى لتلك المنطقة .

وقد ارتبط بالنشاط الاقتصادى داخل أفريقيا اتساع نفوذ سلطنة زنجبار العربية العمانية البوسعيدية فى تلك الأصقاع سواء على الساحل أو فى الداخل ، فنجد السلطنة فى عهد السيد سعيد بن سلطان على سبيل المثال تسيطر على الساحل الشرقى لأفريقيا لمسافة قدرت بأكثر من (١٦٠٠كم) ألف وستمائة كليو متر ممتدة من مدينة « مقديشيو » شمالا الى مدينة « سفالة » جنوبا ، كما امتد نفوذها أيضا داخل القارة حتى وصل الى حوض نهر الكنغو والى أوغندة والى روديسيا .

وقد انتشرت فى كل ممتلكات السلطنة بين الساحل والداخل شبكة من خطوط القوافل التجارية وقد شملت هذه الخطوط كلا من شواطىء بحيرات « نياسا » و « تنجانيقا » و « فيكتوريا » وتحمل معها نفوذ السلطنة السياسى ، بل وشملت أيضا الأجزاء الشرقية من الكنغو ، والمنطقة المحيطة بالبحيرات العظمى بوسط أفريقيا ، حتى قيل : انه حينما يلعب أحد على المزمار فى زنجبار يرقص الناس طربا على البحيرات (٨٣) .

وعلى الرغم من أن سيطرة سلطنة زنجبار العربية العمانية البوسعيدية لم تكن لها سوى سيطرة اسمية داخل أفريقيا خاصة كلما بعدت المستوطنات والمراكز العربية وتوغلت فى الداخل ، الا أن التقارير التى كان يبعث بها الرواد والمبشرون الأوروبيون الى الجمعيات التبشيرية أو الجغرافية الموفدون من قبلها أشارت الى أهمية خطابات التوصية التى كانوا يحرصون على الحصول عليها من سلطان زنجبار لأن عرب الداخل وغيرهم من رؤساء الولايات الأفريقية كانوا يحترمون الأوامر والتعليمات التى تصدر اليهم من حكام السلطنة العربية فى زنجبار (٨٤) .

ومما تجدر ملاحظته أن العرب فى توغلهم داخل أفريقيا صادفوا مجتمعات بدائية كما صادفوا مجتمعات منظمة ، ورغم ذلك فان العرب اهتموا بالنواحى الاقتصادية وان كان بعضهم قد تقلد بعض المناصب

السياسية فى البـلاد الداخلية الا أن السيطرة بقيت فى معظم الأحوال بيد الزعماء الأفارقة • كمـا نلاحظ أن العرب كانوا عنصرا هاما من العناصر التى حملت لواء الحضـارة الى أواسط القارة الأفريقية •

ولأن العرب اهتموا بالتجارة فقـد نظموا قوافل لتبادل السلـع التجارية بين الداخل والسـاحل ، وأقاموا مستودعات لخزن بضائعهم ، ولم يحاولوا فى كثير من الأحيان اخضاع القبائل الأفريقية بالقوة أو التسلط عليهم عن طريق السيطرة على أراضيهم وانمـا حرص العرب على توثيق العلاقات التجارية بينهم وبين زعماء القبائل الأفريقية — والتعامل معهم فى حدود هذه العلاقات • وان كان العرب قد أسهموا عن طريق التجـارة والزراعة التى أدخلوها الى أواسط أفريقيا ، فى أحلال الأمن بدلا من الفوضى والاضطراب وأن كثيرا من قبائل البانتو قنعت بالعيش حـول المراكز التى أنشأها العرب وتحت حمايتهم [٨٥] •

وقد سجل المستكشفون الأوروبيون وغيرهم من المؤرخين الذين اهتموا بشرق أفريقيا كيف أن العرب كانوا أول من حاول استكشاف مناطق شرق وأواسط أفريقيا ، وأن المستكشفين سـاروا فى الخطوط التى خطها العرب لقوافلهم بالأمن الذى ضمنه العرب على طول هذه الخطوط وفى المحطـات والمراكز والمستوطنات سـواء فى « أوجيجى » أو فى بجمايو « أو أوزانجا » أو « طابورة » أو « جازنجا » بل أن أحد التجار العرب المولدين من أب عربى وأم افريقية عرف باسم « سناى بن عامر » سيطر فى عام ١٨٥٢ م على المنطقة الممتدة من « طابورة » الى « كمبالا » فى اقليم « بوغندة » ومما يذكر أن ملك بوغندة قد رحب بالعرب ترحيبا كبيرا واستعان بهم فى التغلب على خصومه ومنافسيه فى مملكة أونيورو [٨٦] •

٢ — امتداد السلطنة الى الكنغو :

ارتبط الوجود العربى فى الكنغو بالمراكز والمستوطنات العربية التى امتدت من ساحل أفريقيا الى الداخل كمـا ارتبط بسلطنة زنجبار العربية

العمانية البوسعيدية ، وارتبط أيضا بشخصية عربية عمانية أكدت هذا الوجود العربى العمانى ودعمته وحققت دورا فى البناء الحضارى العربى فى تلك الجهات . هذه الشخصية عرفها المستكشفون الأوروبيون وعرفها الزعماء الأفارقة فى وسط أفريقيا هو « حميد الدين المرجبى » الذى عرف باسم آخر واشتهر به هو « تيبوتيب » .

وينتمى « حميد الدين » الى قبيلة « المراجبة » العمانية التى رحلت إلى شرق أفريقيا أثناء حكم اليعاربة وساهمت فى تصفية الوجود البرتغالى بساحل الزنج ، وقد ولد حميد الدين أثناء سلطنة السيد سعيد بن سلطان البوسعيدى (بين سنتى ١٨٣٠ ، ١٨٤٠ م) ومن ثم ظهر نشاطه الاقتصادى والسياسى فى عهد خلفاء السيد سعيد وهما « ماجد » و «برغش» ابنى سعيد .

ورغم أن حميد الدين نشط اقتصاديا وسياسيا فى مناطق « أوجيجى » تحت سيادة سلطنة زنجبار العربية ، فان نشاطه فى الكنغو كان أكثر ظهورا وأطول أمدا . اذ شهد عام ١٨٧٠ قيام حميد الدين بقيادة حملة لضم المناطق الواقعة بين فرعين من فروع الكنغو فى مقاطعة « أوتيرا » حيث أخذ يمارس سيطرة سياسية وتجارية مباشرة وضحت فى فرضه الضرائب وقيامه بدور التحكيم فى المنازعات التى تنشب بين القبائل ، كما أعطى لنفسه حق عزل الرؤساء وتعيين الأوصياء ، ومن ثم صارت قوته يحسب لها حسابها فى مقاطعات كثيرة من أواسط أفريقيا [٨٧] .

وقد استعان السيد « برغش بن سعيد » أثناء حكمه للسلطنة فى زنجبار بحميد الدين فى تأكيد نفوذ السلطنة داخل القارة ، خاصة عندما بدأ ملك بلجيكا « ليوبولد الثانى » القيام ببناء مستعمرة شخصية فى حوض نهر الكنغو كعملية فردية أكثر منها عملية قومية يشرف عليها هو كرجل ماهر محب للمغامرة وراغب فى تأسيس تلك المستعمرة الشخصية فى حوض نهر الكنغو تحقق مطامحه الاستعمارية بأسلوب هادىء لا يثير ضجيجا .

وقـــد استعان ليوبولد بالمستكشف الأمريكى الأصـــل الانجليزى الهوية (ستانلى) لكشف حوض نهر الكنغو تحت ستار جمعية الكنغـــو الدولية التى أسسها ليوبولد عام ١٨٧٨ م ، والتى أعقبت مـــا سميت بالجمعية الدولية لكشف وتمدين أفريقيا . وكانت الجمعية الدولية للكنغو تحت رئاســـة وتمويل الملك ليوبولد نفســـه ووكيلها فى أفريقيا ستانلى . الـــذى كان عليه عقـــد معاهدات مع زعماء المنطقة يعترفون فيها بحماية الجمعية الدولية للكنغو حتى تستطيع الجمعية أن تثبت أمام مؤتمر برلين عامى ١٨٨٤ / ١٨٨٥ م أنها مسيطرة بالفعـــل على حوض نهر الكنغـــو كلـــه (٨٨) .

نتيجـــة لنشاط « ستانلى » فى الكنغو خشى السيد « برغش » أن تتحول التجارة فى أواسط أفريقيا من الساحل الشرقى حيث تسيطر سلطنته العربية الى الساحل الغربى حيث سيطرة الملك ليوبولد ، وقـــد طلب من حميد الدين التوســـع فى الكنغو ووسط أفريقيا باســـم سلطنة زنجبـــار العربية ، وقد نجح حميد الدين بالفعل خاصـــة بين عامى ١٨٨٣ و ١٨٨٦ م حيث أكـــد نفوذ السلطنة فى الكنغو وحاول أن يقرن النفـــوذ الاقتصادى للعرب فى تلك الجهات بتنظيم سياسى يتبع السلطنة فى زنجبار ويدين لها بالولاء ونتيجة لمحاولاته هـــذه نجح فى السيطرة على معظم مقاطعات الكنغو وعين وكـــلاء للعمل فى هـــذه المناطق لاقرار الامن وتحصيل الضرائب من القبائل التى تدين له وللسلطنة بالولاء (٨٩) .

ولكن حميـــد الدين تعرض للمؤامرات الاستعمارية كمـــا تعرضت سلطنة زنجبار لها فبينما اعترف مؤتمر برلين فى قراراته التى صدرت فى ٢٦ فبراير ١٨٨٥ م بحياد الكنغو وسلطة بلجيكا عليه ، واقرار مبدأ حرية التجارة والملاحـــة — للأوروبيين بالطبع فى حـــوض نهر الكنغو الواقع تحت المطامع البلجيكية (٩٠) ، بدأت انجلترا تضغط على سلطنة زنجبـــار العربية من أجل تقليص الوجـــود والسلطة العربية بشرق أفريقيا واقتسام

ممتلكات السلطنة على الساحل وفى الداخل ، تلك العملية التى حدثت بالتعاون بين انجلترا وألمانيا عام ١٨٨٦ م ٠

وقد أدرك السلطان « برغش » قرب وقوع مؤامرة اقتسام ممتلكات السلطنة فى شرق أفريقيا قبل وقوعها بعشر سنوات (عام ١٨٧٦ م) حيث عرف القوى التى تسعى للوثوب على شرق أفريقيا ، وعرف أن عبارات (الانفتاح) « والتمدين » « والتنمية » التى يطلقها الأوروبيون ، كهدف يسعون اليه بالنسبة لتلك المناطق الأفريقية ، عن طريق رجالهم من علماء ومستكشفين ورجال أعمال ، انما هى ادعاءات تقوم على أن « تمدين » تلك المناطق الأفريقية المتخلفة أمر واجب نحو أهلها ، وأنه اذا لم يكن السلطان العربى — برغش — قادرا على حماية تلك المناطق فان دولة أوروبية أو أخرى على استعداد لبذل التضحيات لتحقيق ذلك الادعاء ٠

ونتيجة للمؤامرات الاستعمارية فى الكنغو وفى شرق أفريقيا على حساب سلطنة زنجبار العربية تقلص نشاط حميد الدين المرجبى فى الكنغو ووسط أفريقيا ، بل انه قد فقد سنده الأكبر ، وأعنى به سلطنة زنجبار ، التى تقلص نفوذها منذ عام ١٨٨٦ م ٠ . ومع ذلك فقد حاول الاحتفاظ بالوجود العربى فى الكنغو أمام ضغط دولة الكنغو الحرة ، وقد اضطر للتعاون مع هذه الدولة عام ١٨٨٧ م وقبل وظيفة حاكم عام على الكنغو بمرتب ثلاثين جنيها شهريا على أن يرفع علما خاصا وأن يوافق على قبول موظف بلجيكى يعاونه فى مباشرة اتصالاته الخارجية[٩١] ، وفى مقابل ذلك يقدم حميد الدين مساعداته لحملة ستانلى المتوجهة لانقاذ أمين باشا حاكم مديرية خط الاستواء السودانية ٠

ورغم أن البلجيك مالبثوا أن عزلوا حميد الدين من وظيفته وقضوا على حركة أنصاره واستولوا على تجارته ومراكزه ، فانهم أى البلجيك استفادوا من سياسة حميد الدين فى تلك المناطق . حيث أخضع القبائل

العربية والأفريقية والمناوئة ، كما استفادوا من سياسته فى انشاء كثير من الأعمال العمرانية كمد السكك الحديدية وانشاء الطرق . واتباع نظام دقيق للنقل النهرى . والاستفادة من التقدم المادى الذى أحرزه العرب . وان كان العرب قد فقدوا بعزل حميد الدين وانتقاله الى زنجبار حيث توفى ودفن هناك ، دورهم المجيد الذى قاموا به فى الكنغو ليحل محله دور الاستعمار الأوروبى ببعثاته التبشيرية ورجال أعماله المستغلين .

ولا ينتهى حديثنا عن دور العرب والعمانيين منهم بصفة خاصة فى الكنغو دون أن نبرز تأثيراتهم الحضارية فى تلك الجهات . فيذكر الأمير شكيب أرسلان على لسان أحد الكتاب البلجيكيين الذين زاروا الكنغو وأحسوا بالتأثيرات العربية هناك حتى بعد انتهاء دولة حميد الدين . أن التجار العرب مازالوا أكبر التجار هناك ولهم علاقات مع عرب زنجبار وعرب أوغندة وعرب المستعمرات الألمانية بشرق أفريقيا ، وأن العنصر العربى لايزال عظيما فى جهات « كاسونجو » حيث ترى العرب يلبسون جببا بيضاء ويتلفعون بكوفيات مطرزة تطريزا بديعا ، سيماهم تدل على الكرامة والوقار ، وحركاتهم وسكناتهم مقرونة بالأدب التام والكياسة المتناهية والرصانة الفائقة (٩٢) .

ويضيف الأمير شكيب أرسلان مسجلا تقرير الكاتب البلجيكى عن الحضارة العربية فى الكنغو بأن أبواب المنازل وشبابيكها كلها منقوشة وعلى الأبواب كتابات عربية هى آيات من القرآن الكريم ، والمدن جميلة ونظيفة والمسحة العربية بادية عليها . وعادات العرب فى الكرم واضحة ويقدمون القهوة العربية ، وقد لاحظ الكاتب البلجيكى أن هناك عربا خلص ومستعربين وهناك أيضا سواحليون سماهم زنجباريين (٩٣) .

وسجل الامير شكيب أرسلان أيضا رواية سجلها رحالة سويدى زار الكنغو عام ١٨٨٦ م . وتجول فى مدينة « يناجوا » : فذكر أنها مقر

العرب الأصلى وبها أفخر المزارع وجميع الأشجار المثمرة مجلوبة من أفريقية الشرقية ، واتخذ العرب فيها كذلك المواشى والحمير الفارهة للركوب •

وأضاف أن هناك نهرا يتفرع من نهر الكنغو ويمتد نحو ٣١٥ كيلو مترا وعلى جانبيه توجد قرى يسكنها عرب ومستعربون : ووصف العرب بالنظافة والاتقان فى العمل . وأن المستعمرين والعبيد الذين يخدمونهم يشكلون قرى نظيفة تحيط بها مزارع أرز • واسعة ، وهناك (كتأتيب) تعلم الصبية القرآن الكريم ، والأهالى العرب عنصر جيد فى الكنغو لأنهم قائمون بالزراعة مدنيون (متحضرون) بطبعهم ولديهم ميل الى التعامل مع الجنس الأبيض أى الأوروبيين ، ويبيعون سلعهم فى الأسواق التى تنتشر فى المدن الكونجولية ، وقد تعامل معهم فى مدن « ستانلى فيل » « وبونتيارفيل» و « لوكاندوا » و « كيروندو » ، وغيرها [٩٤] •

٣ ــ مساعدة المستكشفين الأوروبيين :

يمثل الاتجاه لاستكشاف أفريقيا مرحلة هامة فى استعمار القارة الأفريقية ، وقد استفاد المستكشفون الأوروبيون من التقدم العلمى والطبى والأوروبى فى اتمام عملية الكشف التى استغرقت حوالى قرن من الزمان تقريبا من عام ١٧٧٠ م الى ١٨٧٥ م حيث تم فى هذا العام الأخير اكتشاف جميع أحواض أنهار أفريقيا . ومن ثم تمهد الطريق أمام الدول الأوروبية لاستعمار القارة •

وكانت الدول الأوروبية والشركات التجارية الأوروبية والكنيسة المسيحية وراء المستكشفين الذين ارتادوا أفريقيا لاستجلاء الغموض المحيط بهذه القارة ، ولمعرفة مسالكها ودروبها ومصادر خيراتها ولنشر الديانة المسيحية بين أهلها ، ولكن يجب أن ندرك أن هذه المعرفة قد أفادت فى المقام الأل قوى الاستعمار الأوروبى [٩٥] •

وقد حظى الجانب الشرقى من أفريقيا باهتمام المستكشفين والمبشرين الذين كان غالبيتهم من الانجليز ، وذلك منذ أن نزل « جيمس بروس » الانجليزى فى الحبشة عام ١٧٧٠ م واكتشف بحيرة تانا وخروج النيل الأزرق منها .

ولقد لقى هؤلاء المستكشفون والمبشرون الأوروبيون من السلطنة العربية العمانية البوسعيدية كل عناية ومساعدة ، فكان السيد سعيد على سبيل المثال يبعث هؤلاء الأوروبيين بخطابات توصية للرؤساء التابعين له فى الداخل لكى يعاملوهم أحسن المعاملة ويساعدوهم فى تحويل الوثنيين الى معرفة الله .

وقد نجح العديد من المبشرين فى تأسيس مراكز تبشيرية فى الداخل ، كذلك نجحت احدى البعثات التبشيرية الفرنسية فى تأسيس مستشفى ومدرستين لتعليم أبناء الزنوج من المقاطعات التابعة لسلطنة زنجبار ، كما حذا الانجليز حذو الفرنسيين فى ممارسة بعض أنواع من النشاط التبشيرى [٩٦] .

كما أن كلا من « رينشارد بيرتون » و « سبيك » وهما بريطانيان ، أشادوا بمعاملة السيد سعيد بن سلطان لهما وتقديمه المساعدات التى كفلت لهما بدء رحلتهما الاستكشافية فى شرق أفريقيا عام ١٨٥٦ م حيث بدأ رحلتهما من ساحل أفريقيا الشرقى المواجه لزنجبار باتجاه منابع نهر النيل العليا [٩٧] ، وفى مدينة ممبسة وغيرها من المدن التى تخضع لنفوذ العرب وقد جمعا معلومات عن جبال كينيا المعروفة بالقمم الثلجية وعن البحيرة العظمى التى أطلق عليها فيما بعد بحيرة فيكتوريا نيانزا ، وغيرها من بحيرات وسط أفريقيا مثل « تنجانيقا » و « نياسا » .

وقد عاد المستكشفان البريطانيان « بيرتون وسبيك » مرة أخرى الى شرق أفريقيا عام ١٨٦٠ م ، حيث أمدتها السلطنة العربية العمانية

البوسعيدية فى زنجبار بقوة عسكرية لحمايتهما كما آمدتها ببعض الأدلاء العرب الذين يعرفون مسالك ودروب مناطق شرق أفريقيا ، وقد وصلا الى « أوجيجى » على بحيرة « تنجانيقا » التى كانت من أعظم المستوطنات العربية حيث كانت تنتهى عندها احدى طرق القوافل الرئيسية (٩٨) .

وقد تحدث سبيك بصفة خاصة عن المحطات التجارية التى أنشأها العرب هناك ، وذكر أنه قضى بضعة أيام فى منزل عربى وتمتع بالكرم العربى الأصيل ، وأكد أنه بوجوده وسط جماعات عربية شعر أنه يعيش فى بلاد متحضرة .

وكان المستكشف الانجليزى « لفنجستون » أكثر تقديرا لدور العرب وسلطنة زنجبار العمانية البوسعيدية فى بناء حضارة شرق أفريقيا . واعترف بالمساعدات الكبيرة التى قدمت له من قبل السيد ماجد بن سعيد سلطان زنجبار فى عام ١٨٦٥ م ، وكان السيد ماجد قد استقبل لفنجستون استقبالا طيبا ، وزوده بكثير من خطابات التوصية الى الرؤساء العرب التابعين له فى الداخل (٩٩) .

وكان « لفنجستون » قد بدأ نشاطه الكشفى منذ عام ١٨٤١ م من مدينة **الرأس** بجنوب أفريقيا ، وقد اتبع سياسة مصادقة الأهالى الأفارقة وكسب ودهم بما كان يقدمه لهم من خدمات بتعليمهم الحرف والقراءة والكتابة بل ودعوتهم لاعتناق المسيحية ، والوقوف الى جانبهم ضد استغلال البيض الأوروبيين لهم . وقد استمر نشاط لفنجستون حيث أكتشف نهر الزمبيزى وعبر القارة عام ١٨٥٤ م من الغرب الى الشرق عن طريق نهر الزمبيزى .

وقد عاد لفنجستون الى أفريقيا مرتين ، الأولى بين عامى ١٨٥٨ و ١٨٦٤ م بتكليف من قبل الحكومة الانجليزية بصفته قنصلا لها فى الساحل الشرقى لأفريقيا ، بأن يترأس بعثة كشفية يكون نشاطها شرق ووسط

أفريقيا وفى المرة الثانية التى عاد فيها لفنجستون كانت بين عامى ١٨٦٦ و ١٨٧٣ م على تكليف من الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية حيث وصل الى بحيرة « نياسا » فبحيرة تنجانيقا ثم الى أوجيجى حيث توفى هنـاك عـام ١٨٧٣ م (١٠٠) .

وقد استفاد لفنجستون من سلطنة زنجبار ونفوذها فى شرق ووسط أفريقيا بل وفى الكنغو ، كمـا استفاد من الأدلاء العرب فى كشف المناطق والأراضى التى كشفها ، وأشـاد بكل هذه المساعدات : كما أشاد بما قدمه لـه حميد الدين المرجبى فى الكنغو من مساعدات ومعلومات عن الطـرق الآمنة والمسالك المأهولـة بالسكان المتحضرين والمحطات العربية فى هـذه الجهـات .

كمـا أن الرحالة الأمريكى المولـد « ستانلى » البريطانى الهوية قـد اشترك مع لفنجستون فى استكمال كشف بحيرة تنجانيقا عام ١٨٧١ م، وكان ستانلى قد أرسل من قبل صحيفتى « النيويورك هيرالد » ، « والديلى تلجراف » لكشف مابقى فى أواسط أفريقيا من أراض لم تكتشف بعد .

وعندما اخترق ستانلى القارة الأفريقية من الشرق الى الكنغو وعندما عاد مرة أخرى للعمل باسم الملك ليوبولد ملك الكنغو ، أشاد بالمسـاعدات التى قدمت له من قبل السيد برغش بن سعيد سلطان زنجبار ، الـذى أمـده بقوة عسكرية لحمايته أثناء رحلاته داخل القـارة كمـا أشـاد بالمساعدات التى قدمها له حميد الدين المرجبى فى الكنغو .

وحتى أثناء تكليف ستانلى بقيادة حملة انقاذ أمين باشا حاكم مديرية خـط الاستواء السودانية منذ عام ١٨٨٧ م استفاد من مساعدات حميد الدين المرجبى واستفاد من الأدلاء العرب فى الكنغو وأواسط أفريقيـا للوصول الى هدفه ، وشعر بالوجـود العربى فى كل الطرق التى سلكها ، وفى كل جانب من حياة تلك المجتمعات .

٤ — الدور المصرى والعمانى فى شرق أفريقيا :

كانت الصعوبات التى واجهت السيد سعيد بن سلطان فى بداية حكمه بعمان دافعا له للبحث عن حلفاء أو أصدقاء للمساعدة فى التغلب على هـذه الصعوبات ، ومن ثم اتجه الى أقطار أجنبيـة مثـل انجلترا والولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا ، كما اتجهت أنظاره الى أقطار عربية مثل مصر . وقد تصادف ان حكم مصر فى نفس الوقت الذى تولى فيه السيد سعيد بن سلطان حكم عمـان ، محمد على باشـا الذى تبوأ كرسى الولاية فى مصر عـام ١٨٠٥ م بينما تبوأ السيد سعيد بن سلطان كرسى السلطنة فى عمان عـام ١٨٠٦ م .

وقد اتصفت العلاقة بين السيد سعيد بن سلطان ومحمد على باشا بالتقدير المشترك غير المندفع ، وزاد من هذا التقدير فى الجزيرة العربية . ومع ذلك كانت الرسائل المتبادلة بينهما قليلة ، ومع قلة الرسائل الا أنها عبرت عن اعجاب السيد سعيد بن سلطان بالبنـاء الحديث الذى أقامه محمد على فى مصر ، كما عبرت عن وجود رغبة لـدى السيد سعيد فى اقامة علاقات أوثق مع محمد على باشا مصر [١٠١] .

وتمشيا مـع هذه العلاقة الودية بين الرجلين ، وانطلاقا من تقدير محمد على للدور الذى قام به السيد سعيد بن سلطان فى عمان فى الفترة من عام ١٨٠٦ الى عام ١٨١٨ م ، فقـد أحسن محمد على استقبال السيد سعيد عندما ذهب للحج عام ١٨٢٤ م . اذ أرسـل محمـد على مجموعة من كبار ضباطه لاستقبال السيد سعيد وتحيته ، كمـا أطلقت المدافـع فى جـدة حينمـا اقتربت السفينة العمانية « ليفربول » المقلة للسيد سعيد من الميناء ، وعند عودته من الحج الى مسقط حمل معه هدايا كثيرة مـن محمـد على .

واستمرت الصـلات بين مصر وعمان وديـة رغم موقف بريطانيا العظمى المعادى للنشـاط المصرى فى الجزيرة العربيـة وفى الخليج العربى

بصفة خاصــة فى الثلاثينيات من القرن التاســع عشر ، ذلك الموقف الذى لم يكن باستطاعة السيد سعيد تجاهله نظرا للعلاقة الخاصــة التى ربطت بينه وبين البريطانيين الذين ساعدوه ضــد أعدائه والخارجين عليــه . ومع ذلك لم يأخــذ السيد سعيد من محمــد على موقفا عدائيا ؛ بل ان الوثائق المصرية تشير الى أن السيد سعيد بعث برســالة الى محمد على فى عام ١٢٥٥ هـ الموافق ١٨٤٠ م ، وطلب فيها بالحاح سرعة إرســال أحد المدفعيين ــ أى أحد الجنود المصريين العاملين على المدافع الحربية ــ لأن المدفعى الوحيد الذى كان عنده فى مسقط قد مات (١٠٢) .

وحتى بعد وفاة السيد سعيد عام ١٨٥٦ م وانقســام سلطنته الى قسمين مسقط ويحكمها ابنه « ثوينى » وزنجبار ويحكمها ابنــه الثانى « ماجــد » استمرت العلاقات الودية بين مصر والسلطنة العربية العمانية البوسعيدية بشرق أفريقيا .

واذا كان السيد ماجد بن سعيد قد حكم فى الفترة من ١٨٥٦ الى عــام ١٨٧٠ م ، ثم خلفه أخوه « برغش » من عــام ١٨٧٠ الى عــام ١٨٨٨ م ، فقــد ظهرت علامات المودة بين مصر وزنجبار .

وقد شهــد حكم الخديو اسماعيل لمصر من ١٨٦٣ الى ١٨٧٩ م مع ماله من مشروعات للوصول الى أواسط وشرق أفريقيا واقامة علاقات ودية مع سلطنة زنجبار بصورة كان من الممكن للدولتين أن تأخذا على عاتقهما نشر الحضــارة العربية الاســلامية فى ربوع القارة الأفريقية ، كما كان من المتوقع أيضا أن تنجح هاتان القوتان فى حالة تحالفهما فى انقاذ القــارة الأفريقية من المؤامرات الاستعمارية .

ولكن الاستعمار الأوروبى لم تكن لتخفى عليه الجهــود التى كانت تقوم بها كل من مصر وزنجبار ، ومن ثم كانت الخطة الاستعمارية تتجه الى ناحيتين :

الأولى : منع هاتين القوتين العربيتين الأفريقيتين من الاتحاد فيما بينهما ، اذ لو تم ذلك لأدى الأمر الى ظهور جبهة عربية أفريقية قوية تستطيع أن تستقطب اليها القوة الأفريقية ، وبالتالى الوقوف بصلابة أمام الأطماع الاستعمارية التى بدأت تظهر بصورة واضحة من أجل السيطرة على مقدرات القارة الأفريقية .

والثانية : العمل على اضعاف هاتين القوتين . وقد حدث ذلك بالفعل حينما عملت بريطانيا على تفكيك واضعاف سلطنة زنجبار خاصة بعد وفاة السيد سعيد أقوى حكام تلك السلطنة . كذلك نجحت بريطانيا فى هدم الامبراطورية المصرية فى سواحل البحر الأحمر والسودان ومناطق أعالى النيل وساحل أفريقيا الشرقى تمكينا للحركة الاستعمارية (١٠٣) .

ومن علامات الود بين سلطنة زنجبار ومصر خلال الستينات والسبعينات من القرن التاسع عشر ، وصول رسالة الى الخديو اسماعيل من السلطان ماجد بن سعيد مؤرخة فى شهر محرم ١٢٨٢ هـ الموافق ١٨٦٦ م حملها قائد سفينتين مصريتين هما « الابراهيمية » و « سمنود » ، اشترتهما مصر من انجلترا وكانتا فى طريقهما الى ميناء السويس بالدوران حول رأس الرجاء الصالح حيث لم تكن قناة السويس قد افتتحت بعد للملاحة العالمية .

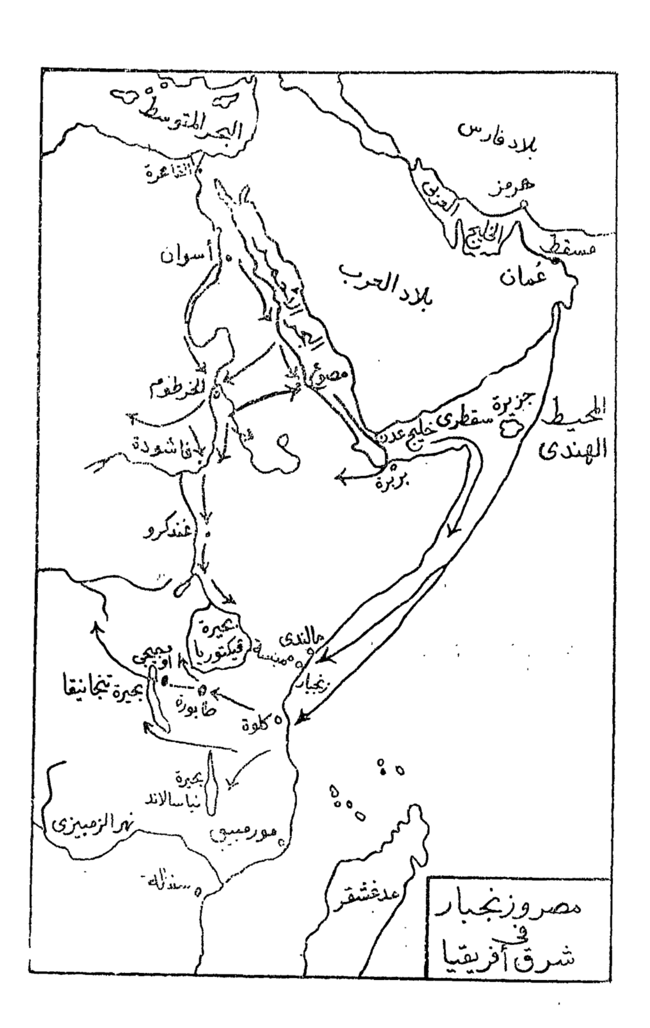
وأثناء توقف السفينتين فى زنجبار استقبل السلطان ماجد بن سعيد قبطان السفينتين ورجاله وأكرم وفادتهم ، وأهدى القبطان سيفا مرصعا وهدايا أخرى وسلمة رسالة ودية للخديو اسماعيل الذى بادر بالرد عليها برسالة ودية أيضا(١٠٤) .

وفى عام ١٨٧٢ م استقبل السلطان برغش بن سعيد بعثة مصرية وصلت الى زنجبار عن طريق أوغنده ، وقد لقيت البعثة قبل وصولها الى زنجبار كل حفاوة وترحيب من زعماء القبائل الأفريقية فى الجهات التى مرت بها .

وعندما وصلت الى زنجبار لقيت الترحيب الكبير من السلطان برغش الـذى أبدى استعداده للتعاون مع الحكومة المصرية واتفق مع قائد البعثة المصرية على عقد معاهدة صـداقة وتحالف تستعين فيها السلطنة بمصر فى تنظيم الشئون المـالية والسياسية والادارية والعسكرية والاقتصادية ، ولكن هذه المعاهدة لم يتم التصـديق عليها لأن السياسـة البريطانية كانت تعمل على عدم تلاقى مصر مـع زنجبار ، ومن ثم عمـل جنرال غوردون الانجليزى (وكان حينذاك حاكما لمديرية خط الاستواء ١٨٧٤ و ١٨٧٦ م) . على عرقلة الاتصالات بين مصر وزنجبار فكتب الى السلطان برغش بن سعيد يحذره من وقوع سلطنته فى تحالف مع الحكومة المصرية . وفى نفس الوقت أوفـد الى الخديو اسماعيل من يخبره بأن سلطان زنجبار يسىء معاملة التجار المصريين (١٠٥) .

ومع ذلك فعند مرور السلطان برغش بن سعيد من قناة السـويس عـام ١٢٩٢ هـ الموافق ١٨٧٥ م فى طريقه الى انجلترا بدعوة من الملكـة فيكتوريا ، وعند عودته من انجلترا حرص على البقاء بمصر عـدة أيام . حيث قدمت له بعض الهدايا تضمنت مجموعة من الأسلحة والكتب . كما أنه حضر مع الخديو اسماعيل مهرجان جبر النيل فى نفس الفترة (١٠٦) .

ورغم نجاح الانجليز فى توتر العلاقات بين مصر وزنجبار ، فان نجاح الخديـو اسماعيل فى تكـوين امبراطورية بشرق أفريقيا قد حفز الحكومة البريطانية الى تقلص هذه الامبراطورية بادعائهم المحافظة على حقوق سلطان زنجبار على ساحل الصومال ، رغم أن هـدف البريطانيين السياسى الوحيد كان ممارسـة النفوذ والسيطرة على أمـلاك سلطان زنجبار ، وقـد استفادوا من مشروعات مصر الراميـة الى فتـح طريق للمواصلات بين المنطقة الاستوائية والمحيط الهندى من أجل استثمار موارد هذه المنطقة التى يتم استثمارها (١٠٧) .


البحر المتوسط
القاهرة
أسوان
البحر الأحمر
مصوع
الخرطوم
فاشودة
غندكرو
بلاد فارس
هرمز
مسقط
عُمان
بلاد العرب
جزيرة سقطرى
خليج عدن
بربرة
المحيط الهندى
بحيرة فيكتوريا
مالندى
ممبسة
زنجبار
كلوة
طابورة
بحيرة تنجانيقا
بحيرة نياسالاند
نهر الزمبيزى
موزمبيق
مدغشقر
مصر وزنجبار في شرق أفريقيا

أثر مصر وعمان فى حضارة شرق أفريقية :

ورغم ذلك فقد كان لمصر وزنجبار تأثير حضارى بشرق أفريقيا ، حيث استطاعت البعثات المصرية فى شرق أفريقيا بادخال زراعات جديدة وتنميتها وبنـــاء بيوت من الحجر قام بها بناءون ونجارون وغيرهم من الحرفيين المصريين ، كمـــا أشاعت الادارة المصرية فى ســـواحل الصومال وفى منطقة نهر الجوبا الذى اكتشفه المصريون الأمن ويدل على ذلك خضـــوع مشايخ « قسمايو » « وبراوة » وترحيبهم بالادارة المصرية .

أما الدور الذى لعبته كل من مصر وزنجبار فى بناء حضارة شرق أفريقيا فهو يحتاج الى مزيد من الإيضاح ، اذ كان هدف الدولتين واحد ويعنى نشر الحضارة العربية الاســـلامية فى أواســـط وشرق افريقيا والأخـــذ بيد الأفارقة والوقوف ضـــد المطامع الاستعمارية . واذا كان هدف الدولتين مصر وزنجبار واحداً فإن مصيرهما كان متشابها الى حـــد كبير . فمصر خضعت للاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ م ، وفرضت عليها سياسة التخلى عن الســـودان وممتلكاتها فى أواسط وشرق أفريقيا عام ١٨٨٥ م ، بينمـــا حرمت زنجبار باتفاقية عام ١٨٨٦ م من معظم أراضيها فى شرق أفريقيا لصـــالح كل من انجلترا وألمـــانيا .

وكان من المتوقع أن تحمل كل من مصر وسلطنة زنجبار منذ توســـع البلدين داخـــل أفريقيا فى عهـــد الخديو اسماعيل حاكم مصر فى عهـــد ابنى السيد سعيد بن سلطان ، « ماجـــد » و « برغش » تحمل على عاتقهما مهمـــة نشر الحضارة العربية الاسلامية فى المناطق التى صـــار للدولتين وجود فيها وهى مناطق كبيرة تمتـــد من شرق القارة الأفريقية الى غربها عبر وسطها كمـــا كان من المتوقع أن تنجح هاتان الدولتان فى انقاذ القارة الأفريقية من تربض الحركـــة الاستعمارية بها ، ولذلك كان الأمر سابقاً بين الدول الاستعمارية وبين الدول الأفريقية المحلية وفى مقدمتها مصـــر وسلطنة زنجبار العربيتين نحـــو السيطرة على ما تستطيع كل منها مـــن

مقاطعات أفريقية (١٠٨) ، ومما يؤسف له أن القوى الاستعمارية نجحت فى بسط سيطرتها فى هذه الأجزاء من شرق أفريقيا ولم تنج أراضى سلطنة زنجبار نفسها ومصر وممتلكاتها الأفريقية من السيطرة الأجنبية •

كلمة ختامية :

بعد أن استعرضنا دور العمانيين على مدى التاريخ الحديث من القرن الخامس عشر حتى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى فى شرق أفريقيا ، لابد لنا من الاشارة الى الآثار الحضارية التى بقيت حتى اليوم فى شرق أفريقيا والتى صمدت أمام الغزو الاستعمارى الأوروبى بكل أدواته من بعثات تبشيرية ومؤسسات تجارية وكشفية وغيرها بما يؤكد أصالة التراث العربى الاسلامى •

ان الهجرات العربية التى وفدت الى شرق أفريقيا كانت هجرة تكاد تكون مقصورة على عنصر الرجال دون النساء ، وهؤلاء الرجال لم تكن تحكمهم أية عقدة عنصرية فتزوجوا من النساء الأفريقيات ، وقام مجتمع جديد بعد جيل أو جيلين لم يعد من السهل تمييزه عن السكان المحليين •

وانعكس ذلك على تكوين سكان شرق أفريقيا من الناحيتين الثقافية والاجتماعية ، فثقافيا ظهرت اللغة السواحيلية ، وهى مزيج من اللغة العربية ولغات الأفارقة المحلية ، وأصبحت كمفهوم لغوى وثقافى أوسع انتشارا بكثير من المفهوم العنصرى • وامتدت من « مقديشيو » شمالا حتى موزمبيق » جنوبا • وأصبحت أداة الحديث فى دائرة مركزها زنجبار وتمتد الى الجزر المتاخمة حتى جزر القمر وهى أداة التفاهم بين القبائل المختلفة ومتصلة حتى اوعندة والكنغو وجزيرة مدغشقر •

كما أن اتصال اللغة السواحيلية وثيق باللغة العربية حتى أن العربى يستطيع أن يتابع الحديث ولو لم يفهم كل مفرداته •

ويقدر الباحثون فى أصل اللغـــة السواحيلية عدد المفردات العربيـــة التى تدخل فى تركيب اللغـــة السواحيلية بما يزيد عن ربع ألفاظها . وكانت اللغـــة السواحيلية تكتب فى زنجبـــار بالحروف العربية قبـــل الهجمـــة الاستعمارية ، وان كانت الآن تكتب بالحـــروف اللاتينية •

واما التكوين الاجتماعى لسكان شرق افريقيا بنزوح العـــرب وفى مقدمتهم العمانيون ، فقـــد ظهر هناك نتيجـــة امتزاج العرب المهاجرين بالأفارقة خاصة على الساحل وما صار يعرف باسم السكان السواحيليين . وصـــار من الصعوبة بمكان تعريف من هـــو السواحيلى ومن هـــو العربى فى منطقة الساحل الشرقى لافريقيا وان ظهر خلاف بين سكان هـــذا الساحل فانما يرجع الى الحاجز والتفرقـــة التى حاول الاستعمار وضعها للتمييز بينهم ، وقد نجح الاستعمار فى فرض لغته الانجليزية ومحاربة اللغة العربية•

ومما تجدر الاشـــارة اليه أن المذهب الدينى الذى غلب فى ســـاحل أفريقيا الشرقى الأباضى وهـــو مذهب العمانيين . ولكن لم تلبث الغلبة أن صـــارت للمذهب السنى « الشافعى » نتيجـــة هجرة الحضارمة « الذين أنشـــأوا المدارس الدينية واستطاعوا تحـــويل كثير من السواحليين الى المذهب السنى « الشافعى » •

وقد تميز العمانيون عن الحضارمة فى تلك المنطقة بكونهم قد تمكنوا من الاستفادة مـــن مكانتهم التجارية وسيطروا على المنطقـــة اقتصاديا واجتماعيا وتمكنوا أيضـــا من أن يكونوا عاملا مؤثرا فى تســـيير الأمـــور فامتلكوا الأراضى الشاسعة وأقاموا المزارع الواسعة وملكوا زمام السلطة السياسية ولهـــذا صارت لهم مكانة اجتماعية أكبر •

وكان الأثر الاســـلامى واضحا فى كل مرافق حياة السواحيليين طوال مراحـــل تاريخهم منذ نزح العرب المسلمين الى شرق افريقيا . وكان هذا الأثر الاســـلامى أظهر مايكون فى التعليم حيث كان السواحليين فى القرى يبعثون بأطفالهم الى المدارس الدينية التى يتولى التدريس فيها قضـــاة :

ومـدة الدراسـة تتراوح بين سنة وثلاث سنوات تنتهى بحفظهم القرآن الكريم ومن ثم يعودون الى بيوتهم [١٠٩] وفى عام ١٨٢٠ كان هناك حوالى أربع مدارس تقـوم بتدريس القرآن الكريم والدين الاسـلامى فى جزيرة « لامـو » فى شمـال كينيا الحالية وثلاث مدارس فى زنجبار وفى خـلال ثلاث سنوات ارتفع العدد الى ١٥ مدرسـة •

وعندما سيطر الانجليز على شرق افريقيا فرضـوا اللغة الانجليزية على التعليم وأهملت اللغـة العربيـة رغم احتجاج العرب وأهملت أيضا اللغـة السواحيلية مما دفـع بالعرب والسواحيليين الى الاهتمام بالتعليم الدينى تمسكا بالغـة القرآن الكريم وبالتراث الاسـلامى جملـة وتفصيلا وان كانت السلطات البريطانية قـد اضطرت فى أواخر العشرينات مـن القرن العشرين الى ادخال تحفيظ القرآن الكريم وتعليم اللغـة العربيـة فى مناهج الدراسـة بالمدارس الحكومية ، وعلى الرغم من هذا فمازالت الصبغة المميزة للتعليم بين أبنـاء المجموعة العربية والسواحيلية هى غلبة التعليم الدينى وحتى الذين اتيحت لهم الفرصـة بدخول المدارس الحكومية فان أهم شىء كان ارسالهم الى المسـاجد والمدارس الدينية فى الأمسيات لتلقى التعليم الدينى •

الهـــــــوامش

١ — د. صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج ص ١٢ — ١٣ .

٢ — عائشة السيار : دولة اليعاربة فى عمان وشرق افريقيا ص ١٥ .

٣ — نفس المصــــدر ص ١٧ .

٤ — نور الدين السالمى : تحفة الأعيان بسيرة اهل عمان ج ١ ص ٦ .

٥ — المسعودى : مروج الذهب ، معادن الجوهر .

٦ — د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الدولة العربية ص ٦٢٧ .

٧ — جورج فضلو جورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى ص ١٨ .

٨ — المسعودى : المرجع الســـابق .

٩ — يرتجزون : اى يقولون شعرا من بحر الرجز . بربر : ميناء صولى على خليج عدن . وجفونى : هى رأس جافون المطلة على المحيط الهندى فى الساحل الصــومالى أيضا .

١٠ — احمد بن ماجد : ثلاث ازهار فى معرفة البحار ص ٧٨ — ٧٩ .

١١ — نفس المصـــدر ص ٧٩ .

١٢ — نفس المصـــدر ص ٨٤ .

١٣ — د . جمال زكريا : الاصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية ص ٤٩.

١٤ — معهد البحوث والدراسات العربية : العلاقات العربية الأفريقية ص ٣٦.

١٥ — محمود شاكر : تانزانيا ص ٤٧ .

١٦ — حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى ص ٢٤ .

١٧ — الموسوعة المصرية : تاريخ مصر القديمة وآثارها — مجلد اول ج ١ ص ٢٤٠ .

١٨ — د. جمال زكريا : المرجع السابق ص ٥٤ .

١٩ — د. جمال زكريا : استقرار العرب فى ساحل شرق افريقيا . مجلة كلية الآداب جامعة عين شمس ص ٢٨١ .

٢٠ — حورانى : المرجع السابق ص ٨٥ .

٢١ — برمنجهام : الاسلام فى شرق افريقيا ص ٤٠ .

٢٢ — د. عبد الرحمن زكى : الاسلام والمسلمون فى شرق افريقيا ص ٧ .

٢٣ — معهد البحوث والدراسات العربية : العلاقات العربية الافريقية ص ٤٦ .

٢٤ — د. عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ص ٧٧ .

٢٥ — المرجع السابق .

٢٦ — د. حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا ص ٣٥٩ .

٢٧ — د. جمال زكريا : دولة بوسعيد فى عمان وشرق افريقيا ص ٤ .

٢٨ — د. جمال زكريا : الأصول التاريخية ص ٥٩ .

٢٩ — نفس المرجع ص ٦١ .

٣٠ — د. حسن محمود : المرجع السابق ص ٤٠٠ .

٣١ — جمال زكريا : المرجع السابق ص ٦١ .

٣٢ — د. عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ص ١١٩ .

٣٣ — د. جمال زكريا : المرجع السابق ص ٦٢ .

٣٤ — معهد البحوث والدراسات العربية د. محمد أمين : العلاقات العربية الافريقية ص ٥٠ .

٣٥ — د. جمال زكريا : المرجع السابق .

٣٦ — المرجع السابق .

٣٧ — د. جمال زكريا : المرجع السابق ص ٧٦ .

٣٨ — د. عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ص ٧٩ وما بعدها .

٣٩ — معهد البحوث والدراسات العربية د. محمد امين : المرجع السابق ص ٥٢ .

٤٠ — د. جمال زكريا : المرجع السابق ص ٨٣ .

٤١ — محمود شاكر : المرجع السابق ص ١٧ — ١٨ عن ابن بطوطه .

٤٢ — د. جمال زكريا : المرجع السابق ص ٨٢ .

٤٣ — د. رافت الشيخ : افريقيا فى العلاقات الدولية ص ٤٨ .

٤٤ — بازيل دافيد سون : افريقيا تحت اضواء جديدة ص ٢٦٤ — ٢٦٥ .

٤٥ — محمود شاكر : المرجع السابق ص ١٨ .

٤٦ — بازيل دافيد سون : المرجع السابق ص ٤١٦ .

٤٧ — د. جمال زكريا : المرجع السابق ص ٩٥ .

٤٨ — نفس المرجع ص ٩٥ .

٤٩ — نفس المرجع ص ٩٤ .

٥٠ — عائشة السيار : دولة اليماربة ص ٦٤ — ٦٥ .

٥١ — نفس المصدر ص ٦٥ .

٥٢ — نور الدين السالمى : تحفة الأعيان بسيرة اهل عمان جـ ٢ ص ١٠٠ .

٥٣ — د. صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى ص ٤٦ .

٥٤ — د. جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ص ١٠٥ .

٥٥ — معهد البحوث والدراسات العربية : المرجع السابق ص ٨٠ .

٥٦ — د. عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ص ٨٩ .

٥٧ — د. جمال زكريا : المرجع السابق ص ١٠٩ .

٥٨ — المرجع السابق .

٥٩ — د. جمال زكريا : المرجع السابق ص ١١١ .

٦٠ — السالمى : المرجع السابق ص ٩٨ .

٦١ — عائشة السيار : المرجع السابق ص ٨١ .

٦٢ — د. احمد شلبى : موسوعة النظم والحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٤٠٨ .

٦٣ — د. جمال زكريا : دولة بوسعيد فى عمان وشرق افريقيا ص ٢٣ .

٦٤ — عائشة السيار : المرجع السابق ص ١٠٣ — ١٠٤ ، د. جمال زكريا : الأصول التاريخية ص ١١٢ — ١١٣ .

٦٥ — د. جمال زكريا : الأصول التاريخية ص ١١٣ .

٦٦ — نفس المصدر ص ١١٥ .

٦٧ — نفس المصدر ص ١١٢ .

٦٨ — نفس المصدر ص ١١٢ .

٦٩ — لوثروب ستودارد : حاضر العالم الاسلامى مجلد ٢ ج ٣ ص ٧٣ .

٧٠ — معهد البحوث والدراسات العربية : العلاقات العربية الافريقية ص ٨٥ .

٧١ — د. محمد مرسى عبد الله : امرارات الساحل وعمان ص ٧١ — ٧٢ .

٧٢ — د. جمال زكريا : الأصول التاريخية ص ١١٥ .

٧٣ — د. جمال زكريا : دولة بوسعيد فى عمان وشرق افريقيا ص ٩٥ .

٧٤ — د. صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى ص ٥٣ .

٧٥ — تذكر بعض المصادر انه تولى السلطنة عام ١٢١٩هـ الموافق ١٨٠٤م .

٧٦ — دونالد هولي : عمان ونهضتها الحديثة ص ٤٧ .

٧٧ — د. صلاح العقاد : المرجع الســـابق ص ١١٦ .

٧٨ — دونالد هولى : المرجع السابق ص ٤٨ .

٧٩ — المرجع السابق .

٨٠ — د. جمال زكريا الأصول التاريخية ص ٢٠٥ .

٨١ — المرجع السابق .

٨٢ — د. جمال زكريا : دولة بوسعيد ص ٢١٨ .

٨٣ — د. جمال زكريا : المرجع السابق ص ٢٠٨ — ٢٠٩ .

٨٤ — المرجع السابق .

٨٥ — معهد البحوث والدراسات العربية : المرجع السابق ص ٩٧ .

٨٦ — دونالد هولى : المرجع الســـابق ص ١٨٧ .

٨٧ — د. جمال زكريا : الأصول التاريخية ص ٢١٥ .

٨٨ — معهد البحوث والدراسات العربية : المرجع السابق ص ٩٨ .

٨٩ — المرجع السابق .

٩٠ — د. جمال زكريا : المرجع السابق ص ٢٠٦ .

٩١ — المرجـــع الســـــابق .

٩٢ — د. جمال زكريا : المرجع السابق ص ٢٣٤ — ٢٣٥ .

٩٣ — معهد البحوث والدراسات العربية : المرجع السابق ص ١٠٠ .

٩٤ — د. جمال زكريا : المرجع السابق ص ٢٤٢ .

٩٥ — المرجع السابق .

٩٦ — المرجع السابق .

٩٧ — بازيل دافيد سون : صحوة افريقيا ص ٧٥ .

٩٨ — د. جمال زكريا : المرجع السابق ص ٢٤٣ .

٩٩ — د. رافت الشيخ : افريقيا فى العلاقات الدولية ص ٩٧ .

١٠٠ — المرجع السابق .

١٠١ — د. جمال زكريا : المرجع السابق ص ٢٤٤ .

١٠٢ — لوثروب ستودارد : المرجع السابق ص ٥٩ .

١٠٣ — نفس المرجـــع ص ٦٠ .

١٠٤ — نفس المرجع ص ٦١ .

١٠٥ — د. رافت الشيخ : المرجع السابق ص ٨٧ .

١٠٦ — د. جمال زكريا : المرجع السابق ص ٢١٣ .

١٠٧ — د. رافت الشيخ : المرجع الســـابق ص ٩١ .

١٠٨ — د. جمال زكريا : المرجع السابق ص ٢٣٨ .

١٠٩ — المرجع السابق .

١١٠ — د. جمال زكريا : المرجع السابق ص ٢٣٩ .

١١١ — د. رافت الشيخ : المرجع السابق ص ٩٠ .

١١٢ —

١١٣ — د. صلاح العقاد : المرجع السابق ص ١٣٩ .

١١٤ — دار المحفوظات التاريخية المصرية — محافظ الحجاز . محفظة رقم ٢٦٩ وثيقة رقم ٣٨ بتاريخ ١١ ذى القعدة ١٢٥٥هـ .

١١٥ — معهد البحوث والدراسات العربية : المرجع السابق ص ١٠١ .

١١٦ — اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار جـ ٢ ص ٣١٨ .

١١٧ — نفس المرجع ص ٣١٩ .

١١٨ — د. جمال زكريا : المرجع السابق ص ٢٢٢ .

١١٩ — د. رافت الشيخ : المرجع السابق ص ١١٠ .

١٢٠ — د. جمال زكريا : المرجع السابق ص ٢١٥ .

١٢١ — المرجع السابق .

مصـــادر البحــث

أولا : الوثائق :

دار المحفوظات التاريخية المصرية • محافظ الحجاز •

ثانيا : المصــادر العربيــة :

١ ــ أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودى : مــروج الذهب ومعادن الجوهر ٢ جزء ــ القاهرة ــ بدون تاريخ •

٢ ــ أحمــد بن ماجد : تحقيق تيودور شوموفسكى ــ ترجمة وتعليق د • محمد منير مرسى وثلاث أزهار فى معرفة البحار ــ القاهرة١٩٦٩م

٣ ــ د • أحمد شلبى : موسوعة النظم والحضارة الاسلامية ــ القاهرة ١٩٦٠ م •

٤ ــ اسماعيل سرهنك : دقائق الأخبار عن دول البحار ــ ٣ أجزاء ــ القاهرة ١٩٢٣ م •

٥ ــ السيد عبد العزيز ســـالم : تاريخ الدولة العربية ــ تاريخ العرب منذ عصر الجاهلية حتى سقوط الدولة الأموية ــ بيروت ١٩٧١ م •

٦ ــ الموسوعة المصرية : تاريخ مصر القديمة وآثارها •

٧ ــ بازيل دافيد ســـون : ترجمة جمال أحمد : أفريقيا تحت أضواء جديدة ــ بيروت ١٩٦٥ م •

٨ ــ بازيل دافيد سون : ترجمة عبد القادر حمزة ــ صحوة أفريقيا ــ القاهرة ١٩٥٦ م •

٩ ــ ترمنجهام : ترجمة محمــد عاطف النواوى ــ الاســلام فى شرق أفريقيا ــ القاهرة ١٩٧٣ م •

١٠ ـ د • جمال زكريا قاسم : الأصـول التاريخية للعلاقات العربيـه الأفريقية ـ منشورات معهـد البحـوث والدراسات العربية ـ القاهرة ١٩٧٥ م •

١١ ـ د • جمال زكريا قاسم : دولة بوسعيد فى عمـان وشرق أفريقيا ١٧٤١ ـ ١٨٦١ ـ القاهرة ١٩٦٢ م •

١٢ ـ جورج فضلو حورانى : ترجمة د • يعقوب بكر ـ العرب والملاحة فى المحيط الهندى ـ القاهرة ١٩٥٨ م •

١٣ ـ د • حسن محمود : انتشـار الاسلام والثقافة العربية فى أفريقيا ـ القاهرة ١٩٥٧ م •

١٤ ـ دونالد هولى : عمان ونهضتها الحديثة ـ لندن ١٩٧٦ م •

١٥ ـ د • رأفت الشيخ : أفريقيا فى العلاقات الدولية ـ القاهرة ١٩٧٥م •

١٦ ـ د • صـلاح العقاد التيـارات السياسية فى الخليج العربى ـ القاهرة ١٩٧٤ م•

١٧ ـ عائشـة السيار : دولة اليعاربة فى عمان وشرق أفريقيا فى الفترة من ١٦٢٤ ـ ١٧٤١ م بيروت ١٩٧٥ م •

١٨ ـ د • عبد الرحمن زكى : الاسلام والثقافة العربية فى شرق افريقيا ـ القاهرة ١٩٧٠ م •

١٩ ـ لوثروب ستودارد ـ تعليق الأمير شكيب ارسلان : حاضر العالم الاسلامى ٢ مجلد ـ ٤ أجزاء ـ بيروت ١٩٧٣ م •

٢٠ ـ د • محمد مرسى عبد الله : امارات الساحـل وعمان والدولـة السعودية الأولى ١٧٩٣ ـ ١٨١٨ م ـ جزء أول ـ القاهرة ١٩٧٨م •

٢١ ــ محمود شاكر : تنزانيا : العدد ٧ من سلسلة الشعوب الاسلامية فى أفريقيا بيروت ١٩٧١ م ٠

٢٢ ــ معهد البحوث والدراسات العربية : العلاقات العربية الأفريقية ــ دراســة تحليلية فى أبعادها المختلفة ــ القاهرة ١٩٧٨ م ٠

٢٣ ــ نور الدين السالمى : تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان ــ ٢ جــزء ــ الطبعة الخامسة ١٩٧٤ م ٠

ثالثا : الدوريات :

ــ استقرار العرب فى ساحل أفريقيا ــ بقلم د ٠ جمال زكريا قاسم ــ حولية كلية الآداب ــ جامعة عين شمس ــ العدد رقم ١٠ لعام ١٩٦٧ م ٠

رابعاً :

صلات عُمان بالمغرب العربي

الصّلات التاريخيّة بين المغرب وعُمان

للأستاذ الدكتور عبد الهادي التازي

(*) محاضرة القاها الأستاذ الدكتور عبد الهادى التازى بالنادى الأهلى بمسقط يوم الفاتح من مايو سنة ١٩٧٨ . وقد رات الوزارة ضم هذه المحاضرة الى بحوث ندوة الدراسات العمانية لاتصـــال موضوعها بموضوعات الندوة .

ا. د. شلبى

تحـــدث الناس عن صلات المغرب ، عبر التاريخ ، بممالك أوربا وآسيا وأفريقيا ••• ولكنهم كانوا مقصرين فى حديثهم عن عـــلاقات المغـــرب بمنطقة الخليج ، وخاصةً بلادَ عـُمـــان ولم يكن مردّ هـــذا فقط ناشئاً عن البعد بين المحيط الأطلسى وخليج عـُمان ، ولكنه كان أيضاً ناشئا عن قلة اهتمام بالمصـــدر الآمر الذى كان له ما يبرره فى الماضى •

واليوم وقـــد استيقظ الوعى بأهميـــة كتابـــة التاريخ ، واصبحت المسافات البعيدة ساعات ، أمسى من الواجب أن يتفقـّـد بعضنا البعض الآخـــر ، وأن نصل رحماً عمل الزمن باستمرار على تلاحمه وتواصلـــه بالرغم من أفاعيل الأيدى الخفية والظاهرة التى كانت تبذل قصارى الجهد لفصل هذا الطرف عن ذاك ، أو تشكيك هذا الجانب فى انتسابه للجـــانب الآخـــــر •

وإنه لمن المؤسف حقـّاً أن يظل زاد تلامذتنا وطلبتنا وأكثر مثقفينـــا، قليلاً فى باب التعريف بتلك العلاقـــات وتلك الصـــلات ، على كثرتهـــا واستمرارها ، ومن المؤسف حقا ان لا تحمل معاهدنا ومؤسساتنا وشوارعنا كذلك أسماء لبعض الشخصيات وبعض الوقائع التاريخية التى كانت جسوراً ربطت المغرب بعـُمـــان وربطت عمـــان بالمغرب •• إن ذلك سيقوى دون شك من حاســـة المواطنين هنـــا وهناك ، ويجعلهم يرجعون إلى التاريخ ليسألوا عن هـُوية تلك الشـّخصيات وحقيقة تلك الوقائع •••

ولابـــدّ أن نذْكر فى صـــدر تلك الجســـور المغربيـــة : العلامـــة الجغرافى الشهير بالشريف الأدريسى الحمودى السبتى الذى أعطى وصفاً دقيقا لهذه المنطقة ظلّ الى الآن مرجعا صادقا لكلّ الذين يهمهم أن يتحدثوا عن جغرافية البلاد ومسالكها ••

لم تكن « هجرة الأدمغـــة » وليدةَ اليومَ فقد عرفها التّاريخ قبل هذا العصر ، وقد كان الشريف الأدريسى أحـــد هؤلاء الذين تركوا بلادهم

فى عهد الموحدين وهكذا وجدْناه فى صقلية أثناء القرن السادس الهجرى ، ببلاط روجى الثانى الذى قرّبه اليه وطلب منه تأليف كتاب عن الآفــاق المعروفــة على ذلك العهــد ، وقد كانت المرحلة الأولى من أعمال الادريسى إعداد لوح الترسيم بينما كانت المرحلة الثانية صنع كرة فضية للعالم ، وكانت المرحلة الثالثة اعداد (كتاب نزهــة المشتاق فى اختراق الآفاق) الذى ألفه سنة ٥٤٨ ــ ١١٥٣ ، وكانت المرحلة الرابعة من أعماله اعدادَ ملحقةٍ بكتاب نزهــة المشتاق •

وقد بلغ وزن كرة الأدريسى أربعَمائة رطل بالرومى (حوالى ١٥٠ كيلو غرام) ، رسم فيها جميع أقاليم وأقطار المعمورة رسماً مشروحــا بالاستيفاء ، وقد استعان فى تصنيف كتابه هــذا بمصنفاتٍ من تقدمه من علمــاء الهيئــة والجغرافية ، وبمــا استقاه من أخبار التجار والملاحين . ولا تختلف خرائطه فى ترتيبها ووضعها عن الخرائط التى نعرفها اليــوم الا من حيث ان الادريسى يرسم الجنوب شمالا والشرق غربــا •••

لقد نالت عمان من خريطة الجغرافى المغربى ومن كتابه نزهــــة المشتاق وبخاصــة الجزء الســادس من الاقليم الثانى ، نالت حظا وافرا يبرّر ــ فى نظرى ــ أن تكون أساسا للحديث عن تاريخ عمان فى العصور المتقدّمــة •

فهنا فى خريطة الأدريسى ذكر « لظفار وصور وقلهات ومسقط ونزْوى وصحار وجلفارة إلى آخر المواقع التى ذكرها باسمائها التاريخية مدنــاً وقرى وجبــالا وأودية ونباتا وهــوام وحشرات كذلك ، ومن المهم أن نعرف أن بعض المعلومات التى كتبها الأدريسى عن عمان كانت تصله أثناء تأليفه للكتاب ، وهكذا سمعنا عن عددٍ من مغاصات اللؤلؤ فى صــور وقلهات ودَمَــا ورأس الكبش •

ورأينا صــورة كاملة لقطع الأسطول الذى كانت تتوفر عليه عمان

والذى كان يخيف الهند وافريقيا بما كان يحتوى عليه من (مشيعات) و (أغربة) وسفن متنوعة ...

وقد قصدت باستعراض تلك المدن على ذلك الترتيب أن الفت نظر المهتمين الى ضرورة العودة إلى أصل الخريطة والى كتاب نزهة المشتاق ... ليقفوا بأنفسهم على ما قـد يكون لحق عمل الادريسى من تساهل من طرف الباحثين الذين اهتموا بنشر الخريطـة المذكورة وتمكنوا من نشر بعض أجزاء النزهـة الى الآن ، وأذكر على سبيل المثال وجود صحار فوق مسقط مع أن موقعها حسب نظام الأدريسى فى مكان آخـر ...

ان دراسـة خاصـة لمـا قاله الشريف الأدريسى عن عمان تظل دينـا فى طوق السـادة علماء عُمـان الذين عوّدونا على طول نَفَسهم فى البحث والتنقيب ، إن عليهم تقع تبعة التحقيق فيمـا كتبه الأدريسى عن أرضهم وشعبهم ...

ودعونا ننتقل بعد الأدريسى السبتى ، الى ابن بطوطة الطنجى الذى كان من بين الذين اعتمدوا على الأدريسى فى هذه المنطقة (١) .

لقد عرف المغاربة من قديم برغبتهم فى الرحلات الطويلة وقد كان ذلك يرجع الى عدة أغراض ، أبرزها شيئان اثنان :

أولهما : هيام المغاربة بالمشرق ، خاصة وقد ظلوا يعتقدون أن هذه الامكنة كانت منطلق سعادتهم ولهذا فانه لم تكـد تخلو سنة واحدة دون أن تشـد الرحال من أقصى بلاد المغرب الى الحرمين والقدس أنقذه الله من الرجـس .

---

(١) راجع مثلا ما قاله ابن بطوطة حول جبلى كسير وعوير اللذين يوجدان داخل أعماق الخليج على مقربة من البحرين ويحتاج الملاح الى معرفة موقعهما حتى لا تتكسر مراكبه ولا تتعور !

ثانيهما : الباعث السياسى فان المغرب الأقصى يعتبر الدولة الاسلامية الوحيدة التى يبتدىء تاريخها الدولى منذ بداية القرن الثانى الهجرى ولهذا نجد فى تاريخ الأمم ذكرا لا يبلى للمبعوثين الذين كان المغرب يرسلهم الى الخلفاء والأئمة والسلاطين والملوك فى آسيا وافريقيا وممالك أوربا . وذكرا لا يبلى للرسائل التى كان يبعثها الى الولايات المتحدة الأمريكية كذلك .

وقد تضافرت المصادر التاريخية على أن الرحالة المغربى ابن بطوطة لم يكن مجرد رحالة يرضى هوايته فى التجول والاستطلاع ولكنه كان بمثابة سفير متنقل لدولة بنى مرين المغربية . يجمع المعلومات الجغرافية ويقف على الظروف المعيشية والمظاهر الحضارية والحياة الاجتماعية للبلاد التى يزورها بل انه كان خاضعاً لولاء العاهل المغربى : كما تدل عليه بعض المقاطع من رحلته وخاصة منها الفقرات التى تذكر أنه تلقى « أمرا كريما » ذات يومٍ بالالتحاق ببلاط فاس العاصمة ...

ويظل ابن بطوطة الشخصية العربية العملاقة التى فرضت وجودها على كل الذين كتبوا عن تاريخ البلاد والشعوب فجميعهم يبحث عما قال ابن بطوطة حول ما به يشتغلون ، يعتمدونه قبل غيره من المصادر والمراجع على أنه شاهد عيان ! .

وكان الأمر كذلك بالنسبة لمن حاولوا أن يؤرخوا لعمان والبحرين ... فقد زار ابن بطوطة المنطقتين على التوالى وسجل معلومات فريدة فى بابها بالرغم مما احتوته أحيانا من تساهل واسترواح لم يكن ابن بطوطة مسؤولا عنه .

أولا : التراجمة الذين كان يعتمدهم ممن كانوا دون مستوى الأسئلة التى كان يطرحها ، وقد مر بابن بطوطة متاعب من جهة الترجمة نقشت على ذاكرته ، فلم ينسها بمرور الأعوام ، وهكذا فبعد أن يذكر تورطه فى بعض جهات آسيا الصغرى حيث استحضروا فقيها من مكان بعيد ادعى

أنه يعرف اللغــة العربية ، ليقوم بدور الترجمة ، ولمـا طلبوا اليه تأدية ما قاله الرحالة اعتذر بان ابن بطوطة يتكلم باللغة العربية القديمة بينمـا هــو . أى الترجمان ، لا يعرف الا اللســان العربى الجديد .. !

وهكذا أيضا يعرب ابن بطوطة عن خيبته وقد قدم اليه ترجمان آخر ، كشف الغيب أنه لا يعرف من اللسان العربى الا كلمة « نعم » خاصــة ! وقد تحدث عن ترجمان ثالث بعثه ليشترى له سمنا فاحضر له عــوض السمن حنطة من التبن ، وتبين ان للسمن كلمة اخرى غير ما اعتاده الرحالة ! وقد قدم له ذات يوم كوب شراب من طرف أمير أحد البلدان . فســأل ابن بطوطة عن كنهه فأجابه الأمير إنه (مــاء الدهن) فتناوله رحالتنا قبل ان يتضح له أنه نبيذ البوزة ، وان المجيب عوض ان يقول : انه ماء الدخن بالخاء تحرف النطق على نحو ما يحصل عند المتلقنين للسان الآخر !!

وكلنا يعرف أنه فى هذه المنطقة تعرض أحد الزوار الغرباء لعملية كسر موجعة عندما طلب اليه أمير حميرى كان يوجد على سطح بيت . طلب اليه أن يثب فامتثل الزائر اظهارا للطاعة فوقع على الأرض قبل أن يعرف ان كلمة (ثب) تعنى بالحميرية أجلس وليس أقفز .. الأمــر الذى كان مضرب المثل المشهور : من دخل ظفار حمر أى تكلم باللغــة الحميرية !

ويعزى أمر تساهل ابن بطوطة بعد هذا فيما قد يؤاخذ عليه الى عملية السطو التى تعرض لها الرجل أثناء احدى تنقلاته فقــد فقد مبيضاته المكتوبة ، وهكذا لم يكن غريبا أن تخونه ذاكرته عندما كان يملى مشاهداته — بعد أزيد من عشرين سنة على تدوينها وأمر التفريط فى المذكرات حديث معضل ردده عدد من رحالتنا المغاربة من أمثال السفير ابن عثمان ...

تعمدت ذكر كل هذا ، لأضع الرحالة المغربى فى الصورة الحقيقية حتى لا نسمح لنفوسنا بمناقشته الحساب فى البعض القليل من فجواته وغفواته !

والآن لنأخذ مركبا مع ابن بطوطة من ميناء كلوا (Kalwa) جنوب

دار السـلام عاصمـة (تانزانيا) الحالية لنصل الى ساحل جنوب الجزيرة العربية لنزور للمرة الأولى ظفار فى ٢٣ رمضان ٧٣١ —(٣٠ يونية ١٣٣١) حيث يتحدث الرحالة المغربى عن الثروة الحيوانية التى تنعم بهـا البلاد وبخاصـة عتاق الخيل التى تزود منها القارة الهندية ••• كمـا يتحـدث عن الثروة السمكية وخاصة نوعية السردين ، والثروة الزراعية وبخاصة الذرة والعدس ويتحدث عن النشـاط التجارى واجتهاد المزارعين فى استخراج ميـاه السـقى مما لاتزال آثاره بادية الى اليـوم فى الآبار والأفلاج مما يدل على وجود الهندسة الهيدروليكية فى المنطقة •• ولا يفوت ابن بطوطة ان يصف موز ظفار التى كانت حديث مجالس الخليفة هارون الرشيد باعتبارها كبيرة الحجم طيبة الطعم شديدة الحلاوة ••• ! كما يصف ازدهار زراعـة التنبول (الراك) والنارجيل (جوز الهند) اللذين قـدم عنهما كلاما مسهبا فى منتهى الجـدة والطرافة وخاصـة بالنسبة للمغاربة الذين حرموا من هذا النوع من النبات الذى ذكر له خاصيات طبية تمس علاقات الزوج بزوجته !

وقد تحدث ابن بطوطة عن عادة فريدة فى باب تحبيب زيارة ظفار وهى تعبر — الى جانب ما تدل عليه من بعد نظر — على خلق سـام رفيـع يعد ترديده اليوم من قبيل الأساطير الممعنة فى الغرابة •••

وبعد أن يتحدث الرحالة المغربى عن الخلال الحميدة التى يتميز بها سكان ظفار وعن تعودهم على النظافة وارتدائهم لاخف الثياب اتقاء للحر •• وبهذه المناسبة يقدم المدينة على أنها مركز هام لصناعة الحرير والقطن والكتان ، وينتقل ابن بطوطة لعادة المواطنين فى مصافحة بعضهم بعضا فى أعقاب صـلاة الصبح والعصر والجمعة ويستنتج الرحالة من هذه الاستقامة فى السلوك والاشتغال بمـا يعنى أن ذلك كان وراء حماية الله للمنطقـة من عدوان الجائرين والمجاورين !!

ولنبق مع ابن بطوطة المتصـوف • لنجده يقدم الينا بعض مشاهد

ظفار على ذلك العهـد وهكذا نسمع عن زاوية ابى محمد بن أبى بكر بن عيسى التى يستجير بها بعض المتابعين على نحـو ما كان عليه الحـال فى المغرب بالنسبة لبعض المشاهد ، هنا فى هذه الزاوية قضى ابن بطوطـة ليلته مكرما من ابنى ضجيع الزاوية الشيخين أحمد ومحمد ..

ويعطى الرحالة المغربى صورة جميلة لقاضى المدينـة ابى هاشـم عبد الملك الزبيدى الذى كان مثلا فى الصلاح والتواضع والكرم ...

واذا كان الرواة قد ذكروا أن قبر نبى الله هود بن عابر يوجد بالجدار القبلى من المسجـد الأمـوى بدمشق الشام فان ابن بطوطة يعقب على هذه الرواية بأنه وقف فى ظفار ؛ فى الأحقاف منها على زاوية تحتضن قبرا كتب عليه « هـذا قبر هود بن عابر عليه أفضل السلام » ...

وقد أفرد حديثا عن تقاليد ظهور السلطان على ذلك العهد وعن العادات المتبعة فى ممارسـة الحكم مما يدل على الأصالة فى ضبط الأمر واحـكام السياسـة ...

ويتأكد ان الرحالة المغربى أخذ طريقه البحرى من (صلالة) عاصمة ظفار ٢٧ ذى القعدة ٧٣١ ـ (١ سبتمبر ١٣٣١) فقـد نزل فى اليوم الثانى فى مرسى (حاسك) بمعية صاحب المركب على بن ادريس حيث قضى بعض الوقت ليقدم لنا صورة جديدة عن نوعية السمك المتوفرة فى هذه الناحية ، وعمـا نسميه فى المغرب بحصى اللبان الذى لا يخلو منه متجر فى أسواق العطارين بالمـدن المغربية ، ومن حاسك عاد المركب فى اتجاه جبل لمعـان حيث وصله بعـد أربعة أيام واجتمع بشيخ متبتل هناك ، ومن لمعان الى (جزيرة سماها جزيرة الطير لانها لا تحتوى الا على أنواع من الطيور ، كنت أتصـورها على نحو (جزيرة الطيور) فى مدينة (الصويرة) المغربية .

وهنا أيضا يتحدث عن نوع السمك ويقارنه بما يوجد فى المغرب ،ويتعمد ابن بطوطة كلمـة الحوت فى نظير كلمة السمك ليشعر أن الاستعمال المغربى

لا يخصص الحوت للنوع الضخم على ما هو عند المشارقة ، وهو الاستعمال الذى تؤيده المعاجم اللغوية [١] .. ولم ينس ابن بطوطة أن عيد الأضحى لعام ٧٣١ — ١٤ سبتمبر ١٣٣١ صادفه وهو على متن البحر العربى ...

وقد تبنى المطبخ الأمريكى صحن طعام يقدمه فى المناسبات الكبرى ، كان يشبه تماما الصحن الذى حضره بعض تجار عمان فى المركب ، وهــو عبارة عن ذرة مسلوقة مضافاً اليها عسل التمر ... لم يفت ابن بطوطــة نسبة الصحن الى عمان ، ولم يتردد فى القول بأنه لم يتناول هذه الوجبة فى الســابق واللاحق .. !

ويصل الرحالة الى جزيرة مصيرة ، حيث انتظر زيارة صاحب المركب لأهله، ثم اتجه الى مرسى (صور) حيث خطر بباله أن يزور بطريق البر مدينة (قلهات) صحبة مولانا خضر الهندى وبمساعدة دليل أقلق ابن بطوطة بمراوغاته ومواورباته ، وهنا نقف على حكاية ملذة للمتاعب التى تعرض لها الرحالة المغربى فى سبيل الوصول الى قلهات التى كانت تستحق أن تسمى بالنسبة لمـا حصل له « مس كــد » ! لأنه لم يصلها الا بعد أن مســـه النكد ونال منه الجهــد ! (ولدون مسكد مس كــگد) !

وهنا فى قلهات يقدم ابن بطوطــة مظهراً جديداً من مظاهر الحضارة الأصيلة والحفاظ على الأمن فى البلاد ، وهكذا وجدنا الرحالة يقصد صحبة حارس باب المدينة الى قصر الأمير ليتأكد من هويته ووجهته ومقدمه وأسباب زيارته على نحو ما نملأه اليوم على متن الطائرة عندما نقترب من النزول على أرض أمة من الأمم ...

ولم يفت ابن بطوطة ان ينعت حاكم المدينة بالفضــل ودماثة الخلق

---

(١) لابن بطوطة لغته الحاضرة التى خصص لها الباحثون معجما على حدة ، على ما نرى فى نحو كلمة الفرجية لنوع من اللباس و (المصرية) لمشتمل البيت أو جنــاح منه ...

وكرم الضيافة وجميل المواســاة التى كان فى حاجة ماسة اليها طيلة الأيام الستة التى قضاها فى قلهات ...

ولا شــك أن فترة الاستجمام هذه كان لها أثر على استعادة ابن بطوطة لمتابعــة وصفه لقواعــد عمــان وأن ما قاله عن قلهات وأسواقها ومسجدها الأعظم ليشــوق بحق الى أداء زيارة لهذه المدينة الجميلة !!

فلقد أخــذ بلبه تطريز جدار الجامع بالقاشانى الذى شبهه بما نسميه فى المغرب بالزليج ، وليس الزالج كمــا رسمته بعض المصادر المعمانية ، وصناعة الزليج أو القاشانى من أهم وأتقن وأجمل الصناعات التقليدية الدقيقة التى يحتفظ بها المغرب الى الآن : والصانع يحمل وصف (الزلايجى) ويجمع على (زلايجية) .

وقد ظل ابن بطوطة يتحسس النكهة الطيبة لسمك قلهات الذى لم يذق مثله فى اقليم من الأقاليم والذى كان يفضله على جميع اللحوم ...

ويذكرنى وصف ابن بطوطة لطريقة اعداد السمك بقلهات فيما كنت آراه فى بغداد مما يعرف باسم (المسقوف) : لكن وصفه كان أكثر دلالة فهــو يتحدث عن شى السمك على ورق الشجر (الطرفاء) الذى يكسبه أيضا رائحــة عطرة ، وهو يتحــدث عن جعل السمك على الأرز ... وهو صحن لذيذ ومطلوب فى البلاد المغربية .

وكما حكى عن عادة ظفار فى الاستقبال الكريم للمراكب ، كانت العادة أيضا متبعة فى قلهات الأمر الذى يدل على تماسك أخلاق السكان ووحــدة أرومتهم جنوبا وشمالا ...

وقد فات ابن بطوطة عندما لاحظ على أهل البلاد انهم عندما يسألون عن شىء يضيفون كلمــة : لا .. فاته أن أهل المغرب أيضــا يرتكبون نفس الأسلوب فيقولون تفعل كذا والا لا ؟

وقد رسم ابن بطوطة لوحة فنية بالغة الجمال لقرية طيوى التى نطق بها الرحالة المغربى (طيبى) ربما لخطأ وقع له فى التقاط الكلمة من الدليل. هذه القرية التى نعتها بأنها من أجمل القرى وأبدعها حسنا بما تضمه من أنهار وأشجار وبساتين وفواكه ...

ومن قلهات قصد عبر الصحراء (نزوى) قاعدة عمان على ذلك العهد ... وتظل قاعدة عمان القديمة مدينة لابن بطوطة فيما وصف به العاصمة السابقة من وفرة البساتين وغزارة الأنهار وترتيب الأسواق ونظافة المساجد ... وقد كشف ابن بطوطة عن عادة بالغة الغاية فى تصوير الخلق الاسلامى والكرم العربى فى أروع حقائقه حيث نجد تعود النزويين على تناول الطعام فى صحون المساجد حيث يأتى كل مواطن بما يتوفر لديه من قوت ويجتمع الناس للأكل فى صحن المسجد ، يشاركهم الواردون والصادرون ..

هذا الى اضفاء صفات النجدة والشجاعة على أصحاب البلاد ، وهى الصفات التى تظل مميزة للإنسان العربى على مر الزمن .

وقد تمكن ابن بطوطة من الاتصال بسهولة بسلطان عمان ابى محمد بن نبهان الذى وصفه الرحالة المغربى بعدم التكلف والاستئثار بالحكم وفتح بابه للجميع وبسط السفرة والعناية بالغريب ...

واذا كان ابن بطوطة لم يتعرض للمذهب الدينى المتبع فى ظفار ... فانه لم يفته ان يتحدث عن المذهب الاباضى المتبع فى نزوى ، وهنا نستفيد من خلال كلامه ان حرية اختيار المذهب كانت مؤمنة للناس ، وفى معرض حديثه عن المذهب السائد نقل عما شاهده وسمعه . وكنا نتمنى أن لو قام بحوار هادف لتبادل وجهات النظر حول ما يأتيه الناس وما يذرون ، لكنه اكتفى بمجرد الحكاية التى لم يكن غريبا علينا أن نسمع عنها من ابن بطوطة ما دأبنا على سماعه ممن يختلفون مذهبا عن الآخرين ،

وخاصة فى العصور الغابرة اعتدنا هذا فى رحلاتنا ــ منذ التاريخ المبكر ممن كانوا يمرون فى طريق حجهم بميزاب وجربة والزوارات اعتدناه من (التيجانى) الى (الاسحاقى) كما اعتدنا أيضا التصدى لهؤلاء من عدد من العلماء الأباضية من أمثال على يحيى معمر ومحمد بن دبوز ••• الأمر الذى أثرى من جهة أخرى المكتبة الاسلامية وأغنى ميدان الحوار الفقهى ••• ومع هذا لابد أن نلاحظ ان ابن بطوطة كان يرتفع عن الغرض والا فبماذا نفسر انتقاده لابن نبهان ، مع انه لايخالفه فى المذهب ؟

وهكذا وجدناه يروى حادثة اعتمد فى شطرها الأول على ما قال : انه حضره بنفسه بينما اعتمد فى شطرها الثانى على ما ذكر له من طرف مجهول ، ويتعلق الأمر بفتاة تطارحت على ابن نبهان ، تستجير به فى أن يمنحها حرية الاستجابة لنزوات الشباب !

وهى رواية لا ينبغى أن نتجاهل معها أولا درجة حظوظ ابن بطوطة من فهم ما قاله ابن نبهان سيما والرحالة لم يخف شكواه قبل سطور معدودة من لهجة مخاطبيه على ذلك العهد ••• ومن جهة أخرى فان الذين أخبروه بذلك كانوا على ما يبدو ممن يهدفون الى تقصى سمعة (النباهنة) الذين عرفنا عن تشكى بعض الناس من تصرفاتهم ، وهكذا فاذا كنا سمعنا شاعرهم يقول عنهم :

وأنتم بنى نبهان أما نجاركم	نزاك وأما فعلكم فجميل
أضاءت لكم فى كل شرق ومغرب	مصابيح فضل مالهن أفول

إذا كنا سمعنا ذلك فقد حفظنا من الشعر الذى اوردته مخطوطة « الشعاع الشائع باللمعان » والذى يتوجه فيه الى عمر بن الخطاب الخروصى قائلا :

فانت إمــام عــدل تدر ممـــــا   بنو نبهــان حازوه اغتصـــابا
هم ظلمــوا العبــاد فرد ممـــا   هم ظلمــوا ، وفيه غــدوا صحابا
فقسمه ـ فتى الخطاب ـ عدلا   على الفقراء قربــا واعتــرابا !

ويودع ابن بطوطة بلاد عمان عن طريق هرمز فى ٢٧ ذى الحجة ٧٣١ — (١ أكتوبر ١٣٣١) ولكن ليعود اليها بعد نحــو من سبع عشرة ســنة . وفى هــذه المرة يقصدهــا عن القــارة الهنديــة . مــن قاليقــوط [١] فى محرم سنة ٧٤٨ — أبريل ١٣٤٧ لقد زار ظفار مرة ثانية ونزل عنــد سلطانها قبل أن يأخذ الطريق البحرى الى مدينة مسقط حيث أعطى فكرة عن ثروتها السمكية ... ذاكرا النوع المعروف بقلب المــاس . لقــد كان أخذ فكرة جيدة عن كرم عمان وخلق أهل عمــان ولذلك فانه فضل ان يصل معها الرحم مرة أخرى . وأظنه ممن كان ينطبق عليهم بعض الشىء بيت الشعر الذى أورده صاحب (الامتاع والمؤانســة) والذى سأل هشــام عليا بن خالد الهجيمى عن قائله :

لو يسمعــون بأكلــه أو شــربه   بعمان أصبح جمعهم بعمـــان !!

وبعد ان استمتع بمجالس مسقط نزل جنوبا الى مرسى القربات ثم الى مرسى (شبة) أو (الشباب) ثم الى مرسى كلية ليلتحق بقلهات ويبحر منها الى هرمز مرة أخرى .

وهكذا أسهم ابن بطوطة الطنجى فى كتابه تاريخ عمان على نحــو ما كان من سابقه الشريف الأدريسى الذى قدم عن عمان معلومات جغرافية أصيلة على ما أسلفنا .

---

(١) تقــع فى الجنــوب الغربى من الساحل الهندى وهى غــير كالكتا التى تقع فى الشمال وقد التبس الأمر على بعض الكتاب العرب بين البلدين .

ومن حقنا ان نتساءل عن انطباعات ابن بطوطة حول المنطقة وعن صلات مواطنيها بالمواطنين المغاربة •

لقد شعر ابن بطوطة : فى هذه البلاد بشبه قوى بين أهلها وبين أهل المغرب ، وهذه القولة التى مضى عليها زهاء سبعة قرون تؤكد نفسها اليوم بصفة ملحة وتجعل الزائر العمانى للمغرب لا يشعر هو الآخر بفرق بين هاتيك الديار وهذه الديار ، وهذه حقيقة أخرى تجعلنا نقف طويلا أمام ما رواه المؤرخون عن أصول المغاربة من أن صنهاجة وسواهم من قبائل المغرب أصلهم من حمير على حد تعبير ابن بطوطة •• وأحب أن أفتح قوسين هنا لأتساءل عن الصلة بين القوم الذى يعرفون هنا باسم (الشحوح) وبين القوم الذى يحملون فى المغرب اسم (الشلوح) ، كل له لغة لا يفهمها غيرهم وكل له سحنة تختلف فى الغالب عن سحنة الآخرين •

لقد قوى من انطباع ابن بطوطة ذلك أنه لاحظ وهو فى ضيافة خطيب المسجد الأعظم أن أسماء خدمه أيضا أسماء مستعملة فى المغرب •• كذلك لاحظ أن أكثر أهل ظفار حاسرو الرأس ، وهى عادة مغربية تخفى حتى على بعض المغاربة من الذين لا يعرفون أن جل الشخصيات الأندلسية المغربية كانت تكتفى بوفراتها الكثيفة المضمخة ! وأخيراً فان كل بيت كان يحتوى فى أبرز ما يحتوى عليه سجادة يفترشها عند الصلاة وهى عادة مغربية صميمة ، هذا الى ميل الناس هنا لتناول الذرة وهى المزروع المحبب لدى أهل المغرب •

ان هذه الاستنتاجات من ابن بطوطة لا ينبغى ان تؤخذ على أنها مجرد افتراض ولكنها افادة تاريخية هامة عثرت أقدام الباحثين الأروبيين الذين كانوا — وما يزالون — يحاولون ان يلحقوا الانسان المغربى بالإنسان الأوروبى ، ومن ثمت سمعنا عن التفريق بين بربر المغرب وعربه مع أن الكل وارد أصلا من هذه الجزيرة ••

وانه لما يلفت النظر الملاحظ أن يسمع فى المغرب عن أسرة العزفى

ولاة مدينة (سبتة) المغربية فى العصر الوسيط ، ومنشئة عادة الاحتفال بعيد المولد فى الديار المغربية •• وقد كانوا منحدرين أصـــلا من قابوس ابن النعمان بن المنذر ! وأن يسمع عن أسرة (الغسانى) وأسرة (الحارثى) وأسرة الزبيـــدى وأسرة الزواوى والسالمى والرشـــدى وأسرة السراج الحميرية ! بل وأن نسمع عن أسرة (العمانى) التى نزحت كسابقاتها مـــن هذه المنطقة إلى المغرب عن طريق الأندلس •• ثم أن نسمع عن عـــادة حمـــل الخنجر فى الجنب •

لقد أســـدى ابن بطوطة لثلثى سكان المعمور جميلا لا ينسى بما كتبه من سائر وجهات النظر ••• وما يزال ــ بالرغم من الاهتمام الذى اختفى بمذكراته ــ بحاجة الى عناية أكثر . واعتقد انه لو كان ابن بطوطة مـــن مواليد أمريكا لأطلقوا اسمه على المطارات والموانىء ومحطات الفضـــاء . تقديراً لمـــا قدمة للمجموعة الدولية من عطاء •••

* * *

ولنودع فترة بنى نبهان الى فترة اليعاربة لنشهد تلاحما لا نظير له فى علاقات أمة بأمـــة ، لنشهد تجاوباً بين المحيط والخليج ظل محل اهمال من المؤرخين المشارقة والمغاربة على السواء : ويتعلق الأمر بالتشابه القوى بين وضع هنا ووضع هناك وبالتضافر من طرف الجانبين على التخلص من الوضعين ••

وهكذا فكما ستقع فى يد البرتغال هنا مسقط وصحار وجلفار وصور وقريات وقعت هناك فى المغرب مدينة سبتة والقصر الصغير وأصيلة وطنجة وأكادير ، وكمـــا بنيت القـــلاع والحصـــون البرتغالية هنا فى مســـقط (الميرانى والجلالى) شاهدنا فى المغرب عدداً من الحصون والقلاع تحمل أسماء مثل سانطاكروز أى الصليب المقدس •• وكما باع البرتغاليون أسرانا من (دكالة) فى ليشبونة أوائل القرن • القرن السادس عشر كانوا أيضا هنا يخطفون قومكم • وكما حاول الاستعمار ان يفرق بين أبناء البلد الواحد

هنا رأينا نفس المحاولة هناك ، وكما اغرت هذه المنطقة جيرانها من الاعجام فانهالوا عليها فقد حركت بلادنا من شهية من جاورها من الأتراك فحاولوا أن يلتهموها ...

وكما سمعنا عن صـدام العثمانيين مع البرتغاليين هنا ، شـاهدنا مضايقتهم للأسبان هناك ولكن على حسـاب المغرب وعمان .. لقد كان الهـدف الأول على ما أثبت التاريخ حماية المصالح الخاصـة ! وكمـا بيعت منكم أراض وثغور ، شاهدنا نحن تفويت مثل ذلك !! وكما ابتليتم بسماسرة الفتن ابتلينا نحن المتخصصين فى ابرام الصفقات !

وكما كانت الخلافات الشخصية بين أبناء البلاد ممهدة للتدخل الأجنبى هناك ، رأينا الأمر كذلك بالنسبة للمنطقة هناك ، فقد كان بعض القـادة تجاوز الله عنهم يعتقدون أنهم بالاستعانة بالأجنبى سيتغلبون على خصومهم السياسيين ويعـود الاستعمار من حيث أتى وبدون أن نستفيد من ثمرات تدخله !

لقد كان الهدف البعيد للصليبية قص جناحى العالم الاسلامى فى محاولة ماكرة للاجهاز على المقومات الروحية والقضـاء على لغـة القرآن ، وذلك قبل أن تجتذبهم البهارات التى كانت بمثابة البترول اليوم .

لقد وجدت طلائع اليعاربة فى عمـان كما وجـدت الدولة السعدية نفسها أمام جيوش حافلة تهدد أراضيهم وتستغل ثرواتهم .

ولعل من الامانة للتاريخ أن أرفع ظلما غير مقصـود وقع على أحـد العمانيين الأعلام ممن يفتخر بهم تاريخ الملاحـة البحرية العربية ، ويتعلق الأمر بالمعلم حمـد بن ماجد الذى ذكر النهروانى عنه أنه هـو الذى هدى (دى كاما) الى هذه المنطقة . هذه الرواية التى وجـد فيها المستشرق الفرنسى فـيران مجـالا للحـديث ، ونقلهـا بعض المؤرخـين

العرب عن حسن نية باعتبارها تبرز ابن ماجـد على أنه يتفوق الملاحين الأوروبيين معرفـة وخبرة ! الأمر الذى كان مصداق المثل القائل : « من معرفته بالصحابة صلى على عنتر » !

وقد غفل هؤلاء عن حقائق ثلاثة تبعد مساعدة ابن ماجد للبرتغال :

أولها أن ابن ماجد كان يكره البرتغاليين كرها بالغا ، وقـد ظهر ذلك فى شعره الذى يقول فيه عن البرتغال :

وهو الـذى قـد قهر المغاربـة   واندلس فى حكمـه مناسـبة !

ثانيها : ان نص النهروانى يذكر أن دى كاما انتزع الأسرار من ابن ماجد عن طريق كؤوس الخمر التى قدمها للملاح العربى المسلم ، وهـو أمر تأباه طبيعة هذا الرجل العظيم •

ثالثها أن ابن ماجد لم يتحدث اطلاقا فى كتبه العديدة التى ظهرت . عن تقديم مساعدة من هذا النوع • وهو مما يشكك ـ إن لم يبطل ـ فى رواية النهروانى •

وهكـذا فاذا ثبت عن استفادة دى كاما من قراءة كـتاب الشريف الأدريسى ورحلة ابن بطوطة ، فانه لن يثبت ما نقله النهروانى فى (برقه) ما دام لم يعزز بمصـدر ثان كيفما كان لونه عربيا أو برتغاليا !

* * *

لقد ظهر ناصر بن مرشـد هنا فى عمان وظهر أحمـد المنصور هناك فى المغرب كلاهما حكم نفس عدد السنين التى حكمها الآخر ، تسعا وعشرين سنة كلاهما قطع الطريق على البرتغال والمناوئين فى الداخل ، كلاهما عاش فترة ذهبية فى تاريخ النضال الشريف من أجل تحرير الثغور •••

وأرجو ان تسمحوا لى ـ بعد أن عرفنا عن دور الأدريسى وابن بطوطة

فى التعريف بالمنطقة — أن أنتقل توا الى موقعة حربية ينبغى فى نظرى أن تحمل الشـــوارع فى قواعد عمان اسمها لمـــا كان لها من أثر قوى على التعجيل بكسر شوكة البرتغال فى هذه المنطقة وأعنى بها المعركة التى تمت بمكان قرب مدينة القصر الكبير يحمل اسم (وادى المخازن) فحملت بذلك اسم الموقع ونعتتها المصـــادر التاريخية بأنها (غزوة بدر) . لقد كـــان البرتغاليون يطمحون الى أن يستحوذا على الساحل المغربى كله وقـــد كان هذا الطموح منهم بعـــد أن حصلوا على مساعـدات دولية وتزكيات ومباركات من زعماء المسيحية آنذاك ...

وشاء الله أن ينزل الضربة القاصمة بالأحلام البرتغالية عندما رمى بجيشهم الى الدخول مع المغرب فى المعركة ... وقد اصم القـــدر آذان ملك البرتغال (دون سباستيان) فلم يصخ بسمعه بحال الى النصائح التى قدمت اليه من قبل وزرائه ، بل ومن قبل ملوك أوروبا وعلى رأسهم ملك قشتالة ، وهكذا صحب ملك البرتغال مائة وعشرون ألف مقـــاتل جمعهم بمساعدة البابا من ســـائر الممالك المسيحية ، هذا الى ما كانوا يجرونه من المدافع وآلات الدمار .. وقد تم التجمع البرتغالى فى مدينة (أصيلة) التى يردد أهلها الى اليوم المثل القائل : « أصيلة صغيرة ومحاينها كبار » يعنى أن متاعبها عظيمة .

كان آخر يوم من شهر جمادى الأولى من عام ٩٨٦ — ٤ أغسطس ١٥٧٨ عندما عبر طاغية البرتغال جسر الوادى المعروف بوادى المخازن ، وأمـــر العاهل المغربى المولى عبد الملك بهـــدم الجسر ليلة الصـــدام المنتظر .. وكان اللقاء ... وركب المغاربة اكتاف العـــدو يقتلون ويأسرون فولى البرتغاليون الأدبار وحاول الحرس الملكى ان ينقذ العاهل من الهلاك فنصحه بأن يعود من حيث أتى لكنهم لم يجدوا جسراً كان هنا بالأمس ! وألقى الملك بنفســـه فى الوادى مفضـــلا الانتحار بالغرق لكن أحـــد المغاربة أهوى عليه بخنجره فجمع بين القتلتين !

ولقد لقى نفس المصير أحد الذين أصروا على الاحتفاظ بلقب الملك بالرغم من عزل الشعب له وحكم الفقهاء عليه بالمروق لاستنجاده بملك البرتغال على أخوانه ...

وشاءت الأقدار أن يلتحق بالرفيق الأعلى السلطان المولى عبد الملك فى أعقاب مرض اشتد عليه فى نفس اليوم ، ومن ثمت سميت الغزوة عند المؤرخين الأوروبيين بمعركة الملوك الثلاثة وربما سميت أيضـا معركـة القصر لأن مدينة القصر على ما قلناه كانت أقرب مدينة اليها . وهى المعركة التى نعتها الأوروبيون بالمعركة الحاسمة فى تاريخ الصراع بين المسيحية والاســلام .

وهكذا بايع المغرب السلطان أحمد المنصور الذى كان العضد الأيمن لأخيه الراحل المولى عبد الملك ، وقد هز هذا الحدث العظيم ملوك أوروبا وسلاطين القسطنطينية العظمى فبعثوا بسفرائهم يزفون التهانى ويعربون عن الأمانى ويحملون معهم التحف والهدايا طالبين المسالمة ، راغبين فى ابرام عقـود الصداقـة والاســلام .

ورأينا من جهة أخرى اليهود المقيمين بالمغرب يحفظون تاريخ هذا اليوم لأداء صلوات الشـكر لله على نجاتهم من احتلال كان سيعيد عليهم عهـد المحارق التى عرفوها فى قشتالة !

لقد وصلت لأخواننا أهل عمان دون شك أخبار الهزيمـة المنكرة التى الحقتها الجيوش المغربيـة بالرأس المدبر لحركة الغزو التى تترصـدهم فى الهند وتتربص الفرصـة للانقضاض عليهم ، تلك الحركات التى ستبلغ الغاية فى العتو عندما صمت فيها الآذان وجدعت الأنوف ! ..

فهل انتهى حسابنا مع الاستعمار ؟ لقد وجـد المغرب نفسه وجهاً لوجه مع فيليب الثانى الذى ألف دور سباستيان ، وقد مات دون أن يخلف وارثا حيث اندمجت البرتغال فى أسبانيا أزيد من ستين سنة ...

ومن سخرية القدر أن تتوسط اليزابيث الأولى للمطالب بعرش البرتغال ونجده يلتجىء الى المغرب ليطلب مساعدة العاهل على استرجاع ملكه الداثر علما منهم بأن عرشهم الذى ثلمته سيوفنا لا يتأتى جبره الا على يدنا» كما ينقلون اليها عنا : لنقف على التقرير الذى رفعه القنصل البرتغالى آنذاك ...

لقد وجد المنصور نفسه أمام قوة جديدة تحاول أن تركز قواها فى الصحراء المغربية لتضمن عبر الرجاء الصالح أو « المدخل » كما تسميه المصادر القديمة ، لتضمنه للوصول الى الهند وعمان ، ولتستعد بذلك لتطويق المغرب من ناحية الجنوب حتى لا يستطيع الحراك ...

وهناك كانت حركة المغرب الثانية فى الجنوب المغربى عندما قام السلطان أحمد المنصور بمسيرته الحمراء بعد أن استنفذ كل وسائله لاقناع المسئولين هناك بضرورة توحيد الكلمة ... لقد ذهل العالم لتلك المسيرة التى قضت على أحلام فيليب الثانى فى السيطرة على المواقع الساحلية المؤدية الى (المدخل) والتى كانت فى الواقع امتداداً لأهداف معركة وادى المخازن ... وقد تنفس أخواننا فى عمان الصعداء أيضا من هذه الأخبار التى وصلتهم عن طريق بريدنا الدائم مع الشرق : عن طريق السفراء المغاربة الذين ما انفكوا يتقاطرون على اسطانبول وقادة المشرق من أمثال سفير الخلفاء التامجروتى أخى صاحب كتاب (النفحة المسكية) ، عن طريق الحجاج ، على الأقل ، ممن كانت تجتذبهم المنطقة فينقلون لنا عنها كما ينقلون اليها عنا : لنقف على التقرير الذى رفع القنصل البرتغالى فى فاس بتاريخ ٣٠ مارس ١٥٤٢ الى دولته يخبرها بأن الحجاج المغاربة الواردين من المشرق نقلوا أخبار تحرك البرتغال أخيرا فى البحر الأحمر ، فعلا لقد كان دوفاسكو حاكم الهند قد توجه بتاريخ ١٧ أبريل ١٥٤١ من كوا على رأس قوة لمهاجمة السويس . . . كما لنقف على تقرير آخر بتاريخ ٨ أبريل من السنة يتحدث عن المسلمين المغاربة من

الأخبار الواردة على فاس حول انتصار حققه البرتغاليون فى المشرق •
ألا يدل هذا على التجاوب العميق بين المغرب والمشرق ؟

ولنحضر جميعا مجلس السلطان أحمد المنصور الذى عقده فى أعقاب تلك الانتصارات لتلقى تهانى الوزراء والكتاب والشعراء ، لقد تحركت أريحية الشاعر أبى عبد الله محمد بن على الهوزالى المعروف بالنابغة ، وقد كان من قوله فى سينية طويلة •

وحسبك من (وادى المخازن) وقعة … بها الشرك حتى آخر الدهر ناعس
وضاقت على (بستان) كل عويصة … وذلت لنا منه الأنوف الغطارس
فجهز ما تحوى ذخائر ملكه … يذود بها عن نفسه ويداعس

وقال أبو محمد عبد الواحد الشريف الحسنى السجلماسى فى عينيته :

إمام حمى الاسلام قائم سيفه … وروع أرض الشرك فهى بلاقع
سقاهم بكأس ما سقوا قط مثله … هو السم فى أمعائهم وهو ناقع
فكم مركب فى كيدهم ركبوا لنا … فعيق وصدوا وانثنى وهو ضائع !

ويقول أبو الحسن على بن منصور الشيظمى من همزية طويلة ، يشير فيها لمدينة القصر الكبير التى تقع على مقربة من وادى المخازن ، كما يشير لنهر النيجر بالسودان وتسمية المصادر المغربية بنهر النيل :

لكن جنى فتح كمثل المجتنى … بالقصر ، أو بالنيل دون إباء
القصر جر لقيصر الحتف الذى … أبقاه منقطع العرى بعراء
والنيل نال به الخليفة فتح ما … قد كان قبل أصم فى عمياء !

وله من قصيدة ثانية دالية بالمناسبة :

شامت بوارقها القتام وأرعـدت   هنـدا مـع السـند البعيد بأوعد
وقبيلهم تركت عسـاكر قيصـر   بالقصـر هلكى كالرمـاد الأرمد !

ويقول أبو عبد الله محمد بن على القشتالى :

وطويت فى السـودان مملكة لها   بين المشـارق والمغـارب محتـم
فأمدت الأمـلاك من أقطارهـا   رأح الضراعـة زنجها والديلـم !

وقـال أبو على المسفيوى :

كما فل غرب الروم سيف انتقامه   وطاف عليهم طائف القتل والأسر !

لقد قصدت الى استعراض بعض ما قيل فى هذه الملاحم الفريدة لأنها كما أشرت غيرت من خريطة العالم واقبرت مطامح الدول الاستعمارية الى الأبد وكان لها بعد هذا دور فى الهـاب الحركـة الوطنية هنا فى عمـان ضد القوات البرتغالية الغازية ...

وهل اكتفى الشعر بالاشتغال بالمغرب دون أن يلتفت الى عمان ؟ تعالوا بنا لنقرأ نونية طويلة لأبى فارس عبد العزيز الفستالى ملمحـاً لوقعة وادى المخازن وللمسيرة المغربية فى تخوم بلاد السـودان ؛ جـاء فيهـا ذكر عمان على أنه يبتهج بتلك الانتصـارات التى كان يعتبرهـا انتصاراته ... قال فى مطلعها :

هم سلبونى الصبر والصـبر من شأنى
وهم حرموا من لـذة الغمض أجفـانى

الى أن يقول متحدثاً عن كتائب أحمد المنصور :

وفتحــن أقطــار البــلاد فأصبحــت

تؤدى الخراج الجــزل أملاك ســودان

أيــا ناظر الاســلام شــم بارق المنى

وباكر لروض فى ذرا المجد فينـــان

* * *

فكم هنأت أرض العراق بك العـــلا

ووافت بــك البشــرى لأرض عمان !

فلــو شارفت شرق البــلاد سيوفكــم

أتاك اســتلابا تــاج كسرى وخاقان !

ان ذكر عمان هنا لم يكن من أبى فارس لتسديد وزن أوقافية ولكنه كان وليد معرفة ودراية بأحوال منطقة عمان على ذلك العهد كيف وهو كاتب أسرار الدولة المنصورية وهو المكلف بعلاقاته الخارجية ؟ ، وهكذا فإن ذكر عمــان له من الأهمية فى الذكر ما لايقل عن ذكر كسرى وخباقتيان ...

وهل كان نصيب (عمان) من الشعر المغربى فقط عندما حقق نصره على البرتغال ؟ لنزر أعظم وأقدم مؤسسة علمية ثقافية فى (فاس) : العاصمة الأولى للاسلام بديار المغرب الأقصى ، فهنا أنشأ السلطان عبد الله بن الشيخ ابن المنصور السعدى قبة عظيمة من الجهة الغربية من صحن المسجد على نحو ما فعل جده المنصور فى الجهة الشرقية ، تذكر القبتان المتقابلتان فيما يوجد

بقصر الحمراء فى غرناطة ، قال أبو العباس القاضى ، مما يوجد الى الآن منقوشا بداخل القبة المذكورة .

حزت المفاخر بالمنصور أجمعها — ومن علاه سناء المجد أوطانى
فخر الخلائف والاقيال من مضر — أشاع صيتى فى أطراف عمان !

وهكذا كنا نعيش مع عمان فى مواقعنا الحاسمة وفى أيامنا الباسمة وفى مجامعنا وجوامعنا ... ومن ثمت فلم يكن غريبا على السعديين أن يتلقوا أخبار تصدى أمام عمان وتاج اليعاربة ناصر بن مرشد للغزو البرتغالى ١٠٢٤ — ١٦١٥ بقلوب ملئها المسرة والبهجة فلقد برهن على أنه فى مستوى الأحداث وأنه فعلا جدير بالقيادة الرائدة :

أباد المشركين بسيف عدل — وأهل البغى فاقتضبوا اقتضابا
سقى أسيافه علق الأعادى — فما ضربوا بدورهم قبابا

إن دولة اليعاربة فى الخليج ودولة السعديين فى المحيط كلتاهما دقت المسمار الأول فى نعش الاستعمار بالمنطقتين فهل من حقنا أن لا نحفظ فى الخليج دور المنصور فى كسر شوكة البرتغال فى مسكد . وهل من حقنا ان لا نحفظ فى المغرب دور ناصر بن مرشد فى صمودنا لتحرير الثغور الباقية من بلادنا ، أنه لولا أمثال هذين القائدين العظيمين لكنا نتكلم اليوم بالبرتغالية على نحو بعض الدول الافريقية وأمريكا اللاتينية !

لقد كان المؤرخ البريطانى روبيرت ليندن منصفاً عندما ربط انهزام البرتغال فى الخليج بالضربة القاصمة التى لحقته فى المحيط ! وان الذين يغفلون عن هذه الحقيقة لمقصرون جدا فى ربط أحداث التاريخ بعضها

---

(١) تطبق المصادر على هذا التاريخ باستثناء مخطوطة « الشعاع » .

ببعض ! وهكذا فعندما نردد ميمية الشيخ خلف سنان الغافرى فى فتوحات الامام سلطان بن يوسف ابن عم الامام ناصر ! التى يقول فيها :

فغدت من عمان كف بنى الأصفر صفراً قد هزها الانهزام !

عندما نتذكرها أن نجعل نصب أعيننا بيت أبى فارس القشتالى :

فدم هنأت أرض العراق بك العلا   واوافت بك البشرى لأرض عمان !

ويتذكر المغاربة قاطبة أنه عندما كان السلطان محمد بن عبد اللـــه يرمى بآخر جندى برتغالى من ثغر مدينة الجديدة فى المحيط كان الامام أحمـــد بن سعيد يقذف بالمحتلين العجم فى عرض الخليج ••• وهكـــذا أيضـــا فكأنما كان هناك هاتف أحمر بين الملكين تعاهدا من خلاله عـــلى الاحتفاظ ببلادهما عربية القلب واللســـان !

وهل نغفل بعد هذه الاشارة للبعثة التى راحت من عمان الى بلاد المغرب تحمل رسالة الى الأخوان من أهل المغرب بمناسبة عقد البيعة للامام عزان بن قيس بن الامام أحمـــد بن سعيد سنة ١٢ ذى القعدة ١٢٨٥ — ٢٦ فبراير ١٨٦٩ فاعتمدا على ما أورده الامام السالمى صاحب تحفـــة الاعيان فقـــد أرســـل بخطاب كان من انشـــاء العلامة سعيد بن خلفان الخليلى يذكر فيه ان الباعث لتحرير الكتاب الإعلام بأن أهل عمـــــان وقد قدموا لهم إماما ذا ثقة ودين وعقل وشهامة وبطش شديد فى المهتدين وهو الامام عزان بن قيس بن الامام ••• ولـــا كانت هذه من أكمل النعم الدينيـــة •• وجب ان نعرفكم بها لأنكم شركاء فى كل مكان من الأمـــور الدينـــة المحمدية •• » •

لكن الأبواب كانت قد أوصدت دون رسالة عمان فقد احكمت القوى

الاستعمارية قبضتها على المغرب الأدنى والأوسط ••• وكان المغرب الأقصى يصارع لصد الاطماع الأوروبية عن ترابه •••

وبهذا نفسر عدم وجود صـــدى للرســـالة العمانية فيما عدى لاميه الشيخ أطفيش التى تحدث عنها صاحب التحفة والتى قال أنها كتبت للامام ، وقـــد جاء منها قوله :

على مـــاء بحر الروم آتيك مسرعا   اذا شـــــاء ربى أو ببر كرثبال

وبعد فان هناك فترات من تاريخنا البعيد ما تزال فى حاجة الى البحث والتنقيب ، وان فى صـــدر تلك الفترات هو مـــا عشناه فى تلك الظروف العصيبة التى استهدفت فيها بلاد المشرق والمغرب للغزو الأجنبى •

وانه اذا كان من حق الذين غزونا وهاجمونا فى عقر ديارنا أن يطمسوا معالم قوتنا وأن يكتموا جوانب تضامننا ومظاهـــر تجاوبنا مشرقا ومغربا ، فانه لا يحق بحال لمؤرخينا أن يغفلوا عن أى آصرة من الأواصر التى جعلت منامناضلين متمرسين على أرض متباعدة الأطراف ، وجعلت منا متناصرين هنا وهناك •••

ولعلهم يجدون فى هذه المواسم الثقافية عكاظهم الجديدة للتعريف بمخطوطاتهم وتسجيل الإفادات مـــن الشيوخ الطاعنين ، ومـــن الرواة المهتمين ••• لعلهم يجدون فى هذه المواسم الثقافية مجالا لنشر ما يترجم عن الوثائق المكتوبة باللغات الأجنبية عن عمان التى كانت ترهب ذات مرة باسطولها العتيد كلا من القارتين الهندية والافريقية وباقى ساحل الخليج•• لعلهم يرحلون الى ليشبونة ومدريد واسطانبول وطهران ، والى كل جهـــة تكون مظنة للبحث ، إن تاريخ عمان أكبر من أن تضمه كتب معدودة ذات مواضيع محدودة ، أنه أكثر من أن يكتفى فيـــه بالتعريفـــات السطحية

العائمـــة ... انه تاريخ لملحمــة ساخنة أسهمت فى تكوين الرجال ، وفى اعداد العلماء ، وفى إثراء المذاهب واغناء المعرفة ، وازدهار الملاحــة وتطور الفلاحــة وتدرج الصناعــة ...

أيهــا الســاده :

لعله من قبيل الصدف الجميلة بالنسبة الى ، أن أقدم هذه المسامرة فى نفس اليوم الذى سعدت فيه بزيارة السلطنة قبل سنتين ضمن الوفــد الرسمى الذى قــدم لهذه الديار برئاسة الوزير الأول معال السيد أحمد عصمان وانه لمن حسن الطالع حقا ان نشهــد ثمار ذلك الاجتماع الــذى تم بين الوفدين العمانى والمغربى والذى كان يهدف بحث امكانيات توسيع التعاون بين البلدين الشقيقين فى شتى المجالات بما فيها الثقافة والتعليم تحقيقا للرغبة الصادقة المتبادلة بين جلالة الملك الحسن الثانى وأخيه جلالة السلطان قابوس بن سعيد .

لقد شهدت السنتان الماضيتان فعــلا عدداً من مظاهر اللقاء على كل صعيد على كل مستوى ، وقد شاركتكم هنا فرقنا الفنية الفرحة بأعيادكم الوطنية ، وعما قريب ستسعد المملكة المغربية بالاسبوع الثقافى العمانى على أرضها حيث سترحلون بتقاليدكم وأمجادكم الى المغرب الأقصى وهناك سيتأكد المواطن المغربى عن هدية هــذا الشعب العمانى العريق الــذى استأســد على مسالك البحار ، الذى نراه اليوم يفجر الطاقات ويتحــدى الصخور والجبال .

ان كل ذلك يعتبر مؤشراً دالا على ما ستشهده بلادنا من تعاون مجدى مثمر فى سائر الميادين الأخرى من اقتصادية وتجارية وفنية وغيرهـــا .

أدام الله علينا جميعا نعمة الاستقرار والاستمرار الكفيلين وحدهما بتحقيق التقدم والازدهار وضمان العدل والسلام .

د . عبد الهادى التازى

اباضية عُمان
ونشر الإسلام فى بلاد المغرب

للأستاذة الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف



١ — انتشار الإسلام خارج شبه الجزيرة العربية :

امتدت الفتوح العربية الإسلامية الكبرى منذ وفاة النبى عليه الصلاة والسلام فى السنة الحادية عشرة للهجرة (٦٣٢ م) حتى أواخر العصر الأموى ، أى مدة قرن وبعض القرن . وأصبحت الأراضى التى يسيطر عليها العرب تمتد الى الهند والصين شرقا ، والى المحيط الأطلسى أو بحر الظلمات غربا ، ومن البحر الأسود والبحر الأبيض المتوسط وجبال البرانس شمالا الى بحر العرب وصحارى السودان جنوبا .

ونلاحظ أن حركة الفتوح الكبرى بدأت منذ أيام الرسول عليه الصلاة والسلام حين أراد توحيد شبه جزيرة العرب فى ظل الإسلام . إذ واجه الإسلام اندفاع بعض العرب فى العداء للإسلام ، كما واجه عداء بعض أهل الكتاب ، فكان لابد من تحرير شبه الجزيرة العربية من هؤلاء وهؤلاء . وكان الجهاد فرضا واجبا لحماية الدين الإسلامى ولحماية الدولة الإسلامية الناشئة .

ومالبث الفرس والروم أن تدخلوا فى الأرض العربية ضد المسلمين ، فكان لابد من رد اعتداءاتهم وتأديبهم وتأمين الدين الإسلامى والدولة الإسلامية ولم تكن الفتوح الإسلامية العظيمة للأسباب التى ذكرها المستشرقون ومن لف لفهم من الكتاب المسلمين والعرب ، أى لأسباب اقتصادية أو سياسية ، أو لنشر الدين الإسلامى بحد السيف ، وانما بدأت الفتوح الإسلامية لرد اعتداء المعتدين ، وتأمين الدعوة الإسلامية ، ولتحرير عرب شبه الجزيرة الذين كان يسيطر عليهم الفرس والروم .

ومع ذلك فنحن لاننكر أنه كان للفتوحات العربية أثر ملحوظ فى سرعة انتشار الدين الإسلامى فى كافة البلدان التى فتحها العرب خارج شبه الجزيرة العربية ، فدخل الدين الإسلامى فى هذه البلاد بدخول العرب فيها ، ومالبث أن تغلب على الأديان التى كانت موجودة

وســاد الإســلام • ومع ذلك فالثابت أن الدولة العربية التى قامت على أساس الإســلام والتى كان شعارها حماية ذلك الدين والقيام لنصرته ، لم تضطهد أحــدا من أهــل الذمة أو ترغمه على ترك دينه مترسمين فى ذلك أوامر الدين الحنيف •

فيقول الله تعالى : (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى)[١] ، ويقول سبحانه وتعالى مخاطبا الرسول عليه الصلاة والســلام : (ولو شــاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) [٢] •

وقــد رأينا العرب فى كافة البلاد التى فتحوها يخيرون أهلها بين ثلاثة أمــور : الإسلام أو الجزية أو الحرب • ولم يشتط المسلمون فى تقــدير الجزية ، بل راعوا فى تقديرها ثروة الفرد وأعفوا منها الفقير والمسكين ومن لا عمل له ، ومن لم يبلغ الحلم ، والعاجز عن الكسب •

ولم ينكر أحــد تسامح العرب الدينى فى البلاد التى فتحوها • وليس من شــك فى أن جوهر الدين الإســلامى وبساطته والسمو الخلقى للعرب جذب الى الإسلام الكثير من أهل البلاد المفتوحة •

وكانت هجرة القبائل العربيــة واستيطانها فى البلاد المفتوحة من أهم عوامل نشر الإســلام والتعريب • فلم تكن الفتوحات العربية فتوحات حربية وسياسية فقط ، وانمــا كانت فتحا دينيا إذ انتشر الإسلام وأصبح دين الأغلبية فى البلاد المفتوحة لأسباب تنوعت واختلفت بين إقليم وآخر •

كذلك كان فتح العرب فتحا لغويا فانتشرت اللغــة العربية فى الأقطار المفتوحة ، ثم أصبحت لغة الثقافة والفكر ولغــة التخاطب لأبناء معظم

---

(١) سورة البقرة : آية ٢٥٦ .
(٢) سورة يونس : آية ٩٩ .

تلك البــلاد • ولكن أهم من ذلك كله هو الاختلاط والاندماج الــذى تم بين القبائل العربية التى استقرت فى تلك الأقطار ، وبين أهــل البــلاد الأصليين ســواء أكانوا من الفرس أم الروم أم الشــاميين أم المصريين أم المغاربة أم الترك أو غيرهم من الشعوب والأجناس المختلفة •

أى أن معظم الأقاليم التى ساد فيها العرب ، بدأت تتعرب وتؤثر فى العرب • ولم يصبح العربى هو الــذى ينتسب الى قيس ومضر ، أو الى عدنان وقحطان فقط ، وانما أصبح العربى هو الذى يعيش فى ديار الإســلام ويتكلم العربية ويتثقف بآدابها ويفكر بلغتها • ولم يعد المجتمع العربى مقفلا على أبناء القبائل ، وانما أصبح مجتمعا مفتوحا لكل الذين يتكلمون العربية ويكتبون بها ويتأدبون بآدابها وينهلون من علومها وفنونها •

وكان عرب القبائل فى البداية يسمون أبناء البلاد التى فتحوها باسم « الموالى » ، وظلت هذه التسمية إلى القرنين الثالث والرابع الهجرى (التاسع والعاشر الميلادى) • ولكن هذه التسمية بدأت تذوب وتختفى مع اختفاء انســاب القبائل المختلفة فى معظم ديــار الإســلام خارج شبه جزيرة العرب • وظهرت القوميات المختلفة واضحــة قوية ، فكان هناك العراقيون وأهــل الشــام والمصريون والمغاربة وغــيرهم ، ولكن الكل أصبحــوا عربا وأصبحوا يشتركون فى تاريخ واحــد وتقاليد واحدة وآمال واحــدة وحضارة واحــدة : وأصبحت العروبة عروبة اللســان والفكــر •

٢ — فتح العرب لبلاد المغرب وإسلام المغاربة :

نقصد ببلاد المغرب ما يلى مصر غربا حتى المحيط الأطلسى ، وكانت بلاد المغرب تشمل برقة التى سماها الكتاب العرب انطابلس أو بنطابلس ، وطرابلس أو اطرابلس ، ثم أفريقية حتى نهر ملوية ، ثم المغرب الأوسط ثم المغرب الأقصى •

ويذكر المؤرخون القدامى مثل ابن عبد الحكم فى كتابه « فتوح مصر والمغرب والأندلس » ، والبلاذرى فى كتابه « فتوح البلدان » ، والبكرى فى كتابه « وصف أفريقية » ، أنه لم يكد يفرغ عمرو بن العاص من معاهدة الاسكندرية حتى سار فى جنده يريد أولى بلاد المغرب •

والحق ان السبب الذى حمل العرب على فتح مصر لتأمين فتوحاتهم فى الشام ، جعلهم يتجهون الى برقة وشمال أفريقية لتأمين فتح مصر • ولذلك توجه عمرو بن العاص بعد فتح مصر مباشرة فى سنة ٢٠ هـ (٦٤١م) الى برقة (انطابلس) ففتحها وفرض عليها الجزية • وفى سنة ٢٢ هـ (٦٤٢ م) غزا عمرو بن العاص طرابلس (اطرابلس) ويقال إنه غزاها فى سنة ٢٣ هـ (٦٤٣ — ٦٤٤ م) • وحين انصرف عمرو بن العاص من برقة وطرابلس ترك هناك عقبة بن نافع الفهرى ، وسيجده عبد الله ابن سعد بن أبى سرح فى برقة حين يقبل لاستكمال فتح شمال افريقية سنة ٢٧ هـ (٦٤٧ — ٦٤٨ م) • والمعروف أن برقة وما حواليها ظلت على طاعة المسلمين منذ الفتح •

ويشير المؤرخ البلاذرى — وهو من مؤرخى القرن الثالث الهجرى — الى إسلام أهل المغرب المبكر فيقول : « كتب عمرو بن العاص الى عمر ابن الخطاب يعلمه انه قد ولى عقبة بن نافع الفهرى ، المغرب فبلغ زويلة ، وان من بين زويلة وبرقة سلم كلهم حسنة طاعتهم قد أدى مسلمهم الصدقة وأقر معاهدهم بالجزية ، وانه قد وضع على أهل زويلة ومن بينه وبينها ما رأى أنهم يطيقونه وأمر عماله جميعا أن يأخذوا الصدقة

من الأغنياء فيردوها فى الفقراء ، ويأخذوا الجزية من أهل الذمة فتحمل اليه بمصر ، وان يؤخذ من أرض المسلمين العشر ونصف العشر ، ومن أهل الصلح صلحهم » [1] .

أما أهل شمال افريقية أو المغرب ، فكان اسمهم الأمازيغ نسبة الى جدهم مازيغ بن كنعان بن حام بن نوح عليه السلام [2] ؛ ثم سماهم العرب بربرا بتفخيم الراءين ، للغتهم التى لا يفهمونها . ولعل أصل كلمة بربر هى بارباروس التى أطلقها الرومان على أهل البلاد .

وكان البربر ينقسمون الى طائفتين متباينتين : البربر البرانس أو الحضر ، وكانوا ينزلون السهل الساحلى الذى يقع بين الجبال والبحر ثم ينتشرون على طول الجبال الممتدة من الشرق الى الغرب فى السفوح المزروعة والنواحى الخصيبة وينتشرون حتى طنجة .

أما البربر الرحل ، أو البتر ، فكانوا يعمرون الصحارى والواحات التى تلى ذلك جنوبا وشرقا .

ويجدر بنا أن نشير الى أن العرب فى فتوحاتهم لبلاد المغرب كانوا يحاربون الروم وليس أهل البلاد . بل إن العرب والبربر كانوا متشابهين الى حد كبير فى الحياة الاجتماعية وفى كثير من الصفات والعادات ، فالنظام القبلى أساس الحياة الاجتماعية عند العرب وعند أهل بلاد المغرب ، أضف الى ذلك الشجاعة وحب الحرية .

وقد تعاطف البربر مع العرب منذ البداية . وروى المؤرخون أن الجيش الذى قاده عقبة بن نافع ووصل به الى ساحل المحيط الأطلسى كان أكثره من البربر . كذلك نلاحظ أن الجيش الذى عبر به طارق بن زياد

---

(١) البلاذرى: فتوح البلدان ص ٢٣٢ .
(٢) محمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٢ هامش صفحة ٨٩ .

المجاز ، الذى سمى فيما بعد باسم مضيق جبل طارق ، كان أكثره من البربر •

وهذه ظاهرة تميزت بها فتوحات المغرب بعكس بلاد المشرق التى قام العرب بفتحها • لكن يجدر بنا أن نلاحظ أن فتح العراق وفارس والشام ومصر والفتح الأول لبلاد المغرب انتهى فى صدر خلافة عثمان بن عفان • وحين استؤنفت الفتوحات العربية فى الشرق فى خراسان وبلاد ما وراء النهر ، وفى الهند حتى حدود الصين ، وفى بلاد المغرب ، وبعد هجرة القبائل العربية واستيطانها فى البلاد المفتوحة ، وبعد امتزاج المسلمين الجدد بالمسلمين من السلالة العربية ، لم يجد الحكام العرب بدا من الاعتماد على أهل تلك البلاد فى الحرب والفتح والادارة •

كذلك نلاحظ أن فتح العرب لبلاد المغرب استغرق سنوات طويلة بعكس الفتوحات العربية الأخرى فى المشرق •

وتم فتح بلاد المغرب على مراحل مختلفة ولمع فيه أسماء كثير من القواد والمجاهدين • وكان ذلك راجعا الى طبيعة بلاد المغرب والى استماتة الروم فى الاحتفاظ بها وتحريضهم للبربر ضد العرب ، فضلا عن قيام الفتنة فى دار الخلافة أيام عثمان بن عفان ، ثم ماحدث بعد التحكيم وبسببه بين على بن أبى طالب وبين معاوية بن أبى سفيان ، وكذلك ماحدث بعد تولى يزيد بن معاوية الحكم وبعد وفاته •

وليس بمستغرب أن يستغرق فتح بلاد المغرب أكثر من ستين عاما وذلك للظروف المختلفة التى أشرنا اليها فضلا عن جغرافية بلاد المغرب التى تختلف من السواحل الى السهول والجبال والأودية والهضاب والمراعى والصحراء •

وقد أدرك المجاهدون المسلمون كل هذه الظروف والأحوال • وليس أبلغ من ذلك الوصف الموجز الذى أرسله حسان بن النعمان الأزدى الى عبد الملك بن مروان يقول فيه إن « أمم المغرب ليس لها غاية ، ولا يقف أحد منها على نهاية ، كلما بادت أمة خلفتها أمم » [١] •

لكن العرب تشبثوا باستكمال فتح بلاد المغرب وقدروا أهميتها فى أن تصبح معقلا للعروبة والإسلام • ولم يأت نهاية القرن الأول الهجرى حتى كان العرب قد سيطروا على بلاد المغرب ووصلت فتوحاتهم الى المحيط الأطلسى •

والمعروف من المصادر المختلفة أن الإسلام دخل شمال افريقية وبلاد المغرب منذ بداية فتحها على يد العرب • ويؤكد ابن خلدون ماذكره المؤرخون قبله من أن أهل المغرب أقبلوا على اعتناق الإسلام من زمن مبكر جدا فيقول : « وانساح المسلمون فى البسائط بالغارات ، ووقع بينهم وبين البربر زحوف وقتل وسبى ، حتى لقد حصل فى أسرهم يومئذ من ملوكهم وزمار بن صقلاب جد بنى حزر وهو يومئذ أمير مغراوة وسائر زناتة ، ورفعوه الى عثمان بن عفان فأسلم على يده ومن عليه وأطلقه وعقد له على قومه » [٢] •

ولم يكن العرب — فى أول عهدهم بالمغرب — من الكثرة بحيث يستطيعون التأثير بدينهم ولغتهم وثقافتهم فى المحيط البربرى الواسع • أما حيث استقر العرب فى أعداد وفيرة فنلحظ قوة تأثيرهم فى أهل المغرب مثلما حدث بعد تخطيط القيروان واقامة العرب هناك فى ولاية عقبة بن نافع الفهرى (٥٠ — ٥٥ هـ / ٦٧٠ — ٦٧٤ م) •

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٢٦ •
(٢) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٠٨ •

وقد أشار الى ذلك الكتاب القدماء ومنهم ابن الأثير[١] والنويرى[٢] • بل إن استشهاد عقبة بن نافع وأبى المهاجر دينار ومن معهما فى سنة ٦٤ هـ (٦٨٣ م) اهتزت لـه بـلاد المغرب كلها وكان لـه أثر بعيد فى نفوس الأهلين •

ثم ازداد انتشـار الإسـلام بين أهل شمال افريقية وخاصـة فى عهـد ولاية حسان بن ثابت أيام عبد الملك بن مروان • فأشرك حسان البربر فى استكمال فتح البلاد ، وذكر المالكى أن البربر أجابوه وأسلموا . واعتبر حسـان أرض المغرب مفتوحة صلحا وليس عنوة . كمـا منح أهل المغرب حق المسـاواة الكاملة بالعرب [٣] •

ثم أخذ حسـان فى تنظيم بلاد المغرب وتدوين الدواوين وفى اقامة العمال وفى انشاء المساجد فى المـدن والقرى ، وعين القضاة للنواحى كما اهتم بجباية الخراج والجزية والزكاة [٤] •

ثم جاءت المرحلة الأخيرة للفتح العربى لبلاد المغرب على يد موسى بن نصير أيام الوليد بن عبد الملك (٨٦ — ٩٦ هـ / ٧٠٥ — ٧١٥ م) • وازداد اعتناق البربر للإسـلام ، واشترك أهل بلاد المغرب فى استكمال فتحها وفى فتح بلاد الأندلس • وكان جيش طارق بن زياد الذى أبحر من المغرب لفتح الأندلس سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) يضم سبعة آلاف من البربر الذين دخلوا حديثا فى الإسـلام •

ويذكر ابن عذارى أنه لـما فتح موسى بن نصـير طنجـة أقـام عليها طارق بن زياد وأنه « أمر العرب أن يعلموا البربر القرآن وأن يفقهوهم

(١) أسد الغابة ج ٣ ص ١٨٤ .
(٢) نهاية الأرب ج ٢٢ ص ٦٨ أ (نسخة مصورة بدار الكتب المصرية) .
(٣) انظر : المالكى : رياض النفوس ص ٣٦ .
(٤) انظر : محمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٢ ص ١١١ — ١٣٢ .

فى الدين » [١] . ثم يذكر ابن عذارى أن موسى بن نصير ترك فى المغرب الأقصى سبعة عشر رجلا من العرب يعلمونهم القرآن وشرائع الإسلام « وقد كان عقبة بن نافع قد ترك فيهم بعض أصحابه يعلمونهم القرآن والإسلام » [٢] .

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٣٦ .
(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٣٧ .

٣ ـ الحكام الأمويون وولاتهم بعد فتح المغرب :

ـ سليمان بن عبد الملك : ٩٦ ـ ٩٩ هـ / ٧١٥ ـ ٧١٧ م) كان الفتح الإســـلامى للمغرب معناه حلول النور بعد الظلام . والتحرير بعد استبعاد الروم • وأصبحت المغرب قوة عظيمة للإســـلام ومركزا من أهم مراكز الإسلام والعروبة وإن كان المسلمون قد فتحوا البلاد بالسيف إلا أنهم كانوا يفتحون القلوب بدينهم •

وقد بدا اهتمام المسلمين واضحا ببلاد المغرب وذلك بتشبثهم باستكمال فتحها واهتمامهم بأمرها بعد الفتح • ومما يذكر أن سليمان بن عبد الملك الذى حكم الدولة الأموية بعد أن تم فتح بلاد المغرب ؛ وصى عامله عليها ، محمد بن يزيد مولى قريش ، فقال له :

« اتق الله وحده لا شريك له وقم فيما وليتك بالحق والعدل وقـــد وليتك افريقية والمغرب كله » [١] • ولمـــا ودعه انصرف وهو يقول : « مالى عـــذر عند الله إن لم أعـــدل » [٢] •

ـ عمر بن عبد العزيز : (٩٩ ـ ١٠١ هـ / ٧١٧ ـ ٧٢٠ م) كان عمر بن عبد العزيز يمثل من الناحية الزمنية فترة الانتقال بين القرن الأول والقرن الثانى الهجرى • أمـــا من الناحية الدينية والسياسية فقد كان عمر بن عبد العزيز يحاول العودة بالإســـلام الى سيرته الأولى والى إحياء خلافة أبى بكر وعمر ، ولهذا اعتبره جل المؤرخين خامس الخلفاء الراشدين• أمـــا بالنسبة لبلاد المغرب فإن خلافة عمر بن عبد العزيز تعتبر طفـــرة كبيرة فى نشر الإســـلام ، بل فى نشر الإسلام فى ديار الإسلام عامة •

وولى عمر بن عبد العزيز على بلاد المغرب اسماعيل بن عبد الله ـــ ابن أبى المهاجر • ، وهو حفيد أبى المهاجر دينار مولى بنى مخزوم ، وهو

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٤٤ .
(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٤٤ .

أحـد ولاة افريقية وفاتحيها الأوائل (٥٥ — ٦٢ هـ / ٦٧٤ — ٦٨٢ م) وأول من دخـل بـلاد المغرب الأوسط من الفاتحين العـرب • وعرف اسماعيل بن عبد اللـه بحسن سيرته وغيرته على الإسـلام ؛ وكان ذلك سببا قويا دعا الخليفة عمر بن عبد العزيز لاختياره واليا على بلاد المغرب فى سنة ١٠٠ هـ (٧١٨ م) ، فكان كما ذكر ابن عذارى « خير أمير وخـير وال »[1] •

وقد مثل هذا الوالى سياسة الخليفة خير تمثيل وحرص على نشر الإسـلام بين البربر وعلمهم الحلال والحرام ، فلم يبق فى ولايته يومئذ من البربر أحـد إلا أسـلم على يديه فى دولة عمر بن عبد العزيز[2] •

وبلغ من غيرة عمر بن عبد العزيز على الإسـلام أنه لم يعتمـد فى نشر الإسـلام بين أهـل المغرب على واليها اسماعيل عبد الله الذى يصفه الدباغ بأنه « كان فقيها صالحا فاضلا زاهدا »[3] • ولكنه بعث معه عشرة من التابعين من أهـل العلم والفضـل • ومن هـؤلاء العشرة أبـو الجهم عبد الرحمن بن رافع التنوخى الذى كان قد ولى قضـاء القيروان لموسى ابن نصير فى سنة ٨٠ هـ (٦٩٩ م) وتوفى بالقيروان فى سنة ١١٣ هـ (٧٣١م)•

ومنهم أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المعافرى الافريقى الحبلى وقد سكن القيروان وتوفى بها فى سنة مائة للهجرة وانتفع به أهل افريقية وبث فيهم علما كثيرا ومنهم أبو مسعود سعد بن مسعود التجيبى ؛ وقـد حضر ثورة الخوارج فى ولاية حنظلة بن صفوان • ومن هؤلاء التابعين اسماعيل بن عبيد الأنصارى المعروف بتاجر الله • ويذكر المالكى فى كتابه « رياض النفوس » ، والدباغ فى كتابه « معالم الإيمان » أنه عرف باسم « تاجر اللـه » لأنه جعل ثلث كسبه لله تعالى يصرفه فى وجوه الخـير ،

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٤٥ •

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس ص ٢١٣ ، وابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٤٥ ؛ والنويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ٨٣ أ

(٣) الدباغ : معالم الايمان ج ١ ص ١٥٤ •

ولم يزل مقيما فى القيروان الى أن خرج مجاهدا فى غزوة عبد الله بن رافع الى صقلية فغرق فى البحر سنة ١٠٧ هـ (٧٢٥ — ٧٢٦ م) .

وقد استقر أغلب هؤلاء العلماء فى القيروان وظلوا فى بلاد المغرب حتى بعد وفاة عمر بن عبد العزيز وعزل اسماعيل بن عبد الله [١] .

— **يزيد بن عبد الملك :** (١٠١ — ١٠٥ هـ / ٧٢٠ — ٧٢٤ م) لما ولى يزيد بن عبد الملك الدولة الأموية بعد وفاة عمر بن عبد العزيز ، عزل اسماعيل بن عبد الله عن المغرب بعد ولاية دامت سنتين وأشهراً ، وولى على المغرب فى سنة ١٠٢ هـ يزيد بن دينار بن أبى مسلم ، وكان كاتبا للحجاج ابن يوسف الثقفى وصاحب شرطته . وروى عنه أنه كان « ظلوما غشوما ». ولهذا ثار البربر على يزيد بن أبى مسلم وقتلوه لشهر واحد من امارته لسوء ولايته فيهم [٢] . وأقر يزيد بن عبد الملك ما فعله أهل المغرب فكتب اليهم بعد أن قتلوا يزيد بن أبى مسلم : « انى لم أرض عما صنع يزيد بن أبى مسلم [٣] .

— **هشام بن عبد الملك :** (١٠٥ — ١٢٥ هـ / ٧٢٤ — ٧٤٣ م) اصبحت بلاد المغرب منذ القرن الثانى الهجرى قطرا إسلاميا وجزءا حيا نابضا من العالم الإسلامى . وحين أسلم البربر أصبحوا من أشد الناس حماسة للإسلام ومن أشدهم حرصا على نشر رايته . ولكن بدأت عناصر الثورة تتجمع بين البربر ضد حكامهم وذلك بسبب استبداد بعض الولاة الأمويين ، وإسرافهم فى جمع المال ، وتفرقتهم بين العرب والمغاربة ، والإسلام لا يعرف حواجز الطبقات أو الجنس أو اللون .

---

(١) فيما يتعلق بالتابعين العشرة الذين أرسلهم عمر بن عبد العزيز الى بلاد المغرب انظر : المالكى : رياض النفوس ج ١ ص ٦٤ — ٧٦ ، والدباغ : معالم الايمان ج ١ ص ١٣٨ — ١٦٢ ، وابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٤٥ — ٤٦ ، ومحمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٢ ص ١٨٥ — ١٩٠ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس ص ٢١٣ — ٢١٤ ، وابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٤٦ — ٤٧ .

(٣) ابن الأثير : أسد الغابة ج ٥ ص ٣٨ .

وكانت القشة التى قصمت ظهر البعير هى تولية عبيد بن الحبحاب على بلاد المغرب من قبل هشـام بن عبد الملك • وكان عبيد الله بن الحبحاب قبل أن يلى بلاد المغرب ، يتولى خراج مصر منذ تولية هشـام بن عبد الملك حكم الدولـة الأموية فى سنة ١٠٥ هـ الى أن ولاه هشـام بلاد المغرب فى سنة ١١٤ هـ أو ١١٦ هـ • وتميزت ولاية ابن الحبحاب على خراج مصـر بالاستبداد والتعسف وجباية أقصى ما يمكن جبايته من أهـل مصر ممـا دفع المصريين الى القيام بأول ثورة ضـد الحكم الغربى فى سنة ١٠٧ هـ (٧٢٥م) [١] •

ولمـا سار عبيد الله بن الحبحاب الى بلاد المغرب اتبع نفس السياسة التى اتبعها فى مصر ، وهى استعلاء العرب وتميزهم عن أهـل البلاد ، وابتزاز أمـوال البلاد • ويقول ابن عذارى : « وكان الخلفاء بالمشرق يستحبون طرائف المغرب ويبعثون بها الى عامل افريقية ، فيبعثون لهم البربريات المسبيات ، فلما أفضى الأمـر الى ابن الحبحاب مناهم بالكثير ، وتكلف لهم أو كلفوه أكثر مما كان ، فاضطر الى التعسف وسـوء السيرة ، فحينئذ اعـتدت البربر على عاملـه فقتلوه وثـاروا بأجمعهم على ابن الحبحاب » [٢] •

واشتعلت الثورة فى المغرب الأقصى بزعامة ميسرة وذلك فى سنة ١٢٢هـ (٧٤٠ م) • وأحرز البربر الانتصارات ضـد الحكام العرب ، وشجعت تلك الانتصارات على إشعال لهيب الثورة ضـد العرب فى كل بـلاد المغرب [٣] • ويذكر الطبرى وابن الأثير أن أهـل المغرب لم يظنوا سوءا

---

(١) انظر : سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى فجر الاسـلام ص ٢٣٢ — ٢٣٥ و ٢٤٩ — ٢٥١ ، وما ذكرته من مراجع •

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٥٣ •

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس ص ٢١٧ — ٢١٩ ، وابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٥٢ وما بعدها ، وابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١١٠ وما بعدها ، وسعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ص ٢٥٢ — ٢٦٩ وما ذكره من مراجع ، ومحمد عبد الله عنان : دولـة الاسلام فى الأندلس ج ١ ص ١١٧ — ١٢٠ •

بالدولة الأمــوية ولم يسخطوا على الخلفاء فى بداية الأمــر وانما سخطوا على العمال ، وأنهم أرادوا لفت نظر الخلافة الى مساوىء عمالها فى المغرب .

وســار وفد من المغاربة برئاســة ميسرة ، وكان الوفد بضعة وعشرين رجــلا ، حتى قدموا باب هشــام بن عبد الملك . ولكن حيل بينهم وبين مقابلة الخليفة حتى طال عليهم المقــام فى دمشــق وعادوا ثانيــة الى بلاد المغرب دون أن يتعرفوا رأى الخليفة فى سياســة العمال التى تنطوى على تمييز العرب على المغاربة وعلى الأحجاف بالبربر .

ولهــذا فإنهم بعد عودتهم من مقر الخلافــة أعلنوا حربا عــلى الســادة الأمــويين وبدأت ثورة ميسرة فى المغرب الأقصى فى سنة ١٢٢ هـ ، وهى الثورة التى أسهبت فى الكلام عنها المصــادر والمراجع المغربيــة والمشرقية .

٤ — الفقهاء والدعاة وشخصية بلاد المغرب الإسلامية والعربية :

يعتبر تحول بلاد المغرب الى الإسلام والعروبة منذ أن دخلها العرب فاتحين فى بداية القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) من الأحداث التاريخية الكبرى • وأخذ المغرب القديم يختفى بحضاراته الواهنة وبأديانه ومذاهبه القديمة ، وبدأ يحل محله المغرب الإسلامى العربى • وأظهر البربر المسلمون كفاءة وقدرة وامتيازا فى ظل الإسلام والعروبة ، واستطاعت بلاد المغرب أن تساهم مساهمة جادة فى الحضارة الإسلامية الرائعة •

وكان إسلام أهل المغرب سريع الانتشار بالرغم من صعوبة طبيعة البلاد وصعوبة فتحها الذى استغرق أكثر من ستين عاما • إذ ماكاد القرن الثانى الهجرى يؤذن بالانتهاء حتى انتشر الإسلام بين أهل بلاد المغرب وأصبح الإسلام فيها جزءا من تراثها القومى •

وقد مر بنا أن قواد فتح بلاد المغرب اهتموا بتعليم البربر الإسلام وفرائضه • والمعروف أن الفقهاء والصحابة والتابعين انضموا الى الجيوش التى فتحت البلدان المختلفة فاشتركوا فى الجهاد وكان لهم دور بارز فى نشر الإسلام وتعليم أصول الدين الحنيف •

ومر بنا أن البربر كانوا نواة الجيوش التى ساعدت العرب فى اتمام فتح بلاد المغرب ثم فى فتح بلاد الأندلس وجنوب فرنسا •

وكانت قبائل البربر المحاربة تدخل فى الإسلام فى سهولة ويسر وذلك لما عرفه الإسلام من الجهاد والقتال فى سبيل الله • ورأينا كيف تميز عهد الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز بالرغبة القوية فى نشر الإسلام وتعليم أصوله لأهل بلاد المغرب فعين الخليفة على تلك البلاد واليا فقيها وأرسل معه عشرة من الفقهاء ليفقهوا مسلمى المغرب فى أمور دينهم ولينشروا الإسلام بين القبائل المغربية •

وقد لاحظنا أن المراجع الحديثة الأجنبية والعربية تغفل دور «الدعاة» الذين شقوا طريقهم بين البربر منذ القرن الأول الهجرى فاندسوا بين القبائل والأفراد ، فى الجبال والهضاب وفى السهول والمراعى والوديان . يعلمون عقيدة الإسلام وفرائضه بالحجة والاقناع وبالمثل الصالح .

وكان إغفال دور « الدعاة » أو الإشارة اليهم إشارة عابرة ، سببا فى إسقاط السبب الجوهرى لمرحلة هامة من مراحل تاريخ بلاد المغرب الإسلامى ، الا وهو سرعة استرداد المغرب لقوميته فى ظل الإسلام . إذ سرعان ما استرد المغرب فى ظل الإسلام شخصيته القومية فكان قيام الدويلات المغربية أول انفصال فى الدولة العربية الإسلامية الشاسعة الأرجاء .

ولم يكن قيام دول المغرب الإسلامى تعبيرا فقط عن سخط البربر ضد بعض الحكام العرب الذين لم يساووا بين العرب والبربر كما تصور ذلك المراجع الأجنبية ومن أخذ عنهم من المؤرخين العرب المحدثين ، وانما كان ذلك بالدرجة الأولى بتأثير « الدعاة » الذين انبثوا بين البربر لنصرة مذهب دينى معين ، أو للتمسك بأصول الإسلام ، أو لإحياء الإمامة الإسلامية العادلة .

وكان اغفال دور « الدعاة » أو التقليل من شأنه فى تلك المرحلة المبكرة أيضا من تاريخ بلاد المغرب الإسلامى ، سببا جعل المؤرخين العرب المعاصرين والأجانب لايتوافرون على دراسة تاريخ الدولة المغربية المستقلة التى قامت بفضل « الدعاة » وما كان لها من فضل فى نشر الإسلام والعروبة وفى المشاركة الجادة فى الحضارة الإسلامية .

وعلى هذا اعتبر المؤرخون العرب المعاصرون وكذلك المؤرخون الأجانب، نهاية المرحلة الأولى لنشر الإسلام فى بلاد المغرب تنتهى بنهاية خلافة عمر بن عبد العزيز ، أو بأواخر خلافة هشام بن عبد الملك حين اشتعلت ثورة ميسرة فى سنة ١٢٢ هـ .

أما المرحلة الثانيــة من مراحل نشر الإســلام فى بلاد المغرب فى نظرهم ، فتبدأ فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) حين أغار بنــو هلال وبنو سليم على بلاد المغرب من مصر فتم إســلام البربر ، وبعــد ظهور المرابطين فى بلاد المغرب فى القرن الخامس الهجرى ثم ظهور الموحدين فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) [١] .

والحق أن إســلام أهل المغرب تم عن طريق الدعوة والحجة والإقناع بفضــل الفقهاء والدعاة ، ولم يفرض بالقــوة أو بالسيف . ولم يستعبد الإســلام هذه الشعوب وانمــا أشعرها بالعزة والكرامــة وقوى فيها النزعــة الى الحرية والاستقلال . وقامت الدعوة الإسلامية على أساس مبدأ الحرية والإخاء والعدالة والمساواة العنصرية بغض النظر عن العرق أو اللــون . كذلك قام الإسلام فى بلاد المغرب على أساس حب الجــار والتسامح مع أهل الذمــة ومصاهرة البربر وانشــاء المســاجد وفتح المدارس والكتاتيب .

وكان انتشــار الإســلام فى بلاد المغرب كما كان فى مصر ، أسرع من التعرب . والإســلام ليس دينا فحسب وانمــا دين وعلم وخلق ، ولذلك ارتبط الإســلام بالعلم والتأدب بمكارم الأخلاق . وصحب إسلام البربر تعرب الكثير منهم وذلك لتعلم القرآن ولمعرفة العقيدة والفرائض والتفقه فى الإســلام وتأدية الصــلاة .

وكان انتشار الإســلام مصحوباً بنشــاط تعليمى واضح فكلمــا انتشر الإســلام فى مكان خف اليــه الفقهاء والعلماء . وأخــذ يزداد انتشار الإســلام فى بلاد المغرب منذ القرن الأول ثم الثانى الهجــرى ، ونسيت بعض القبائل البربرية أصــولها وصنعت لنفسها أصــولا عربية ،

---

(١) انظر مثلا : دكتور حسن ابراهيم حسن : انتشــار الاسلام والعروبة فيمــا يلى الصحراء الكبرى ص ٤ . وما اشــار اليه من مراجع اجنبية .

أو تعربوا تعربا تاما ، كما شاركوا مشاركة واضحة فى كافة نواحى الحضارة العربية الإسلامية .

ومن دراسة ما ورد من تراجم فى كتب طبقات فقهاء المغرب مثل : طبقات علماء افريقية لابى العرب التميمى . وكتاب رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وافريقية للمالكى ، وكتاب معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان للدباغ ، يتضح لنا رحيل الكثيرين من أهل بلاد المغرب الى المشرق للاستزادة من العلم والتثبت من اللغة ، كما يتضح لنا أن رعيلا أول من أهل بلاد المغرب برعوا فى الثقافة العربية وفهموها حق الفهم منذ القرن الثانى الهجرى .

وأصبح المغرب الإسلامى منذ القرن الثانى الهجرى قطرا إسلاميا وجزءا حيا نابضا من العالم الإسلامى ينفعل مع الفكر الإسلامى ومع أحداث العالم الإسلامى . كذلك تقبلت بلاد المغرب دعاة الشيعة والخوارج الذين وفدوا اليها إما هربا من الدولة الأموية ثم الدولة العباسية ؛ واما لنشر مذاهبهم فى مناطق أمينة وبعيدة عن مقر الدولة الحاكمة .

٥ — أباضية عمان والدعوة الى الإسلام والى الامامة العادلة :

حين أسلم أهل عمان كان إسلامهم عن فهم واقتناع وليس عن خوف ورهبة • وهذا واضح من الروايات التاريخية المختلفة التى ذكرها الرواة والمؤرخون ، والتى تحدثنا عن وفود العمانيين الى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وتلك التى تحدثنا عن رسل الرسول الكريم الى أهل عمان ، فضلا عن الروايات التى تبين ارتياح أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب لحسن إسلام العمانيين •

وبعد أن اعتنق العمانيون الإسلام أقبلوا بحماس بالغ على دراسة القرآن الكريم وعلم التفسير والحديث وغير ذلك من مختلف العلوم والفنون والآداب الإسلامية العربية • وخرج من عمان العلماء والنجباء والبلغاء الخطباء مما تشهد به كتب المؤرخين والأدباء وكتب الطبقات والتراجم •

واتصل العمانيون بأصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام ليأخذوا عنهم دينهم الصحيح ، فأخذوا عن أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأبى عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وعبد الرحمن بن عوف وعمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود وأبى ذر الغفارى وسلمان الفارسى وصهيب الرومى وبلال الحبشى وأبى بن كعب •

كذلك أخذ العمانيون العلم عن غير هؤلاء من أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأصبحت الصلة العلمية قوية بين عمان وبين المدينة المنورة •

وحين مصّر عمر بن الخطاب البصرة فى سنة ١٦ هـ (٦٣٧ م) قدم اليها نفر من العمانيين كان منهم كعب بن مسور الذى عينه عمر بن الخطاب قاضيا عليها • وأخذت البصرة تنمو تجاريا وسكانيا وعلميا

وثقافيا وقويت صلتها بعمان حتى شبهوا العلم « بطائر باض بالمدينة وفرخ بالبصرة وطار الى عمان » (١) .

ولم يكن عجيبا أن تزدهر عمان منذ فجر الإسلام ازدهارا كبيرا فهى فى ذلك مكملة لمسيرتها الحضارية عبر آلاف السنين .

وفضلا عن الازدهار العلمى فى عمان ، فإنها قامت بنشر الإسلام وتثبيت أقدامه فى أجزاء متفرقة من المعمورة حيثما حل طلاب العلم ، وحيثما وصل التجار العمانيون ، وحيثما التقى الحجاج فى بيت الله الحرام .

وحين يتكلم ياقوت الحموى (المتوفى سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م) عن عمان يقول : « وأكثر أهلها فى أيامنا خوارج اباضية ليس بها من غير هذا المذهب الا طارىء غريب وهم لايخفون ذلك » (٢) .

والحق أن عمان هى الموطن الأم للأباضية فى العالم الإسلامى . والأباضية بمعناها الواسع فى عمان تعنى الإسلام المستمد من أصوله وهى القرآن الكريم ثم الحديث والسنة الشريفة ثم الإجماع . أى أن المذهب الأباضى فى عمان أقدم من اسمه ، أما اسم أباضية فنسبة الى عبد الله ابن أباض الذى عاصر معاوية بن أبى سفيان مؤسس الدولة الأموية ، وعبد الملك بن مروان المؤسس الثانى للدولة الأموية .

وقد سماهم الأمويون « الأباضية » وأدخلوهم فى فرق الخوارج . ولم يقبل الأباضية فى بداية الأمر تسميتهم بهذا الاسم ولكنهم قبلوه منذ خلافة عمر بن عبد العزيز وبدأ اسم « الأباضية » يظهر فى كتاباتهم بعد ذلك .

---

(١) انظر السالمى : تحفة الأعيان ج ١ ص ٦٦ .
(٢) ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ٦ ص ٢١٥ .

أمـــا عبد الله بن أباض الذى أطلق اسمه على هذه الجماعة ، فقــد عاصر فقيه الأباضية وواضع مذهبها الامام جابر بن زيد . وكان ابن أباض من تلاميذه . وكان الأباضية قبل انتسابهم الى عبد الله بن أباض يسمّون أنفسهم باسم « الجماعة المؤمنة المسلمة » أو « المســلمين » أو « جماعة المســلمين » أو « أهــل الدعــوة » . وكان الأباضية يقبلون تسميتهم « المحكمة » لأنهم أبوا تحكيم الرجال فى الدين فقالوا « لا حكم الا لله » . وكذلك كان الأباضية يقبلون تسميتهم « الحرورية » ، وهم الذين رفضوا أن يدخلوا الكوفة مــع على بن أبى طالب بعــد موقعة صفين وبعــد أن قبل على التحكيم ، ودخلوا حروراء [1] .

كذلك تسمى الأباضية باسم « أهل الاستقامة » وتسمــوا باســم « الوهبية » نسبة الى عبد الله بن وهب الراسبى . كذلك تســموا باسم « أهــل النهروان » أو « أهل النهر » وهم الذين اعتزلوا على بن أبى طالب فى النهروان وقدموا على أنفسهم اماما وهو عبد الله بن وهب الراسبى .

كذلك كان الأباضية يتسمون باسم « الشراة » من قولهم » شرينا أنفسنا لدين الله فنحن لذلك شراة » [2] ، أو من الآية القرآنيــة الكريمة : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعــدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الــذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) [3] .

---

(١) حروراء : قرية بظاهر الكوفة تبعد عنها بميلين ، نزل بها الخوارج الذين اعتزلوا عليا فنسبوا اليها وسموا حرورية أو خوارج .
انظر لفظ حروراء فى معجم البلدان لياقوت ، والفرق بين الفرق للبغدادى ،

(٢) انظر : المقريزى : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ج ٢ ص ٣٥٥ — ٣٥٦ .

(٣) سورة التوبة : آية ١١١ .

وبالرغم من أن الأمويين والعباسيين ، أعداء الأباضية ، أطلقوا عليهم اسم « خوارج » فقد كان الأباضية يقبلون تسميتهم خوارج بمعنى « المسلمين » أو بمعنى « الخروج فى سبيل الإسلام » • ولعل كلمة خوارج بدأت تظهر حين خرج المسلمون على عثمان بن عفان بعد السنين الست الأولى من خلافته ، أو حين رفض المسلمون التحكيم بين على بن أبى طالب وبين معاوية بن أبى سفيان •

لكن الأباضية المعاصرين يتبرءون من اسم « خوارج » بعد أن أسىء فهم المذهب الأباضى ، وبعد أن جمع جل المؤرخين وكتاب الفرق والعقائد فضلا عن سائر الكتاب القدماء والحديثين ، بين الأباضية وبين الغلاة والمتطرفين والخارجين على الإسلام ، إما بواسطة الدعايات المسمومة للأمويين والعباسيين والفاطميين الذين حاولوا القضاء على الأباضية وعلى الدول الأباضية المستقلة ، وإما عن جهل ، أو تعصب ، أو عن رغبة فى تدمير كيان المسلمين وتحطيم قوة الإسلام •

وبينما نرى الأباضية يتبرءون من الغلاة والمتطرفين ، ويتبرءون من الخوارج الأزارقة والصفرية والنجدية ، نرى مثلا المؤرخ ابن خلدون يصف الصفرية بالاعتدال ويصف الأباضية بالغلو ! !

ومن خلال دراستنا للمصادر الإسلامية عامة والمصادر العمانية خاصة ، اتضح لنا أن دعوى الأباضية فى سبيل الإسلام ماهى فى الحقيقة الا ظهور أول الفرق الإسلامية التى تعتمد على القرآن الكريم وعلى السنة الشريفة وعلى الاجتهاد •

فحين ظهرت الفتنة الأولى فى الإسلام بعد السنين الست الأولى من خلافة عثمان بن عفان ، وحين قبل على بن أبى طالب التحكيم بينه وبين معاوية بن أبى سفيان ، اتسع خلاف المسلمين • وبدأ المسلمون يتساءلون عن المسلم الحقيقى وعن الإيمان وعن جوهر العقيدة الإسلامية وعن

مسئولية الإنسان وعن العدل فى الإسلام وعن الإمامة الاسلامية الصحيحة العادلة وعن إرادة الله •

ولم يكن اعتراض الأباضية على سياسة الخليفة عثمان بن عفان بعد السنين الست الأولى من خلافته ، ولا على الإمام على بن أبى طالب بعد قبوله التحكيم ، لأسباب سياسية أو لمنفعة مادية أو شخصية وانما لأسباب تمت فى رأيهم الى العقيدة الإسلامية •

ولم تكن الدعوة الأباضية دعوة فى سبيل الحكم كالدعوة العلوية التى ظهرت منذ قيام الدولة الأموية ومن بعدها العباسية لاثبات أحقية البيت العلوى فى الحكم ، ومثل الدعوة العباسية لاثبات أحقية بنى العباس فى الحكم دون بنى أمية وبنى على •

وانما عمل الأباضية فى كل العهود على أن يكون دستور الدولة هو القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، وأن يلتزم رئيس الدولة وعماله عدل الخلفاء الراشدين وتمسكهم بالدين فى سياسة المسلمين •

وكانت نشأة الأباضية بعد السنوات الست الأولى من خلافة عثمان ابن عفان (حوالى سنة ٢٩ هـ / ٦٤٩ م) ، أو حين قبل على بن أبى طالب التحكيم فى صفر من سنة ٣٧ هـ (٦٥٧ م) أثناء معركة صفين التى دارت بينه وبين معاوية بن أبى سفيان ، أو بعد اجتماع الحكمين وخلعهما لعلى ابن أبى طالب فى شهر رمضان من سنة ٣٧ هـ •

وكانت الصورة الايجابية لتلك النشأة بعد التحكيم وحين زالت بيعة على من أعناق الناس أن اجتمع الخاصة من الصحابة وكبار التابعين فى الكوفة وبايعوا لعبد الله بن وهب الراسبى فى العاشر من شهر شوال سنة ٣٧ هـ (٦٥٨ م) أميرا للمؤمنين • ولم يكن ذلك خروجا منهم إذ أن بيعة على بن أبى طالب قد زالت من أعناقهم بعد خلع الحكمين له ،

اللذين وكلهما ورضى بمـا يحكمان به ، فأصبحوا أحرارا يبايعون مـن شـاءوا .

وكان ممن أنكر التحكيم طائفتان . خاصـة سارت على نهج عبد الله ابن وهب الراسبى ومنهم العلماء المتفقهون فى الدين من الصحابة وكبـار التابعين مثل الأحنف بن قيس . وأبى بلال مرداس . وعروة بن حدير . وعـدى بن حاتم الصحابى ، وهؤلاء هم الذين سموا فيما بعد الأباضية .

أمـا الطائفة الأخرى ممن أبوا التحكيم فقد كان أغلبها من العامة . وقد وقع لهم رد فعل شـديد بعد معركة النهروان وقضاء على بن أبى طالب على من كانوا خاصته وأنصـاره وعلى عبد الله بن وهب الراسبى فى سـنة ٣٨ هـ (٦٥٨ م) .

وهؤلاء العامـة غلوا فى حماسهم وتطرفهم وغلوا فى دينهم . مثـل الأزارقـة وقائدهم نافع بن الأزرق ، والصفرية ورئيسهم عبد الله بن الصفار [١] والنجـدية ورئيسهم نجدة بن عامر [٢] .

وقد اختار الأباضية فى عمان طوال تاريخهم طريق الاعتدال وابتعدوا عن التطرف وجعلوا هدفهم الرئيسى اقامة تعاليم الدين الحنيف ونشـر الإسـلام والدعوة له ، أى أنهم ربطوا بين الإيمان وبين العلم والعمل .

والمعروف أن عمان هى موطن إمـام الأباضية وعالمها وفقيهها جابر ابن زيد الأزدى العمانى . وولـد جابر بن زيد قبيل نهاية خلافة عمر بن الخطاب بين سنتى ١٨ و ٢٢ هـ فى بلدة الفرق من أعمال نزوى فى عمـان . وجابر من ولـد عمرو بن اليحمد وهى من القبائل الأزدية فى عمان . وكان جابر بن زيد يكنى بابنته « الشعثاء » التى لايزال قبرها معروفا فى الفرق الى الآن . وتلقى جابر بن زيد بداية تعليمه فى وطنه عمان ، ثم رحل الى

---

(١) تسميه بعض كتب الفرق « زياد بن الأصفر » .
(٢) انظر : محمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٢ ص ٣٩١ .

البصرة للاستزادة من العلم والفقه . وكانت البصرة آنذاك احـــدى المراكز العلمية الهامة فى ديار الإســـلام كما كانت مقرا للعلماء الأعلام من أهل عمـــان حتى كادت البصرة أن تكـــون عمانيـــة .

وكان جابر بن زيد من كبار التابعين ، أدرك سبعين صحابيا من أهـــل بدر . وكان عبد الله بن العباس — أو البحر — من أعظم أساتذة جابر ، وكان يفخر بتلميذه الـــذى تعمق فى دراســـة القرآن الكريم والحـــديث الشريف وعلوم الشريعة الإسلامية .

كذلك أخذ جابر العلم عن السيدة عائشة أم المؤمنين ، وعن أنس بن مالك ، وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعن غيرهم من صحابة رســـول الله عليه الصـــلاة والســـلام .

وعاصر جابر بن زيد كثير من العلماء والفقهاء مثل الحسن البصرى وعمرو بن دينار وغيرهما لكن جابراً تفوق عليهم جميعا فى العلم والخلق والشجاعة فى الرأى . فكان ينشر العلم فى المســـاجد والمجامع ويجاهد فى سبيل إحياء سنة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ويدعو سرا وعلنا الى ضرورة محافظـــة الأمـــة الإسلامية على شريعة الله متمثلا بقوله تعالى : (كنتم خير أمـــة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمـــن أهـــل الكتاب لكان خـــيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون) [1] .

وعنى جابر بتدوين الأحاديث والسنن ، وروى عنه أكثر أهل المذاهب واعتمدوا على ثقته وأمانته ، واعتبره أهل السنة من المحدثين الثقاة ومن الفقهاء البارزين .

ويعتبر جابر بن زيد مؤسس المذهب والفكر الأباضى . وبالرغم من أنه قضى معظم حياته العلمية فى البصرة وفى عصر سلطان الأمويين حيث

(١) ســـورة آل عمران : آية ١١٠ .

كانت يد الحجاج بن يوسف الثقفى تبطش بكل مناوىء للدولة ، إلا أنه التزم برسالته الدينية العلمية • وألف جابر موسوعته العلمية النفسية التى عرفت باسم « ديوان جابر » وذلك فى النصف الثانى مـن القرن الأول الهجرى • وقيل إن عبد الملك بن مروان وبنيه استولوا على « ديوان جابر » وحرموا دراسته ونشره على الناس • وروى أن العباسيين حرموا عـلى الناس استنساخه ووضعوه فى مكتبة دار الحكمة فى بغداد وكانوا يعلمون أنه من مفاخر المسـلمين • وكان ديوانه العظيم ثروة علمية عظيمة ومن تراث الأباضية العلمى العظيم [1] •

وكان الامام جابر بن زيد يحض تلاميذه على العمل على قيام الإمامة العادلة المبنية على الاصـول الصحيحة للإسـلام ، والتى تجدد عهـود الخلفاء الراشدين والتى تلتزم سـيرة أبى بكر وعمر فى العدل والمساواة والشورى وعدم الاستبداد •

وفى فترة نفى الحجاج بن يوسف الامام أبا الشعثاء جابر بن زيد الى وطنه عمان • لكن البصرة كما ذكرنا كانت عمانية فى سكانها وبعلمائها ، وكان اتصـال أبنـاء العشـائر والقبائل بعضهم ببعض من أكبر العوامل التى ساعدت على انتشار علم ومبادىء جابر بن زيد بين مواطنيه العمانيين ، هـذا بالاضافة الى حلوله بينهم فترة من الزمن حين نفاه الحجاج مـن البصرة الى عمـان •

ولانتبين من المصـادر المختلفة متى نفى جابر بن زيد الى عمـان ولامتى عاد ، لكن الثابت أن أبا الشعثاء عاد الى البصرة مكملا لمذهبه الدينى والسياسى ، محاولا القضاء على الملك المستبد الذى لايستند على القرآن والسنة والإجماع • وقد توفى جابر بن زيد فى البصرة فى سنة ٩٣ هـ (٧١١م)

---

(١) انظر : الشماخى : كتاب السير ص ٧٠ ، ومحمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٣ ص ١٣٨ — ١٤٩ ، والسيابى السمائلى : أصدق المناهج فى تمييز الأباضية من الخوارج ص ٥٩ .

أو فى سنة ٩٦ هـ (٧١٤ م) ، أو فى تاريخ بين هاتين السنتين بعد أن انتفع بعلمه الكثيرون الذين حملوا رسالته من بعده .

والحق أنه حين وفاة الامام أبى الشعثاء كانت الدعـوة الأباضية قد بدأت تزدهر وتجـذب اليها الكثير من القبائل وأهل البلاد الإسلامية . وزاد فى نجاحها ما لاقته دول العالم الإسـلامى حينذاك من تعنت كثير من ولاة الأمويين . وتكاتف العلماء العمانيون والبصريون الأباضية من تلاميذ أبى الشعثاء وأصحابه فى العمل على انتصـار الحركة الإسلامية الأباضية . ونجح تلميذ أبى الشعثاء وزميله ، أبو عبيدة مسلم بن أبى كريمـة التميمى بالولاء البصرى ، فى حمل رسالة أبى الشعثاء الدينية والسياسية ، وأخذ هو وأعوانه فى تنظيم الحركة الأباضية التى انتصرت فى عمان — موطن أبى الشعثاء — وقامت الإمامة فيها ، كمـا قامت فى حضرموت واليمن ، وفى بلاد المغرب .

٦ ــ الدعوة الأباضية فى بلاد المغرب :

كانت بلاد المغرب قبل الإسلام وبعد فتحها على يد العرب وطنا واحدا ، وكانت القبيلة الواحدة تتفرق فى كافة أجزائه .

وقد عرفنا أن التهيؤ لدور المغرب الإسلامى بدا ببداية الفتح الإسلامى لتلك البلاد . أما دور ازدهار المغرب الإسلامى فسيبدأ بالدول الإسلامية الأباضية المستقلة فى بلاد المغرب .

وقد أغفلت جل المصادر القديمة فضلا عن المراجع الحديثة دور الدعوة والدعاة الأباضية الهام فى بلاد المغرب ، كما جاءت بعض الحقائق بعيدة عن الحقيقة . ولعل عذر الكتاب قديما وحديثا أن الأباضية واجهوا خصوما مستبدين أقوياء عملوا على كتمان نشاطهم وعلى إخفاء مجهوداتهم الرائعة فى سبيل نشر الإسلام فى المغرب الإسلامى وفى سبيل إقامة الدول الإسلامية العادلة .

وكان من خصوم الأباضية الأقوياء الدولتان الأموية والعباسية والدولة الفاطمية ، ففتكت تلك الدول بمصادر وتراث الأباضية العظيم كلما أمكنهم ذلك .

أما المصادر الأباضية التي حفظت من يد العبث والضياع فلا زال معظمها مخطوطا أو غير معروف للباحثين . ولهذا نجد المراجع الأجنبية والعربية العديدة التى رجعنا اليها لا تتحدث عن نشاط الدعاة للإسلام فى القارة الأفريقية قبل القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) . ومر بنا أن أبا الشعثاء جابر بن زيد كان من أكبر منابع العلم فى عصره وكان من أنصار الدعوة للإمامة الإسلامية العادلة . وكانت البصرة ــ الوطن الثانى للعمانيين آنذاك ــ مركزا ينبعث منه الدعاة ويأتى اليه الطلاب وتخرج منه التوجيهات والإمدادات المالية .

وحين وفاة الإمام أبى الشعثاء فى أواخر القرن الأول الهجرى ، كانت الدعــوة الأباضية قد بدأت تشق طريق النجاح فى كثير من ديار الإسلام • وكان الأباضية يعتمدون فى نشر مذهبهم وفى نشر الإسلام على الحجة والإقناع وليس على القوة أو العنف • وخير شـــاهد على ذلك الرســـالة المشهورة التى كتبها عبد الله بن أباض ردا على رسالةعبد الملك بن مروان اليـــه •

وفى كتاب عبد الله بن أباض الى عبد الملك بن مروان يتبين لنا شجاعته فى الحق وقوته فى المناظرة والمجادلة ، كما نعرف من هذا الكتاب آراء هذه الجماعة المسلمة المؤمنة التى سميت فيما بعد باسم « الأباضية » [(١)] • ويتبين لنا من نجاح الأباضية فى تأسيس دولهم فى المشرق والمغرب ، أن دعاتهم كانوا مدربين تدريبا واعيا لنشر الإسلام واحياء الامامة الإسلامية العادلة بطريق الاقناع والتعليم والمناقشة والمنطق •

ولاشك أن الدين الإسلامى ورباط الإســـلام كان أعظم أســـباب حفظ الوحدة بين المشرق والمغرب ، وجعل العالم الإســـلامى جسما واحدا متراص الصفوف والبنيان •

ويبين تاريخ الأباضية فى بلاد المغرب بوضوح صلة المغرب العربى الإسلامى بالمشرق العربى الإسلامى • وكان أباضية عمان وعلماؤها يقودون هذه الصلة دائمـــا ويحرصون عليها ، وأصبحت المغرب بفضل هذه الصلة القوية أصيلة فى العروبة والإســـلام •

وقد عرف المسلمون المجاهدون من الصحابة والتابعين بلاد المغرب فى زمن الفتح • ثم نرى موسى بن نصير ، آخر قـــواد فتح المغرب ، يستكثر

---

(١) وردت هذه الرسالة فى معظم المراجع الأباضية انظر مثلا : البرادى : الجواهر المنتقاة ص ١٥٦ — ١٦٧ ، والسيابى السمائلى : ازالة الوعثاء عن أتباع أبى الشعثاء ص ٨٦ — ١٠٠ •

من سبى البربر ويصحب العديد منهم الى دار الخلافة . كذلك استكثر ولاة الأمويين فى المغرب ، وخاصة عبيد الله بن الحبحاب ، من سبى البربر الذين كانوا يرسلون الى مقر الدولة الأموية .

وانبث البربر فى الجيوش الإسلامية وفى القصور وفى حلقات العلم وفى سائر الأعمال ، وأصبح منهم العلماء والقواد الأبطال والجند الشجعان والشخصيات البارزة التى تمتاز بحب العمل واتقانه وبالنشاط والمثابرة والأمانة . وبدأنا نجد بعض الأمراء وغير الأمراء من أمهات بربريات فكانت أم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك — والذى عرف فيما بعد باسم عبد الرحمن الداخل — من قبيلة نفزاوة المغربية ، وكانت أم أبى جعفر المنصور سلامة البربرية .

ولاشك أن دعوى الخوارج عامة — والأباضية خاصة — قد أثرت تأثيرا كبيرا فى البربر وذلك لتعلقهم بالعدل والمساواة وحبهم للحرية . وكان تعسف وظلم بعض الولاة الأمويين فى بلاد المغرب قد جعلهم يتلمسون النجاة ويتعلقون بالدعوة الى التمسك بأصول الدين الحنيف والى وجوب التمسك فى السياسة بالدين والى وجوب إحياء الامامة العادلة .

والأباضية يتقيدون بمقاييس الإسلام فى تفضيل الرجال ، وبمعايير الدين فى اختيار الرؤساء ، فهم لايتعصبون للقبيلة ، ولا يؤثرون الرجل لماله أو لحسبه ونسبه ، فليس هناك تفاضل بين مسلم ومسلم الا بالعمل الصالح والتقوى . وقد قام الإسلام على أساس الحرية والإخاء والعدالة والمساواة والتسامح الدينى ، وأثر عن النبى عليه الصلاة والسلام انه قال : « اسمعوا وأطيعوا ولو ولىّ عليكم عبد حبشى » .

والأباضية يقولون إن الإمامة لايراعى فيها العرق ، ولكن الكفاءة والتقوى والعلم . ولم يكن أبو الشعثاء جابر بن زيد ، يعمل ضد الأمويين لحب الملك أو بدافع العصبية ، ولكن للرجوع الى الإمامة التى تتقيد بالدين والى العدل بين المسلمين كما أمر الله تعالى .

وقد عرفنا أن نواة الأباضية تكونت من العلماء الصحابة والتابعين ، ومن القراء الذين تمسكوا بالدين • وحين أحدث عثمان بن عفان وغير وخالف بعد السنين الست الأولى من حكمه وثار عليه المسلمون رماهم بالخروج عن الطاعة ، وحين اعتزل القراء على بن أبى طالب بعد قبوله التحكيم رماهم أعداء على بالخروج وسموهم خوارج •

وأخذ الأمويون يتتبعون الخوارج تقتيلا وتشريدا وتعذيبا وسجنا ، المعتدلين منهم والمتطرفين ، وذلك لأنهم رأوا فيهم عدوا دينيا يحاربهم لعدم تمسكهم بالدين فى سياستهم ، كذلك رأوا فيهم عدوا دنيويا يحارب دولتهم التى لاتتمسك بالامامة العادلة •

وفى الوقت نفسه كان الخوارج يرون أن من الواجب عليهم جهاد الظلمة وانكار الجور ، وكانوا يمتازون بالشجاعة والايمان العميق رجالا ونساءاً ، كما كانوا لايبالون بالاضطهاد وكانوا يبثون تعاليمهم سرا وعلانية كلما سنحت لهم الفرصة • وقد روى صاحب الأمالى أن الراضف ابن قيس — وكان ممن رفضوا التحكيم ثم صار بعد ذلك أباضيا — دخل على معاوية بن أبى سفيان فقال له : لم يحبك الناس وأنت من الخوارج ؟ فأجابه : لو عاب الناس الماء ما شربوه ! !

والحق أن دعاة الخوارج والأباضية أخذوا على عاتقهم الدعوة لنشر الإسلام فى كافة البلاد المفتوحة فضلا عن الدعوة للامامة الإسلامية العادلة • وليس من شك فى ان الإسلام علا بقوة المؤمنين الذين نشروا الإسلام وأيدوا الدين •

ولانعرف تماما متى دخل المذهب الأباضى أو مذهب الخوارج فى بلاد المغرب • ويربط ابن خلدون بين دخول هذا المذهب وبين مقتل يزيد بن أبى مسلم فى سنة ١٠٢ هـ (٧٢٠ م) [1] • لكننا ينبغى أن نأخذ آراء ابن

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١١٠ •

خلدون بحذر فيما يتعلق بالأباضية أو الخوارج ؛ إذ أن مايورده بخصوص الأباضية يجعلنا نعتقد أنه لم يفهم حركتهم حق الفهم ، أو أنه تأثر بدعايات الدول الأموية والعباسية والفاطمية ضدهم • فهو مثلا حين يتكلم عن دعوة « الدعاة » الى العمل بالكتاب والسنة والإصلاح ، يسمى هذه الدعوة إلباس الحق بالباطل [1] •

وليس من شك فى أن أحداث بلاد المغرب تبين أنها حفلت بالكثير من دعاة الأباضية أو الخوارج بدليل قيام الدول الأباضية المستقلة قبل قيام الدول المستقلة فى مصر الإسلامية وفى المشرق الإسلامى بنحو قرن من الزمان ، باستثناء امامة عمان وحضرموت واليمن التى قامت وانتهت فى آخر الدولة الأموية وبعد قيام الدولة العباسية بقليل •

وقد سبقت الدول الأباضية فى بلاد المغرب دولة الأدارسة العلوية ، ودولة الأغالبة السنية ، كما حاولت تهذيب دول الخوارج الصفرية •

ومن الراجح أن الأباضية اشتركوا فى الجهاد واستكمال فتح بلاد المغرب بعد الفتنة التى بدأت فى أواخر خلافة عثمان بن عفان وفى أيام على ابن أبى طالب •

أما الدعوة لنشر الإسلام وإقامة العدل فقد تمسك بها الأباضية منذ البداية وكانت من أهم تعاليمهم • وأكد الأباضية فى مختلف العصور والأزمنة واجبهم فى نشر الإسلام والدعوة اليه • ونرى مثلا فى سيرة الشيخ الفقيه العمانى أبى المؤثر الصلت بن خميس فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) والتى وردت فى مخطوط « كتاب سير الأئمة القائمين بالحق فى الأمة » وهو المعروف باسم « السير والجوابات عن العلماء والأئمة رحمهم الله تعالى » مانصه : « فان استطاعوا أن يتعدوا مصرهم

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١١٠ .

الى غيرهم وجب ذلك عليهم كلما قدروا عليه فليدعوا الناس الى الدخــول فى دين الله والتسليم للعدل » [١] .

واعتبر أباضية عمان أن أمرهم واحد فى المشرق والمغرب . ففى سيره الامام محبوب بن الرحيل [٢] الى أهل عمان يقول : « وكانت المحكمــة واحد لو حكم رجل من المغرب تولاه من كان منهم بالمشرق . ولو حــكم بالمشرق تولاه من كان بالمغرب » [٣] .

وفى هذه السيرة التى كتبها محبوب بن الرحيل ، العالم والفقيه الأباضى فى أواخر القرن الثانى الهجرى أو أوائل الثالث الهجرى . يتبين لنا أن الأباضية ، أو المحكمــة ، كان أمرهم واحدا حتى خرج نافع بن الأزرق وغيره من أصحاب الفرق المتطرفة من الخوارج منذ النصف الثانى من القرن الأول الهجرى .

وقد اعتبر الأباضية ، الإيمان ونشر الإســلام والعدل والعمل والإمامة العادلة وعدم التطرف ، هدفهم الرئيسى من مشرق العالم الإسلامى الى مغربه . واعتبر الأباضية أن المسلمين بنيان واحد متراص لا انفصام فيه بين الشرق والغرب .

وهذه المسئولية الكبرى التى حملها الأباضية بدأت ببداية إســلام العمانيين واستمرت فى طريقها بعــد الأحداث التى حدثت فى أواخر خلافة عثمان بن عفان ، وبعد قبول على بن أبى طالب التحكيم . وصمــد الأباضية

---

(١) انظر صفحة ٦٠٩ من المخطوط . والمخطوط محفوظ فى وزارة التراث القومى والثقافة فى سلطنة عمان تحت الرقم العام ١٨٥٤ والرقم الخاص ٢ .

(٢) محبوب بن الرحيل : من علمــاء الأباضية فى عمان فى القرن الثانى الهجرى وأوائل الثالث الهجرى . اما جده فهو العنبر من تلاميذ الامــام أبى الشعثاء . وأسرة محبوب بن الرحيل الى الامام سعيد بن عبد الله ، من أهل الفضــل والفقه والعلم .

(٣) انظر مخطوط « السير والجوابات » ص ٣٥٦ .

أمام الأحـداث رافعين لواء الإســلام القائم على القرآن الكريم وعلى الاحاديث النبوية وعلى السنة الشريفة ، وعلى الإجماع وعلى آثار أئمـة الهدى •

واعتمد علماء وأئمـة الأباضيـة فى تمويل الـدعاة على التجـار الأباضية الأغنياء ، وعلى ما يؤديه الأباضية من زكاة ، وعلى ما يتبرع به الأباضية رجالا كانوا أو نسـاء ، وهذا واضح من المصادر الأباضية المطبوع منها والمخطوط •

وكانت علاقة الحجاج بن يوسف الثقفى العدائية مع أسرة المهلب بن أبى صفرة لها أكبر الأثر فى انضمام كثير من أفراد هذه الأسرة الى الامام أبى الشعثاء جابر بن زيد • ويدلنا على كياسـة جابر بن زيد وشجاعته وايمانه العميق برسالته ودعوته ، أن دروسه وتوجيهاته كانت فى البصرة حيث كان يسيطر عليها وعلى شرقى العالم الإســلامى بيد من حديد منذ سنة ٧٥ هـ الى سـنة ٩٥ هـ (٦٩٤ — ٧١٤ م) الحجاج بن يوسف أيام عبد الملك بن مروان وابنه الوليد • ولم يستطع الحجاج ان يفعل ازاء أبى الشعثاء شيئا إلا أن نفاه فترة من الزمن الى وطنه عمان •

وكان أخطر أعداء الأمويين هم الشيعة والخوارج والأباضية ، وإن كان الأباضية لم يظهروا العنف والشدة والتطرف كما فعلت الفرق الأخرى واستخدم الحجاج كل أساليب القمع والشـدة ضد الفرق المناوئة للحكم الأمـوى ، لكن أبا الشعثاء استمر فى دروسه وتعاليمه وسط هـذا الجو المشحون بالإرهاب والشدة مكونا بذلك مدرسـة من تلاميذه حملوا مـن بعده تلك الشعلة المضيئة بنور الإيمان وبقوة الصبر والاحتمال والعمل •

وبدأ الأباضية يلتقطون أنفاسهم بعد وفاة الحجاج بن يوسف الثقفى وفى حـكم سليمان بن عبـد الملك ، رأينـاه يوصى عاملـه على المغـرب بأن يتقى الله وأن يسير سيرة الحق والعدل • وازداد الأباضية ارتياحا

حين تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة . والمعروف فى التاريخ أن عمر بن عبد العزيز كان حريصا على توحيد صفوف المسلمين والتزام عدل الإسلام .

ولم يكد يتولى عمر بن عبد العزيز الخلافة حتى أرسل له الأباضية وفدا من علمائهم وهم جعفر بن السماك ، وأبو الحر على بن الحصين العنبرى ، والحتات بن الكاتب ، والحباب بن كليب ، وأبو سفيان قنبر البصرى ، وسالم بن ذكوان . كذلك تذكر بعض المراجع الأباضية أن عبد الملك ابن الخليفة عمر بن عبد العزيز كان أباضيا [١] .

وكما كان عمر بن عبد العزيز خيرا على الأمة الإسلامية كلها كان خيرا كبيرا على بلاد المغرب ، وقد مر بنا حرصه الشديد على نشر الإسلام فى بلاد المغرب . وتكاتفت جهود الخليفة مع جهود الأباضية لنشر الإسلام بين المغاربة . ونسمع فى وقت واحد فى أواخر القرن الأول الهجرى وأوائل القرن الثانى عن داعيتين أحدهما أباضى والآخر من الخوارج .

أما الداعية الأباضى فهو سلمة بن سعد الحضرمى [٢] ، وأما الداعية الآخر فهو عكرمة الذى ينتسب اليه الخوارج الصفرية فى بلاد المغرب [٣] . ولعل صحبة سلمة وعكرمة توضح أن الداعيتين كان لهما هدف واحد وهو نشر الإسلام بين البربر والدعوة الى المساواة بين جميع المسلمين والى الرجوع بالإسلام الى نقائه الأول والى احياء الامامة العادلة.

---

(١) الدرجينى : طبقات الاباضية . ورقة ٩٩ ، والشماخى : سير ص ٧٩ — ٨٠ ، ومحمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٢ ص ١٧٥ و ١٨١ — ١٨٢ .

(٢) انظر : ابو زكريا : السيرة واخبار الائمة : ورقة ٣ ، والدرجينى : طبقات الاباضية : ورقة ٤ ، والشماخى : سير ص ٩٨ و ١٢٣ ، وعوض خليفات : نشأة الحركة الاباضية ص ١٣٣ .

(٣) ابو زكريا : السيرة : ورقة ٣ ، والدرجينى : طبقات الاباضية : ورقة ٤ .

ونلاحظ أن عكرمة كان أصله من بربر بلاد المغرب وكان مولى لحصين العنبرى ، فوهبه لعبد الله بن العباس حين ولى ابن العباس البصرة لعلى ابن أبى طالب .

واجتهد عبد الله بن العباس فى تعليم عكرمة القرآن والسنن . وحدث عكرمة عن ابن العباس وابن عمر وابن عمرو ، وعن السيدة عائشة رضى الله عنها ، وعن أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى والحسن بن على ، وروى عنه الزهرى وعمرو بن دينار . وكان أبو عبد الله عكرمة يتنقل من بلد الى بلد فدخل خراسان واصفهان ومصر وغيرها من البلاد ، كما كان أحد فقهاء مكة وتابعيها . وروى أن عبد الله بن العباس قال له : « انطلق فأفت الناس » . كذلك تكلم الناس فى عكرمة لأنه كان يرى رأى الخوارج . وحين توفى عبد الله بن العباس فى سنة ٦٨ هـ (٦٨٧ م) كان عكرمة على الرق ، ثم أعتقه على بن عبد الله بن العباس [1] .

وحين وصل عكرمة الى بلاد المغرب نزل فى مدينة القيروان وأخذ يتصل بزعماء البربر . وانتشرت دعوة عكرمة بشكل خاص فى طنجة والمغرب الأقصى حيث بدأ البربر ثورتهم بزعامة ميسرة ضد الأمويين فى سنة ١٢٢ هـ . أما تاريخ وفاة عكرمة فهو غير معروف تماما فقيل إنه توفى سنة ١٠٥ هـ أو ١٠٦ هـ أو ١٠٧ هـ وقيل سنة ١١٥ هو [2] ، كذلك لايعرف مكان وفاته فقيل إن وفاته كانت بالمدينة وقيل إنه توفى بالقيروان ، لكن ابن خلكان يعود فيقول « والأول أصح » أى أن وفاته كانت فى المدينة [3] .

هذا عن عكرمة الذى تبعه الخوارج الصفرية فى أفريقية (تونس الحالية) وفى شمال المغرب الأوسط وفى المغرب الأقصى ، والذى أخذ عنه أيضا أبو القاسم سمكو بن واسول رأس أسرة بنى واسول فى سجلماسة .

---

(١) انظر عن عكرمة : ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٠٢ .
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٠٢ .
(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٤٠٢ .

ونحب أن نشير هنا الى أن عكرمة أخذ العلم عن مولاه عبد الله بن العباس ، كذلك كان عبد الله بن العباس أستاذ أبى الشعثاء فقيه المذهب الأباضى وواضع أسسه .

ويعتبر بعض العلماء الأباضية أن الحلقة الأولى فى سلسلة المذهب الأباضى هو الصحابى الجليل عبد الله بن العباس . والحلقة الثانية هو جابر بن زيد أما الحلقة الثالثة فهو الامام أبو عبيدة مسلم بن أبى كريمة [1] . ولعل انتساب عكرمة وانتساب الأباضية الى عبد الله بن العباس يفسر لنا عدم الاختلاف الجوهرى بين الأباضية وبين الصفرية فى بلاد المغرب ، بل ويفسر انضواء الصفرية فى أغلب الأحيان تحت زعامة الأباضية .

أما سلمة بن سعيد الحضرمى فإنه حين وصل الى بلاد المغرب الأدنى دخل بلاد هوارة فى سرت ووصل الى جبل نفوسة وأقبل البربر على دعوته اقبالا عظيما . وكان سلمة متحمسا كل التحمس فى سبيل الدعوة الى الإسلام وفى سبيل الأخذ بأيدى البربر لانشاء الامامة الإسلامية الصحيحة .

ويبدو أن هذا التحمس جعله لا يستتر فى دعوته ولهذا أشار اليه المؤرخون ، واعتبره البعض أول داعية للمذهب الأباضى فى بلاد المغرب . وقد أثر عنه أنه كان يقول لأصحابه ومريديه : « وددت أن يظهر هذا الأمر يوما واحدا من غدوه الى الزوال فما أبالى ان ضربت عنقى » [2] .

والمعروف أن الدعوة الأباضية التى وضع أساسها الامام جابر بن زيد ، نشطت نشاطا كبيرا على يد تلميذه وزميله أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة . والحق أن العلماء العمانيين والبصريين الأباضية من تلاميذ أبى

---

(١) انظر : السيابى السمائلى : ازالة الوعثاء عن اتباع أبى الشعثاء ص ٣٣ .

(٢) الدرجينى : طبقات الأباضية : ورقة ٤ . والشماخى : سير ص ٩٨ ، ١٢٣ .

الشعثاء وأصحابه تكاتفوا فى العمل على انتصار الحركة الإسلامية الأباضية • وأثمرت تلك الحركة فى حياة أبى عبيدة فقامت الإمامة فى عمان ـ موطن أبى الشعثاء وفى حضرموت واليمن وفى بلاد المغرب •

وكان من العلماء الذين جاهدوا مع أبى عبيدة مسلم . صديقه وزميله ضمام بن السائب الندبى العمانى أحد رواة الحديث عن الامام جابر بن زيد • ولم يفزع أبو عبيدة هو وصديقه ضمام بن السائب العمانى من قسوة سجن الحجاج ، إذ واصلا رسالتهما الدينية والعملية بعد خروجهما من السجن • وظل أبو عبيدة بمعاونة أصحابه وتلاميذه يشرف على الدعوة الى الإسلام والدعوة الى الامامة العادلة حتى أدركه أجله فى النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى •

أما فيما يتعلق ببلاد المغرب فالمعروف أن الأباضية نشطوا نشاطا كبيرا وأصبح أمرهم ظاهرا منذ مجىء سلمة بن سعد الحضرمى الى بلاد المغرب • ووافق تحمس الدعاة وشجاعتهم تبرم أهل المغرب بظلم ولاة الأمويين واستبدادهم وانحرافهم عن الدين ، فأقبلوا على دعاة الأباضية فى حماس بالغ •

وسرعان ما انتشر المذهب الأباضى انتشارا واسعا امتد من غربى مصر فى ليبيا وطرابلس وفى جبل نفوسة وفى جزيرة جربة فى تونس الحالية ، وفى أغلب المغرب الأوسط من شرقى مدينة مليانة الى غربى وهران وخاصة فى وادى ميزاب فى جنوبى الجزائر الحالية •

ولاشك أن سلمة بن سعد الحضرمى وغيره من الدعاة الأباضية قد شجعوا المتحمسين من البربر على الرحيل الى البصرة للاتصال بالعلماء الأباضية وللتعمق فى أحكام الدين الإسلامى وفقهه • وكان لجبل نفوسة فضل السبق الى أبى عبيدة وزملائه • فكان منه أبو عبد الله محمد ابن مغطير [١] الجناونى الذى كان أول من جمع القرآن كله فى جبل

---

(١) تذكر بعض المراجع ان اسمه « مغيطر » .

نفوســـة وحفظه ، ثم أراد التخصص فى العلم فسافر الى أبى عبيدة . وكان بذلك أول تلميذ مغربى يسـاقر لطلب العلم .

وكان ابن مغطير من علماء المغرب الأكفاء الذين امتازوا بالعلم والشجاعة وحضر نشأة دولـــة أبى الخطاب ، وامامة دفاع أبى حاتم الملزوزى . ونشأة الدولـــة الرستمية وعاش الى زمن الامام عبد الوهاب بن رستم .

وحين عاد ابن مغطير من البصرة كان سلمة بن سعد الحضرمى لايزال يدعو للإســـلام وللمذهب الأباضى فى بلاد المغرب فاشترك الاثنان فى الدعوة فى جبل نفوســـة .

ولانعرف اذا كان سلمة بن ســعـــد قـــد توفى فى بلاد المغرب أو عاد الى المشرق ، لكن المعروف أنه حين رحل سلمة الحضرمى صــار ابن مغطير رئيســا للدعاة الأباضية فى جبل نفوســـة الـــذى أصبح المعقل الرئيسى لأباضية المغرب فى الثلث الأول من القرن الثانى الهجرى [١] .

وكانت رحلة ابن مغطير الى المشرق فاتحـــة لرحـــلات المغاربة الى المشرق الإســلامى للاستزادة من العلم ولربط العلم بالعمل . واختـــار الأباضية فى بلاد المغرب أربعة من المغاربة الأكفاء الأذكياء وذوى الطموح ليتفقهوا فى المذهب الأباضى على أيدى الفقهاء والعلماء الأباضية العمانيين والبصريين فى البصرة .

وهؤلاء الأربعة هم أبو درار[٢] اسماعيل بن درار الغدامسى من غدامس جنوب طرابلس . وعاصم السدراتى من سدراته فى الأوراس ،

---

(١) انظر : الوسيانى : سير ابى الربيع . ورقة ٧٩ و ٢٨٠ ؛ والشماخى : سير ص ١٤٤ . وعلى يحيى معمر : الأباضية فى موكب التاريخ ص ٢٧ ، ومحمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٣ ص ١٨٨ — ١٨٩ ، وعوض خليفات : نشـــأة الحركة الأباضية ص ١٣٦ .

(٢) يكتب فى بعض المراجع « ضرار » .

وأبو داود القبلي النفزاوى من نفزاوة جنوب أفريقية (تونس الحالية) ، وعبد الرحمن بن رستم ، الفارسي الأصل ، من القيروان • وسمى هـؤلاء الأربعة فى المراجع الأباضية « حملة العلم الى المغرب » •

وفى البصرة توطدت صـلات الأخـوة والمحبة بين حملة العلم المغاربة وبين أبى الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى — وهو عربى من اليمن — فانضم اليهم وعرف منهم كثرة عدد الأباضية فى بلاد المغرب وان الجـو قـد تهيأ لقيام الامامـة الإسلامية العادلة فيها •

وكان الأمويون قـد نجحوا فى أوائل سنة ١٣٢ هـ فى القضـاء على إمامـة حضرموت واليمن التى قامت فى سنة ١٢٩ هـ (٧٤٦ م) على يـد الإمام عبد الله بن يحيى الكندى المشهور بطالب الحق ، وقائده أبى حمزة الشارى المختار بن عـوف الأزدى العمانى • ولم تقل الدولـة العباسية عن سابقتها الأموية فى تشـديد الخناق على الأباضية [١] •

« أمـا حملة العلم الى المغرب » الذين صـاروا خمسـة بانضمـام أبى الخطاب المعافرى اليهم ، فقـد عادوا الى بلاد المغرب فى آخـر سنة ١٣٩ هـ أو أول سنة ١٤٠ هـ (٧٥٧ م) بعد أن ظلوا يتلقون العلم فى البصرة خمس سنوات • وكان المغرب يعقـد عليهم الآمال الكبيرة ؛ فلما عـادوا انبثوا فى أنحاء المغرب الأدنى والأوسـط وزادوا من حماس أهل المغرب الى قيام الامامة الإسـلامية العادلة والى التمسك بأصول الإسلام •

ويبدو أنهم عقدوا العزم على أن يعلنوا الإمامـة فى طرابلس إذ رأوها صالحـة حينذاك لقيام الامامـة الأباضية • وكان الأباضية منتشرين فى طرابلس كلها من خليج سرت فى شرقها الى قابس وجبل نفوسـة فى غربها ومن ساحل البحر المتوسط شمالا الى الصحراء الكبرى جنوبا • وكان

(١) أبو زكريا : السيرة واخبار الائمـة ورقة ٥ ؛ والدرجينى : طبقات الاباضية ورقة ٤ — ٨ ؛ والشماخى : سير ص ١٢٣ — ١٢٤ ؛ ومحمد عـلى دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٣ ص ١٨٨ — ١٩٥ .

فى طرابلس التجار الأغنياء الذين لا يضنون بأموالهم ، وكان فيها الشبان الشجعان ، كما كان فيها أهل العقل والرأى والدهاء كما كان فيها رؤساء القبائل وذو الكلمة المسموعة .

وروى أن أبا عبيدة مسلم بن أبى كريمة لما أراد وداع تلاميذه من المغرب « سأله اسماعيل بن درار الغدامسى عن ثلثمائة مسألة من مسائل الأحكام . فقال له أبو عبيدة : أتريد أن تكون قاضيا يا ابن درار ؟ قال : أرأيت إن ابتليت بذلك ! » [1] .

أما أبو داود القبلى النفزاوى فكان من كبار الزهاد ومن ذوى العلم والعمل ، عاش الى زمان الامام عبد الوهاب بن رستم فى آخر القرن الثانى الهجرى وكان الامام يجله ويحترمه [2] . وذكر الشماخى ان أبا عبيدة قال لأبى داود القبلى النفزاوى : « لاتفت بما سمعت منى وما لم نسمع . وقال لعبد الرحمن بن رستم : أفت بما سمعت وما لم تسمع . وقال لأبى الخطاب : أفت بما سمعت » [3] .

وروى ان « حملة العلم الى المغرب » استشاروا أبا عبيدة قبل عودتهم الى بلاد المغرب « إن أنسوا من أنفسهم قوة أيؤمرون عليهم واحدا منهم . قال : نعم ، وأشار الى أبى الخطاب ، فإن أبى فاقتلوه » [4] .

وهذا يدلنا على أن الأباضية اهتموا بتثقيف عقول تلاميذهم من المغرب والمشرق بالعلم الصحيح ، وتنقية نفوسهم بالتربية الدينية الرشيدة ، وبث الشجاعة فيهم ، والبعد عن الحسد والعصبية . وإن اشارة أبى عبيدة الى أبى الخطاب اليمنى ليرأس دولة بربرية فى المغرب وهو عربى قحطانى وليس مغربيا أو عربيا قرشيا ثم استجابة المغاربة له ليدل دلالة

(١) الشماخى : سير ص ١٢٤ .
(٢) محمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٣ ص ١٩٩ .
(٣) الشماخى : سير ص ١١٤ .
(٤) المرجع السابق ص ١٢٤ .

واضحة على تمسك الأباضية بمبدأ المساواة الإسلامية . وهذا أبلغ رد على ما ذكره توماس أرنولد فى كتابه « نشر الدعوة الى الإسلام » ومن أخذ عنه من المؤرخين الأجانب والعرب . حين يقول إن الإسلام لم ترسخ قدمه بين البربر الا بعد أن صار حركة قومية وأصبح مرتبطا بتولى دول البربر الحكم ، تلك الدول التى دخل فى عهدها كثير من البربر فى دين الإسلام ، وكانوا من قبل يعدون قبول هذا الدين رمزا على ضياع الاستقلال السياسى [(١)] .

ويعتبر جل المؤرخين العرب والأجانب ، ومنهم توماس ارنولد . أن الذى نخصه بالذكر فى تاريخ الدعوة الى الإسلام فى بلاد المغرب هو ظهور المرابطين فى القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس الهجرى) [(٢)] .

والحق أن صراع بلاد المغرب ضد الأمويين والعباسيين كان نفس صراع أباضية عمان ضد الأمويين والعباسيين . وكان هذا الصراع من أجل الإسلام ومن أجل الامامة الاسلامية الرشيدة . وإن تاريخ بلاد المغرب يثبت أن الأباضية فى المغرب هم من أرسخ الجذور للدين الإسلامى والعروبة ، كما يثبت اعتدادهم بالشخصية الإسلامية والعربية للمغرب .

---

(١) ارنولد : الدعوة الى الاسلام (مترجم) ص ٣٥١ .
(٢) المرجع السابق : ص ٣٥١ .

٧ — انتشار الإســلام فى ظل دول المغرب الأباضية :

يرجع الفضــل الأول فى دخــول الإســلام فى بــلاد المغرب الى العرب الفاتحين ، أمــا الفضل الأكبر فى نشر الإســلام وازدهاره فى بلاد المغرب فى ثلاثة القرون الأولى للهجرة فيرجع الى الأباضية العمانيين • وقد اعتبر الأباضية بلاد المغرب أرض جهاد لنشر الإســلام ولقيام الامامة الإســلامية العادلة ، وربطوا بينهم وبين بلاد المغرب — على بعد الشقة بين المشرق والمغرب — بواسطة الدعاة وحملة العلم والتجار •

وفى القرن الثانى والثالث الهجرى ظهر أثر جهود الأباضية العمانيين فقامت الإمامــة الأباضية وتمخض شرق المغرب الأدنى ، والمغرب الأوسط عن الدولة الكبرى الأباضية التى التزمت فى سياستها بالدين ، وأحيت سيرة الخلفاء الراشــدين ، والتى انعشت المغرب الأدنى والأوسط ، والتى مهدت للدولــة الإدريسية العلوية فى المغرب الأقصى ، والتى هيأت المغرب وأعدته لكل ما أنشــأ من دول مستقلة راقية بعد ذلك [١] •

وتقدمت بلاد المغرب ، بفضل الدول الأباضية التى قامت فيه . فى كل نواحى الحضارة الإســلامية • وصــار المغرب الإســلامى العربى حصنا للدين ورمزا للأخــوة الإسلامية والعربية •

— رئاسة عبد الله بن مسعود التجيبى الأباضى فى طرابلس :

فى أواخر الدولة الأموية خرج المغرب الأقصى والمغرب الأوسط عن حــكم الأمويين على أثر ثورات الخوارج الصفرية التى اشتعلت منــذ سنة ١٢٢ هـ • وفى وسط الاضطرابات التى عمت بلاد المغرب والأندلس فى أواخر حكم الأمويين ، أخرج والى الأندلس زعمــاء الفتنة فيها الى المغرب ، وكان ممن أخرجوا عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع

---

(١) انظر : محمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٢ ص ٢٩٣ .

الفهرى • وكان عبد الرحمن بن حبيب قد هرب الى الأندلس عند هزيمته فى الموقعة التى قتل فيها أبوه حبيب مع كلثوم بن عياض فى حربهم مع البربر فى سنة ١٢٣ هـ [١] (٧٤١ م) •

وحين أخرج عبد الرحمن بن حبيب من الأندلس سار فى البحر ونزل فى تونس فى سنة ١٢٧ هـ « ودعا الناس الى نفسه فأجابوه » وتبع ذلك بالعمل على طرد الوالى الأموى حنظلة بن صفوان الكلبى من القيروان • وأمام دهاء وشدة مراس عبد الرحمن بن حبيب . تذكر الروايات أنه فى شهر جمادى الأولى من سنة ١٢٧ هـ (فبراير ٧٤٥ م) خرج حنظلة فى جماعة من أصحابه من القيروان غير آسف ، ودخلها عبد الرحمن بن حبيب الذى منع الناس من المسير الى حنظلة أو الخروج لتشييعه [٢] •

ونجح عبد الرحمن بن حبيب فى تكوين أسرة حاكمة فى أفريقية أقرها مروان بن محمد آخر ملوك الأمويين فى المشرق العربى . كما أقرتها فى البداية الدولة العباسية • وستحاول الدولة العباسية بعد ذلك استعادة بلاد المغرب لكن سلطانها لن يذهب أبعد من أفريقية (تونس الحالية) •

وفى وسط تلك الظروف التى سادت بلاد المغرب . اجتمع الأباضية فى طرابلس وتداولوا فيمن يصلح للإمامة بعد أن انتشر المذهب الأباضى بين قبائل هوارة وزناتة وسدراته ولواتة ، وبعد أن انبث دعاة الأباضية فى كافة أنحاء بلاد المغرب •

وكان عبد الله بن مسعود التجيبى هو زعيم الأباضية فى طرابلس لعلمه وتقواه وقوة شخصيته ، وقد تلقب بلقب « الرئيس » • وحين علم عبد الرحمن بن حبيب بما عزم عليه الأباضية فى طرابلس ، ولى أخاه

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس ص ٢٢٠ ، وابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٦٥ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ... ص ٢٢٤ ، وابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٦٥ — ٦٦ ، وسعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ص ٢٨٣ — ٢٨٥ .

اليـاس بن حبيب عـلى طرابلس ونجح اليـاس فى قتـل التجيبى فى سنة ١٢٧ هـ [1] .

ولاشك أن نشـاط التجيبى كان واضحا فى نفس الوقت الذى بدأ فيه عبد الرحمن بن حبيب يوطد لملكه فى أفريقية .

وتبع مقتل التجيبى صراعا علنيا بين الأباضية وبين عبد الرحمن بن حبيب ، رأس الأسرة الفهرية فى أفريقية . وفى ذلك الحين حاول عبد الرحمن ابن حبيب تغيير أسلوبه مع الأباضية واستخدام اللين والحسـنى معهم وذلك لانشغاله بتمكين سلطانه فى أفريقية ضـد العرب الثائرين وضـد الخوارج الصفرية ، فضـلا عن مواجهته مع الأباضية الذين ثاروا علانية بعـد مقتل رئيسهم . ولم تنجح السياسـة اللينة الجديدة التى اتبعها ابن حبيب فى اطفاء حماس الأباضية أو كبت غضبهم أو منع ثورتهم .

ـ امامة الحارث بن تليد الحضرمى :

ولم يلبث الأباضية أن ثاروا بقيادة الحـارث بن تليـد الحضرمى وانتخبوه امام دفاع لهم ، أو امـام حرب ، وكان ذلك فى سنة ١٣١ هـ (٧٤٨ — ٧٤٩ م) .

وقد اختار الحارث بدوره ، عبد الجبار بن قيس المرادى ليكـون قاضيا ومستشارا له . ويذكر المؤرخ ابن عبد الحكم أن دولـة الحارث فى طرابلس هى أول امامـة أباضية فى المغرب . أما الحارث وعبد الجبار فهما من الأباضية الذين كانوا فى جيش أبى حمزة الشـارى المختار بن عـوف الأزدى العمانى ، الـذى أرسله الامام طالب الحق لفتح مكـة والمدينـة والطائف وشمال شبه الجزيرة العربية سنة ١٢٩ هـ . ولـما قضى الأمويون

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ... ص ٢٢٤ ؛ وابن خلدون : العبر ... ج ٦ ص ٢٢٣ .

على امامــة طالب الحق فى سنة ١٣٠ هـ ســافر الحارث وعبد الجبار الى المغرب وحــلا فى طرابلس وواصــلا عملهما الذى لم يكتب له النجاح فى المشرق ٠

وقد اتصف الحارث وعبد الجبار بالتقــوى والورع والعلم فاختارهما الأباضية فى طرابلس لرئاســة دولتهم ولقيادة حروبهم وبايعتهما قبائل هوارة ونفوسة وزناتة ٠

لكن الامامة الوليدة فى طرابلس جابهت خصما قويا عنيدا قريبا فى ذلك الحين وهو عبد الرحمن بن حبيب الذى رأى خطر الامامة يهدد ملكه فى المغرب ٠ ولاشــك أن ابن حبيب خشى أن يبايع الأباضية فى أفريقية والمغرب الأوسط ، الامامة الأباضية فى طرابلس [١] . فضــلا عن ان قيام الدولة الأباضية فى طرابلس سيقطع صلته بالمشرق ٠ ولهــذا أرســل ابن حبيب جيشــا كبيرا لمحاربة الحارث ، ولكن الحــارث هزم الجيش شر هزيمــة ودخل بعدها مدينــة طرابلس وأصبحت طرابلس كلها من سرت الى قابس تحت امامته ٠ وأرســل ابن حبيب جيشــا ثانيا أقوى مــن الجيش الأول لكن الهزيمــة لحقت بهذا الجيش كسابقه ٠

وأخيراً لجأ عبد الرحمن بن حبيب الى الحيلة والمكيدة والدسيسة فدبر من اغتال الحــارث وعبد الجبار وهما فى دار الندوة والحــكم وذلك فى سنة ١٣٢ هـ بعــد أن ضرب الأباضيــة أروع الأمثلة فى التفانى فى سبيل الإســلام وفى سبيل الامامــة العادلة ٠ كذلك ضرب الأباضية أحسن الأمثلة فى آداب الحرب فكانوا اذا قاتلوا المهاجرين أو البغاة المعتدين من المسلمين تقيدوا بما أمــر الله به فى قتال المســلم فلا يغنمون لهم مالا ولا يسبون لهم ذرية ولا يجهزون على جريح ولايتبعون مدبرا هاربا لا ينوى الكرة عليهم [٢] ٠

---

(١) طبق الأصل ٠
(٢) عن دولة الحارث انظر : ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ... ص ٢٢٤ ــ ٢٢٥ ، والبرادى : الجواهر ... ص١٧٠ ، وابن خلدون : العبر ..
=

— امامــة اسماعيل بن زياد النفوسى :

بعد مقتل الحارث اجتمع الأباضية فى طرابلس واختاروا لهم امام دفاع هــو أبو الزجــار اسماعيل بن زياد النفوسى وكان ذلك فى سنة ١٣٢ هـ . وكان اسماعيل النفوسى قــوى الشخصية شجاعا ذا تقوى وورع . وسرعان ما عظم شأنه وكثر أتباعه ونجح فى الاستيلاء على مدينة قابس . لكن عبد الرحمن بن حبيب صمم على التخلص من هذه الدولــة الأباضية التى تجاوره كمــا خنق جميع محاولات الأباضية السابقة لاقامــة الامامــة ، فداهم اسماعيل النفوسى بجيوشه الكثيرة التى قادها بنفسه .

وقتل اسماعيل فى نفس العام الذى انتخب فيه أى فى سنة ١٣٢ هـ (٧٤٩ — ٧٥٠ م) وهــو يحارب قوات عبد الرحمن بن حبيب ؛ كما قتل عدد كبير من الأباضية ودخل عبد الرحمن بن حبيب بعدها طرابلس [١] .

وقد انتقم عبد الرحمن بن حبيب من الأباضية ما شاء له الانتقــام وعاملهم معاملة أهل الشرك فضرب أعناقهم وصلبهم [٢] كما أمر واليه على طرابلس « أن ينفل » ، أى أن يعطى العسكر نصيبهم فى المغانم [٣] .

وقد وجد الأباضية فى طرابلس الفرصة سانحة حين هرمت الدولة الأموية ، لكن عبد الرحمن بن حبيب الفهرى استمات فى القضاء على الدول الأباضية الوليدة فى طرابلس فى وقت كان يتطلع فيه الى انشاء ملك عريض فى المغرب .

=
ج ٦ ص ١١١ ، والشماخى : سير ... ص ١٢٥ ، ومحمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٢ ص ٣٩٢ — ٣٩٤ وص ٤١١ — ٤١٣ . وعلى يحيى معمر : الأباضية فى موكب التاريخ — الحلقــة الثانية — ص ٤٥ ، وسعــد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ص ٢٨٩ — ٢٩٢ ، وعوض خليفات : نشأة الحركة الأباضية ص ١٣٩ — ١٤٢ .

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ... ص ٢٢٤ ، وابن خلدون : العبر ... ج ٦ ص ١١١ ، ومحمد على دبوز : تــاريخ المغرب الكبير ج ٢ ص ٤١٣ ، وسعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ص ٢٩١ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ... ص ٢٢٤ .

(٣) المرجع الســابق ص ٢٢٤ .

ـ دولة أبى الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى :

لم تلن قناة الأباضية فى بلاد المغرب ولم يبالوا بما تعرضوا له من قتل وسبى وتشريد من جيوش عبد الرحمن بن حبيب الفهرى أو من جيوش الدولة العباسية الفتية • ومن ناحية أخرى آمن الأباضية فى المغرب بضرورة العلم مع الايمان والشجاعة فاتفقوا مع مركز القيادة الأباضية فى البصرة على اعداد الأئمة وأعوانهم فى المغرب اعدادا علميا فقهيا •

ومر بنا أنه رحل لهذا الغرض الى البصرة « حملة العلم الى المغرب » وانضم اليهم هناك أبو الخطاب المعافرى ثم عادوا الى المغرب فى أواخر سنة ١٣٩ هـ أو أول سنة ١٤٠ هـ • وفى صياد غربى طرابلس اجتمع الأباضية لمبايعة أبى الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى بالامامة فى المحرم سنة ١٤٠ هـ (٧٥٧ م) • وبعد البيعة سار أبو الخطاب الى طرابلس حيث طرد واليها ولم يلبث أن استولى على اقليم طرابلس كله وانضمت اليه كل قبائل زناتة وهوارة •

وفى تلك الأثناء كانت ورفجومة ــ احدى بطون نفزاوة ــ قد تغلبت على القيروان مدة تزيد على السنة فى صراعها مع أسرة عبد الرحمن بن حبيب الفهرى ونجح عبد الملك بن أبى الجعد الورفجومى فى هزيمة حبيب بن عبد الرحمن الفهرى وقتله فى سنة ١٤٠ هـ . وقد انقرض بمقتله ملك آل عقبة بن نافع الفهرى من المغرب •

وكانت ورفجومة صفرية غلاة فأباحوا القيروان لقومهم وذلك لمذهبهم المتطرف وبداوتهم ، ولم يكونوا على ثقافة الأباضية ورسوخهم فى الدين ، فسفكوا دماء المسلمين وانتهكوا الحرمات • واستغاث أهل القيروان بأبى الخطاب كما فر كثير من أهلها الى طرابلس حيث قامت الدولة الأباضية •

ولما رأى الأباضية فظائع الصفرية ، سار أبو الخطاب بجيشه فى سنة ١٤١ هـ لتطهير القيروان من ورفجومة الصفرية • وفى الطريق استولى

على قابس التى كانت فى أيــدى الصفرية ، ونجح فى احتلال القيروان وتطهيرها من فساد الصفرية كما نجح فى قتل عبد الملك بن أبى الجعد •

وطبق أبو الخطاب فيهم حكم الإســلام فنهى عن الإجهــاز على جرحاهم وعن غنم أموالهم • وأقام أبو الخطاب . عبد الرحمن بن رستم — أحــد حملة العلم الى المغرب — واليا على أفريقية والمغرب الأوسط • وقد اعتنى عبد الرحمن بن رستم بورفجومــة وعلمها الــدين وهذبها فحسن إسلامها وأصبحت ورفجومة منذ آخر القرن الثانى الهجرى أباضية ، كما انسلخ البربر فى جنوب أفريقية منذ آخر القرن الثانى الهجرى (آخــر الثامن واوائل التاسع الميلادى) عن المذهب الصفرى واعتنقوا المذهب الأباضى •

وأصبحت دولة أبى الخطاب الأباضية تشمل طرابلس كلها من خليج سرت شرقا وتمتد الى القيروان وتصل حدودها الى غرب وهران كما أصبحت تمتد من البحر شمالا الى الصحراء جنوبا •

وحين فرغ أبو جعفر المنصــور العباسى من مشاكل الدولة العباسية فى المشرق ، التفت الى بلاد المغرب والى ماكان من أمر الدولة الفهرية وماكان من أمــر ورفجومــة • ورأى أبو جعفر المنصــور الخطورة الحقيقية تكمن فى دولة أبى الخطاب الأباضية التى تقوم على أساس الدين والعــدل والتى تشكل خطرا حقيقيا على الحكم العباسى فى بلاد المغرب •

وأرسل المنصــور فى سنة ١٤٢ هـ (٧٥٩ — ٧٦٠ م) الى محمد بن الأشعث ، واليه على مصر ، ليرسل الجيوش للقضــاء على دولــة أبى الخطاب • ولكن أبا الخطاب استطاع أن يهزم جيش ابن الأشعث ، ثم نجح فى هزيمة الجيش الثانى الــذى أرسله والى مصر • لكن المنصــور كان مصمما على القضــاء على دولة أبى الخطاب فعهد الى محمد بن الأشعث الخزاعى بولاية أفريقية وزوده بالجيوش وجعل له ثلاثة خلفاء فى القيادة •

واستعد ابن الأشعث للصراع ضـــد أبى الخطاب منذ شهر ذى الحجة سنة ١٤٢ هـ (٧٦٠ م) لكن اللقاء بينه وبين الأباضية لم يتم الا فى أوائل سنة ١٤٤ هـ فى تاورغا قرب سرت حيث استشهد أبو الخطاب فى آخـــر صفر من سنة ١٤٤ هـ (٧٦١ م) بعد أن دامت امامته أربع سنين •

والحق أن الوالى العباسى استعان بخيرة الجند العباسى كمـــا استخدم كل سبل المكيدة والدهاء والحيلة ليقضى على دولة أبى الخطاب الأباضية كما تتبع رجالات الأباضية وزعماءهم وعلماءهم فقتل منهم عددا غفيرا [١]•

ـ امامة أبى حاتم يعقوب بن لبيب الملزوزى :

كان عنف أبى جعفر المنصور العباسى وتصميمه على اعادة بلاد المغرب تحت سلطان العباسيين ، يقابله تصميم من الأباضية على الاستقلال ببلاد المغرب واقامة الدولـــة الإسلامية العادلة فيها • وشهد المغرب الأدبى والأوســـط آنذاك أروع صفحات البطولة والفـــداء فى سبيل المبادىء الإسلامية •

ولم يكن قيام الدولة الأباضية فى طرابلس والقيروان . أو ثورات البربر حينذاك للمصلحة الخاصــــة أو لتفشى الجهل والفوضى بين البربر كمـــا زعم معظم مؤرخى العصر الإسلامى الحديثين وكما ادعى الكثير من المؤرخين القدماء ، وانما كانت ثورات المغاربة رغبة فى تحطيم استبداد وتعسف الملوك الذين لم يتقيدوا بالدين والعدل فى سياستهم •

---

(١) عن دولة أبى الخطاب انظر : ابو زكريا : السيرة ورقة ١٠ — ١٢ • والمالكى : رياض النفوس ج ١ ص ١٠٢ • والدرجينى : طبقات الاباضية ورقة ١٠ — ١٢ ؛ وابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١١٢ • والشماخى : سير ... ص ١١٣ — ١١٤ و ١٢٦ —١٣٢ ؛ ومحمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٢ ص ٤٢٩ — ٤٣٣ ؛ ج ٣ ص ٨ — ٩ و ٢١ — ٣٥ و ٥٤ و ٢٠٣ — ٢٤٤ وسعد زغلول عبد الحميد : المغرب العربى ص ٣٠٩ — ٣١٤ •

وقد امتزجت الدماء العربية بالدماء البربرية فى صراع الأباضية فى سبيل الإســلام . والحق أن ثورة الأباضية كانت ثورة إســلامية تستهدف نشر الإسلام والتعريف بأصوله واحياء الإمامــة الإسلامية العادلة .

وفى التاريخ المغربى نلاحظ الفرق الكبير بين شجاعة أصحاب المبادىء والقيم ، وبين شجاعة الجند المأجورين . فقد واجهت الدولة العباسية فى تلك المرحلة من قوتها وشبابها عصيان وفوضى عدد من رؤســاء الجنـد العباسيين فى بلاد المغرب بعد انتصار محمــد بن الأشعث الخزاعى على أبى الخطاب المعافرى .

ويلاحظ الباحث أن أحــداث تلك الفترة فى بــلاد المغرب متشابكة متداخلة ، إذ تصــارع القواد العباسيون على السلطة . وثار الأباضية فى سبيل الإســلام ، ونجح الخوارج الصفرية فى الاستقلال فى تلمسان وفى المغرب الأقصى . ونرى المصــادر السنية مثل كتابات ابن الأثير والنويرى وابن عذارى وابن خلدون لاترتب الأحداث وانما تذكرها اجمالا ، كما أنها لاتذكر بالتفصيل ما قــام به الأباضية من تضحيات فى سبيل الإســلام وما جابهوه من قــوة وشراســة الجبهات المعادية .

وكان الأباضية كمــا ذكرنا ينتظمون جميعا فى عقــد واحــد ســواء فى المشرق أو المغرب . وسرعان ما تجمع الأباضية فى المغرب بعد استشهاد الامام أبى الخطاب وانتخبوا امام دفاع لهم فى سنة ١٤٥ هـ (٧٦٢ م) هــو يعقوب بن لبيب ويكنى بأبى حاتم الملزوزى [١] .

وعرف أبو حاتم بالشجاعــة والورع والتمســك بالدين . واختلف المؤرخون فى نسبه ، فنسبه البعض الى هوارة ، وجعله البعض مولى كندة . والراجح أنه من ملزوزة ، وهى قبيلة بربرية من فروع مغيلة من زناتة .

(١) ابو زكريا : السيرة : ورقة ١٣ . والدرجينى : طبقات الاباضية : ورقة ١٥ ، والشماخى : سير ... ص ١٣٤ .

وكانت مواطن هذه القبيلة فى المغرب الأوسط . ولما انتقل أبو حاتم أو آباؤه الى طرابلس نزل فى هوارة فصار ينسب اليها [١] .

ويتضح من المصادر الأباضية أن جميع الأباضية كانوا يعملون معا ويأتمرون بأمر واحد وأن أبا حاتم الملزوزى كان يأتمر برأى عبد الرحمن بن رستم . وعندما أنس أبو حاتم من نفسه القوة أعلن ثورته ضد العباسيين . وذكر النويرى أن أبا حاتم الملزوزى دخل طرابلس منتصرا وملكها كلها وأقام العمال على النواحى فيها واستعد للسير الى افريقية ليقضى على نفوذ العباسيين فى القيروان .

وكان جيش أبى حاتم يتكون من هوارة ونفوسة وزناتة ، وانضمت اليه نفزاوة فى جنوب أفريقية ومن ثار فى وسط أفريقية وشمالها . كذلك انضم الى الأباضية ، الخوارج الصفرية بزعامة أبى قرة اليفرنى الذى بويع بالامامة فى تلمسان منذ سنة ١٤٨ هـ .

وكان من الأباضية الذين ساروا نحو القيروان عبد الرحمن بن رستم . واندفع الأباضية جميعا نحو طبنه قاعدة الزاب — حيث اعتصم الوالى العباسى عمر بن حفص بن عثمان بن قبيصة . أخ المهلب بن أبى صفرة . وقتل عمر بن حفص . وهو الذى كان يلقب باللقب الفارسى هزارمرد ومعناه ألف رجل — فى صراعه مع جيش الملزوزى فى ذى الحجة سنة ١٥٤ هـ (٧٧١ م) . ونجح الملزوزى فى دخول القيروان بعد حصار دام ثمانية أشهر .

وفى تلك الأثناء أرسل أبو جعفر المنصور ، ابن عم حفص وهو يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة لاستخلاص بلاد المغرب من الأباضية . واستشهد أبو حاتم الملزوزى فى حربه مع يزيد بن حاتم فى

---

(١) انظر : محمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٣ ص ٥٨ ، وعوض خليفات : نشأة الحركة الاباضية هامش ٨٨ من صفحة ١٥٧ .

٢٧ من ربيع الأول سنة ١٥٥ هـ (٨ مارس ٧٧٢م) قرب طرابلس على الطريق المؤدى الى جبل نفوسة بعد أن ضرب أروع الأمثلة للبطولة والجهاد [١] .

وكان من الأبطال الأباضية الذين اشتركوا آنذاك فى الصراع بين الأباضية وبين العباسيين عاصم السدراتى أحد « حملة العلم الى المغرب ». وكان عاصم من قبيلة سدراتة ومواطنها شمال جبل أوراس وجنوبه ، وكان قد استقر بعد نشأة دولة أبى الخطاب فى نفوسة .

وسار عاصم السدراتى فى ستة آلاف من الأباضية فحاصر الوالى العباسى عمر بن حفص فى طبنة مع أبى قرة اليفرنى . ثم سار عاصم بجيشه الى أبى حاتم الملزوزى الذى زحف الى القيروان فانضم اليه . وقد لجأ العباسيون الى دس السم له فتوفى فى أثناء حصار القيروان حين كان أبو حاتم الملزوزى محاصرا لها [٢] .

— الدولة الرستمية ١٤٤ — ٢٩٦ هـ (٧٦١ — ٩٠٩ م) :

ارتوت أرض المغرب بدماء شهداء الأباضية وأئمتهم وخاصة منذ ظهور أول رئيس لهم فى طرابلس فى بداية القرن الثانى الهجرى والثامن الميلادى (١٢٧ هـ / ٧٤٥ م) .وكان قيام الدولة الرستمية أكبر انتصار للأباضية فى العالم الإسلامى عامة وفى بلاد المغرب خاصة . وتشهد المصادر القديمة بالصلة الدائمة بين أباضية شرق العالم الإسلامى فى البصرة وعمان وبين أباضية بلاد المغرب ، كما تشهد بالكفاح المشترك والغذاء المتصل فى سبيل المبدأ وذلك بالعلم والنفس والمال .

---

(١) محمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٣ ص ٥٨ — ٧٧ ، وسعد زغلول عبد الحميد : المغرب العربى ص ٣٢٠ — ٣٣٢ ، وعوض خليفات : نشأة الحركة الاباضية ص ١٥٧ — ١٦٥

(٢) ابن خلدون : العبر ... ج ٦ ص ١١٢ ، والشماخى : سير ... ص ١٣٨ ، وابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٨٨ ، ومحمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٣ ص ٧٩ — ٨٠ .

أما عبد الرحمن بن رستم بن بهرام فأصله فارسى . وتذكر الروايات التاريخية ان بهرام كان من موالى عثمان بن عفان ، ويرفع بعض الكتاب نسبه الى ملوك الفرس القدماء . وروى أن أباه رستم قدم الى مكة حاجا وبصحبته زوجه وابنه عبد الرحمن فتوفى هناك وتزوجت امرأته برجل من أهل القيروان حملها وابنها عبد الرحمن معه عند عودته الى بلدة [١] . وتربى عبد الرحمن بن رستم فى القيروان وأخذ العلم عن فقهائها وتأثر بسلمة بن سعد ، الداعية الأباضى ، ثم رحل الى البصرة للاستزادة من العلم ، وكان أحد « حملة العلم الى المغرب » كما مر بنا . وقد عينه الامام أبو الخطاب المعافرى قاضيا لطرابلس ثم عينه واليا على افريقية والمغرب الأوسط .

وبعد استشهاد أبى الخطاب صار ابن رستم زعيما واماما للأباضية فى بلاد المغرب . وانضم اليه كثير من الخوارج الصفرية ، والمعتزلة الواطلية الذين يعتبرهم البكرى من الأباضية [٢] .

وتؤكد المصادر الأباضية وغير الأباضية ان قيام الامامة الرستمية كان فى نفس السنة التى قضت الدولة العباسية فيها على امامة أبى الخطاب المعافرى ، أى فى سنة ١٤٤ هـ (٧٦١ م) . الا أن اعلان تلك الامامة كان فى سنة ١٦٠ هـ (٧٧٦ / ٧٧٧ م) كما يذكر الشماخى الذى يعود فيقول إنه بويع فى سنة ١٦٢ هـ [٣] (٧٧٨ — ٧٧٩ م) وكانت بيعة عبد الرحمن بن رستم بالامامة على أن يحكم بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن يلتزم سيرة الخلفاء الراشدين [٤] .

أى أن عبد الرحمن بن رستم كان أميرا منذ سنة ١٤٤ هـ واماما منذ

---

(١) ابن خلدون : العبر ... ج ٦ ص ١٢١ ، والشماخى : سير ... ص ١٢٣ ، وابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٢٧٧ .
(٢) البكرى : جزء من كتاب المسالك والممالك ص ٧٢ (طبع دى سلان) .
(٣) الشماخى : سير ... ص ١٣٩ .
(٤) المصدر السابق ... ص ١٤٠ .

سنة ١٦٠ هـ • وقد اختير ابن رستم اماما لأنه من « حملة العلم » ولأنه كان عامل أبى الخطاب على أفريقية ، ولأنه كما يذكر الشماخى « لاقبيلة له تمنعه اذا تغير عن طريق العدل » (١) •

ونلاحظ مما ذكره الشماخى أن من شروط انتخاب عبد الرحمن بن رستم عدم الاستناد الى عصبية أو قبيلة حتى يكون العدل هو عصبية الحكم • والمعروف أن أساس انتخاب الامام عند الأباضية هو الحرية فى الانتخاب دون أى تفرقة عنصرية حتى أجازوا امامة العبد الأسود طالما — يتمتع بالأهلية •

فالدين الإسلامى حافظ على كرامة الفرد وقضى على العنصرية فسوى بين العربى وغير العربى وبين الأبيض والأسود ، ولم يسمح بتفاضل مسلم ومسلم الا بالتقوى والعلم • وقد أثر عن الرسول عليه الصلاة والسلام قوله : « اسمعوا وأطيعوا ولو ولى عليكم عبد حبشى » •

وقامت الدولة الرستمية على أساس الدين والعدل والشورى • والمعروف أن الامامة عند الأباضية حرب على حصر رئاسة الدولة فى عائلة واحدة ومع ذلك ظلت الامامة فى الدولة الرستمية فى أسرة عبد الرحمن بن رستم ، ولكن ذلك كان رغبة الدولة جميعا ومن فعلها ومن اختيار القبائل لامن فعل الأسرة الرستمية (٢) • أما ابن خلدون فقد اعتبر الدولة الرستمية دولة ملكية (٣) •

وحين استشهد الامام أبى الخطاب المعافرى وبعد نجاح أبى جعفر المنصور فى القضاء على دولته الأباضية ، خرج عبد الرحمن بن رستم

---

(١) المصدر السابق ... ص ١٣٩ — ١٤٠ ، (فصل عقد الامامة) ، وابن خلدون : المقدمة (الفصل السادس والعشرون فى اختلاف الأمة فى حكم منصب الخلافة والامامة وشروطه) •

(٢) قارن : محمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٣ ص ٥٢٧ — ٥٤٠ ، وسعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ص ٣٨٦ •

(٣) ابن خلدون : العبر ... ج ٦ ص ١٢٢ •

مسرعا نحـو المغرب الأوسط وقرر أن ينزل على قبيلة لماية فى جنوب تاهرت ، وكانت تربطه بها صداقة وثيقة تأكدت حين ولايته على أفريقية والمغرب الأوسط . وكانت لماية أباضية ومجاورة لقبيلة لواتة وهوارة اللتين ستصبحان عماد الدولة الرستمية مع نفوسة ومزاتة [1] .

وقد رأى عبد الرحمن بن رستم أن المغرب الأدنى أصبح غير مناسب لاقامة الامامة الأباضية وذلك لتشبث العباسيين به ولأنه الطريق لجيوشهم وأعوانهم من المشرق ومن مصر . ووجد ابن رستم أن المغرب الأوسط مكان أمين لاقامة الامامة الأباضية ؛ وقد كان جزءا من دولة أبى الخطاب ، كما أن جمهورها أباضية . وتذكر بعض الروايات أن ابن رستم بنى مدينة تاهرت عقب فراره من جيوش محمد بن الأشعث بعد هزيمة أبى الخطاب أى فى سنة ١٤٤ هـ أو بعدها بقليلل [2] .

وتاهرت مدينة قديمة ترجع الى العصر الرومانى ثم البيزنطى ، وجاء ذكرها أيام الفتوح الأولى سنة ٦٢ هـ (٦٨١ — ٦٨٢ م) فى حملة عقبة بن نافع التى استشهد فيها [3] . أما تاهرت الحديثة التى اتخذها عبد الرحمن مقرا له ولدولته فقد ذكر البكرى أنها على بعد خمسة أميال فى الجنوب الغربى للمدينة القديمة ، وقد ذكرها ابن حوقل فى المسالك والممالك ، وكذلك ياقوت فى معجم البلدان باسم تيهرت .

وبعد اعلان امامة عبد الرحمن بن رستم فى تاهرت جاء رسل الأباضية من البصرة يحملون اليه أموالا كثيرة [4] . ويذكر ابن الصغير أنه لما وصل المال اشترت الدولة السلاح والكراع ؛ وقوى الضعيف

---

(١) انظر : محمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٣ ص ٢٥٤ .
(٢) ابن خلدون : العبر ... ج ٦ ص ١٢٣ .
(٣) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ص ٣٧٥ .
(٤) الشماخى : سير ... ص ١٤٠ ، وابن الصغير المالكى : سيرة الائمة الرستميين ص ١٢ .

وانتعش الفقير وشرعوا فى عمارة البلاد واحياء الموات من الأرض [١] .

وبعد عودة رسل أباضية المشرق من تاهرت ، اجتمع الأباضية وقرروا أن الامام عبد الرحمن بن رستم جدير بأن يكون خلفا لأبى بلال مرداس وطالب الحق وأبى حمزة المختار . ورأوا اعانة عبد الرحمن على قدر الاستطاعة ، وأرسلوا اليه الأموال مرة ثانية مع وفد أباضى ولكن عبد الرحمن طلب رد المال فى هذه المرة « لأن أهل بلاده يتمتعون بالعدل ، وأصحاب المال فى حاجة الى أن يدفعوا به عن أنفسهم الظلم » [٢] .

وواضح أن الأباضية ساروا على نهج فقيههم ومعلمهم وامامهم ، الامام جابر بن زيد ، وأرادوا نشر مذهبهم فى أنحاء العالم الإسلامى ، وتكاتفوا فى الشرق والغرب ، وسعوا الى اقامة الامامة الإسلامية العادلة. ومما يؤكد قولنا كل الأحداث السابقة واللاحقة ، وكذلك ما ذكره الشماخى عبد الرحمن بن رستم وأباضية المشرق اذ يقول : « فتعجب أهل المشرق من زهده فى الدنيا واعترف كل أباضى بامامته ، ووصلوه بكتبهم ووصاياهم » [٣] .

وقد تمسكت الدولة الرستمية بالدين والتزم أئمتها سيرة الخلفاء الراشدين ، وكثرت أموالها من الزراعة والصناعة والتجارة ، وعظمت قوتها الحربية واتسعت رقعتها فأصبحت تشتمل على أغلب المغرب الأوسط وأغلب المغرب الأدنى . وأصبحت طرابلس كلها الا المدينة من أملاك الدولة الرستمية ، وامتد سلطانها على جربة فى الجنوب الشرقى لقابس ، كما امتد نفوذها على جبال نفوسة وعلى جبال اوراس وجنوب

---

(١) ابن الصغير المالكى : سيرة الأئمة الرستميين ص ١٢ ، ومحمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٣ ص ٤٣٦ — ٤٤٠ .

(٢) الشماخى : سير ... ص ١٤٠ ، وابن الصغير : سيرة الأئمة الرستميين ص ١٣ ، ومحمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٣ ص ٤٤١ ، وسعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ص ٣٨٧ .

(٣) الشماخى : سير ... ص ١٤٠ .

أفريقية الى شمال قفصــة ، وأغلب المغرب الأوسط كله من شرق مدينــة تامســان غربا الى شرق المسيلة ، ودخلت كل القرى والأقاليم التى دانت بمذهب الأباضية تحت سلطان تاهرت [١] .

وكان عهد عبد الرحمن بن رستم عهــد ميلاد الدولــه الرستمية وفتوتها ، وكان عهد ابنه الامام عبد الوهاب عهــد شبابها ونضوجها [٢] .

ومع أن الدولة الرستمية كانت أباضية المذهب إلا أنها لم تفرض مذهبها على الناس بل تركت الناس تختار من المذاهب الإسلامية ماتشاء ، فكانت دولة الحرية الفكرية وحرية الكلام فى حدود الدين الإسلامى فكان فيها المالكية والمعتزلة والصفرية وكل المذاهب الموجودة فى المشرق [٣] . ويذكر ابن الصغير المــالكى ما كان يقــوم فى مساجد تاهرت وجامعها من مناظرات لطيفة فى الفروع بين الفقهاء [٤] .

كذلك رحبت الدولة الرستمية فى ديارها بالعلويين من أبناء على بن أبى طالب . أمــا أهل الذمــة من اليهــود والنصارى فقد تمتعوا فى الدولة الرستمية بكافة حقوقهم التى فرضتها الشريعة الإسلامية ، ووجدوا فى الميادين الاقتصادية والعلمية وفى مجال الأعمال المختلفة فى تاهرت كل ما يجده المسلمون [٥] .

ولم يستطع يزيد بن حاتم والى المنصــور على أفريقية وواليها أيضا طوال عهدى المهــدى والهادى وبعض حكم الرشيد (١٥٥ — ١٧٠ هـ /

---

(١) انظر : محمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٢ ص ٢٤٤ وج ٣ ص ١٨٥ و ٣٤٣ و ٣٨٢ — ٣٨٣ و ٤٢٧ ، وما ذكره من مراجع ، وسعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ص ٣٩٥ — ٣٩٨ وما ذكره من مراجع .

(٢) توفى الامام عبد الوهاب بن عبد الرحمن فى سنة ١٨٨ هـ (٨٠٤ م) .

(٣) انظر : محمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٣ ص ٣٣١ .

(٤) ابن الصغير المالكى : سيرة الأئمــة الرستميين ص ٤٢ .

(٥) انظر : محمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٣ ص ٣٣٣ .

٧٧٢ — ٧٨٦ م) ، الهجوم على تاهرت والمغرب الأوسط أو القضـــاء على عبد الرحمن بن رســـتم •

وحين ولى هارون الرشيد حكم الدولة العباسية كان يعلم أن الدولة الرستمية قد رسخت ، وكان لا يطمع فى احتلالها أو القضـــاء عليها كمـــا كان المنصـــور يمنى نفسه • ولهذا نراه يوصى واليه فى القيروان روح بن حاتم بن المهلب (١٧١ — ١٧٤ هـ / ٧٨٨ — ٧٩١ م) بمسالمة الدولـــة الرستمية وفعلا عقد روح بن حاتم مـــع عبد الوهاب بن رستم معاهـــدة حسن الجـــوار •

وفى ولاية روح بن حاتم ، ســـار ادريس الأكبر ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، ومعه مولاه راشـــد الذى يقال إنه بربرى الأصـــل ، من مصر واجتاز برفقة مـــولاه جنوب أفريقية الى المغرب الأوسط ثم الأقصى فوصـــلا وليلى فى جنوب طنجة حيث أسسا الدولة الإدريسية الكبرى •

وتتفق الروايات التاريخية على أنه كشف أمر أدريس فى مصر ولكن صاحب بريدها ، واضح بن عبد الله المنصـــورى ، حملة على البريد الى المغرب وتستر عليه ، كمـــا أن واليها على بن سليمان بن على بن عبد الله العباسى لم يفضح أمره وتركه يتوجه نحو المغرب [١] •

وكان مسير ادريس فى أفريقية والمغرب الأوســـط فى المناطق الأباضية التى أكرمته وحفظته فى طريقه [٢] • واستطاع أدريس أن يؤسس دولة الأدارسة العلوية التى حكمت فى المغرب الأقصى نحـــو قرنين من الزمان • وقـــد بويع ادريس بالامامـــة فى وليلى التى اتخذها قاعـــدة لدولته فى

---

(١) انظر : سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ١٥٣ — ١٥٤ ، وسعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ص ٤٠٨ — ٤١٢ •

(٢) انظر : محمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٣ ص ١٠٦ •

سنة ١٧٢ هـ (٧٨٩ م) ثم بنى ادريس الثانى مدينة فاس لتصبح قاعدة لدولة الأدارسة •

ثم أقطع هرون الرشيد بعد ذلك أفريقية وقاعدتها القيروان لابراهيم ابن الأغلب فى سنة ١٨٤ هـ (٨٠٠ م) على أن تكون وراثية فى أولاده وأحفاده وتدين بالولاء للعباسيين •

أما عبد الرحمن بن رستم التى قامت دولته قبل قيام دولتى الأدارسة والأغالبة ، والتى شملت الجزء الأكبر من بلاد المغرب فقد كانت له الزعامة على جميع أباضية بلاد المغرب وكذلك على الصفرية الذين أصبحوا معتدلين بفضل جهود الأباضية فى سبيل نشر الإسلام وفى سبيل تهذيب تطرف وغلو الصفرية كما أشرنا سابقا ، بل إن كثيرا من الصفرية تحولوا الى المذهب الأباضى •

وحين قضت الدولة الفاطمية على الدولة الرستمية عمدت الى القضاء على كنوزها العلمية لتصرف المغرب عن الامامة الإسلامية العادلة التى سعد بها أهل المغرب •

ولم تكن الدولة الأموية أو العباسية أقل عداء للأباضية من الفاطميين أو أقل حرصا على اخفاء مؤلفات الأباضية أو ابادتها • وحين بدأ الاستعمار يسيطر على بلاد المغرب فى العصر الحديث نراه يعمد الى كتابة تاريخ بلاد المغرب كما شاء •

ولهذا لانعجب اذا تأثر الكثير من الباحثين العرب المحدثين بما ورد فى كتابات القدماء والحديثين • ونرى مثلا أحد الباحثين الأعلام فى التاريخ المغربى حين يعرض الى زعامة عبد الرحمن بن رستم على كل أباضية بلاد المغرب فضلا عن الصفرية يقول : « والحقيقة ان اجتماع هذه الفرق المتنافرة فى دعوة واحدة يمكن أن يفهم منه أن المسألة لم تكن مسألة اصلاح دينى يسعى اليه البعض أو الآخرون ، بل مسألة

سياسية هدفها مدافعة حكم ممثلى الخلافة ، والاستقلال عن الدولة ، بمعنى أن الدين لم يكن الا ستارا لإخفاء هذا الهدف ، أو لاعطاء موقف الانفصال نوعا من الشرعية » [١] .

ولسنا نحتاج الى نقد هذا الرأى أو التعليق عليه بعد ما أوضحناه من فضل الأباضية فى أنحاء العالم الإسلامى فى سبيل نشر الإسلام والعودة به الى جوهره وأصوله ، وبعد ما ذكرناه من الرباط الدائم المتصل بين الأباضية جميعا سواء فى المشرق أو المغرب .

ويجدر بنا أن نشير الى أن أبا حاتم الملزوزى كان امام دفاع وكان يرسل مازاد على ما يحتاج اليه مما يجمعه من الزكاة لعبد الرحمن بن رستم [٢] .

أما دولة بنى واسول الصفرية فقد قامت فى سجلماسة [٣] فى شمال وادى درعة ، على طرف الصحراء جنوبا فى آخر بلاد العمران ، وتليها المفازة الكبرى التى تؤدى الى غانة من بلاد السودان ، وكان يسكن تلك المفازة قبائل الملثمين الصنهاجية من مسوفة ولمتونة [٤] .

وقامت دولة بنى واسول فى المغرب فى سنة ١٤٠ هـ (٧٥٧ — ٧٥٨ م) فى نفس السنة التى قامت فيها دولة أبى الخطاب الأباضية . وكان أول امام لهذه الدولة رجل سودانى الأصل اسمه عيسى بن يزيد

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى : ص ٣٨٠ .
(٢) الشماخى : سير ... ص ١٣٨ .
(٣) كان بناة سجلماسة من الصفرية من قبيلة مكناسة ، وكانت مكناسة من اهم قبائل البربر التى أيدت ثورة ميسرة فى اقليم طنجة . وتعرف منطقة سجلماسة باسم تافللت ، أما مدينة سجلماسة فقد اندثرت وقام مكانها حاليا الريسانى . انظر : سعد زغلول عبد الحميد :
تاريخ المغرب العربى ص ٣٩٨ — ٣٩٩ وما ذكره من مراجع .
(٤) كتاب الاستبصار (نشر الدكتور سعد زغلول عبد الحميد) ص ٢٠٠ — ٢٠١ والهوامش .

الأســـود (١) لكنهم لم يرتضوا سيرته فعزلوه بعد خمسة عشر عاماً فى ســـنة ١٥٥ هـ (٧٧٢ م) • ويرجح بعض المؤرخين القدمـــاء ان عزلـــه كان باشارة من الأباضية (٢) مما يبين أنه كان لعبد الرحمن بن رستم الرئاسة على الأباضية والصفرية فى بلاد المغرب بعد استشهاد أبى الخطاب •

وولى امامـــة سجلماسة بعد عزل عيسى بن يزيد ، أبو القاسم سمكو (سمغون) (٣) بن واسول المكناسى • وكان صفرية سجلماســـة على علاقة وثيقة بأباضية تاهرت حتى اننا نرى ابن خلدون يقول عن سمكو بن واسول إنه كان إباضيا صفريا (٤) ، بل إن ابن خلدون يذكر بعد ذلك أن بعض أئمـــة سجلماســـة كان أباضيا والبعض كان صفريا • وقد تصاهر البيتان الرستمى والواسولى فتزوج مدرار بن اليسع بن سمعون المكناسى مـــن أروى بنت عبد الرحمن بن رستم (٥) •

والحق ان الامامة الرستمية الأباضية كانت أعظم دولة فى بلاد المغرب حتى نهاية القرن الثالث الهجرى ، فكانت تشتمل فى مساحتها على أغلب المغرب الأوسط وأغلب المغرب الأدنى ، وكانت تفوق فى عدد السكان وفى الثروة والمـــال وفى كثرة الجيوش ، الدولة الأدريسية العلوية فى المغرب الأقصى ، ودولة الأغالبة السنية فى القيروان ، ودولة بنى واسول الصفرية فى سجلماسة •

وقد عرفت بلاد المغرب بفضل الامامة الرستمية الاستقرار • فقـــد

---

(١) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغـــرب ص ١٤٩ ، وابن خلدون : العبر ... ج ٦ ص ١٣٠ ، وابن عذارى : البيان المغـــرب ج ١ ص ٢١٥ •

(٢) البكرى : المغرب ... ص ١٤٩ ، وابن خلدون : العبر ... ج ٦ ص ١٣٠ •

(٣) يسميه ابن خلدون « سمكو » ويسميه ابن عذارى « سمغون » .

(٤) ابن خلدون : العبر ... ج ٦ ص ١٣٠ .

(٥) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٢١٥ — ٢١٦ ، وزامباور : معجم الأنســـاب والأسرات الحاكمـــة فى التاريخ الاســـلامى ج ١ ص ١٠٢ .

أوجدت الدولة الرستمية بفضل علاقاتها الطيبة وحسن جوارها مع الدول التى قامت فى بلاد المغرب — على الرغم من اختلاف مذاهبها — نوعا من الاستقرار والوحدة بين المغاربة أدى الى دفع الحضارة الإسلامية نحو التقدم والازدهار ، كما أدى الى زيادة انتشار الإسلام فى أعماق أقاليم المغرب فضلا عن ازدياد التعريب بين المغاربة •

كذلك تبادلت الدولة الرستمية التجارة والهدايا مع ملوك الأندلس الأمويين • وكانت مصر أيضا على علاقة حسنة مع الدولة الرستمية لعدلها وحضارتها ونشاطها التجارى ففتحت لها ذراعيها وتدفقت قوافلها التجارية اليها • ويذكر الشماخى أن عدل عبد الرحمن بن رستم جذب اليه الأباضية وغيرهم من سائر البلدان فسار التجار وأصحاب رءوس الأموال بما لديهم الى تاهرت من مصر وأفريقية والمغرب [1] •

وقد ارتبط انتشار الإسلام بطرق التجارة فكانت الدولة الرستمية ودولة بنى واسول على صلة وثيقة تجارية فيما يلى المغرب جنوبا فى الصحراء وبلاد السودان ، وكانتا أول من نشر الدين الإسلامى والحضارة الإسلامية فى أقطار السودان [2] • فكان التجار والفقهاء يحملون الإسلام الى تلك الأقطار النائية ، بل إن بعض التجار كان يجمع بين التجارة والتعليم فيقومون بمزاولة النشاط الاقتصادى والتعليمى وينشئون المساجد والزوايا والربط ومدارس تعليم القرآن •

وكان التجار والفقهاء يؤثرون فى السود بنظافتهم وأمانتهم وسلوكهم • ولهذا وجد الإسلام طريقه الى الصحراء والى السودان فى القرون

---

(١) الشماخى : سير ... ص ١٥٨ .

(٢) أطلق العرب كلمة « السودان » على أصحاب البشرة السوداء بصفة عامة تمييزا لهم عن البيض . أما بلاد السودان فنعنى بها هنا الحزام السودانى الممتد فى قلب القارة الافريقية من الشرق الى الغرب ، أو تلك الرقعة الواسعة الممتدة من بلاد المغرب شمالا وساحل المحيط الأطلسى غربا ووادى النيل شرقا .

الثلاثة الأولى للهجرة بفضل تجار الأباضية ودعاتهم وبفضل مصاهرتهم لأهل البلاد . فظفر الإسلام بأقوى القبائل وأشجعها وأكثرها عددا ، ثم قوى الإسلام والمسلمون الى أن قامت بعد ذلك الامبراطوريات الافريقية الكبرى [١] .

وكان أهل جبل نفوسة ، وهم من رعايا الدولة الرستمية ، ممن كان يقوم بالرحلة الى السودان للتجارة ونشر الدين الحنيف . وقد ساروا على هذا المنوال حتى بعد انتهاء الدولة الرستمية بقرون [٢] .

وطبيعى أن اعتناق الإسلام كل يؤدى الى تعلم اللغة العربية ، لغة القرآن والحضارة الإسلامية . وقد جعلت الدولة الرستمية اللغة العربية لغة رسمية للدولة فانتشرت بين البربر وكان العلماء والوعاظ يحثون الناس على تعلمها . ومع أن اللغة البربرية كانت لاتزال لغة التخاطب فى المنازل وفى الأسواق وفى القرى النائية وفى الجبال الا أن كثيرا من الكلمات العربية دخلت فى اللغة البربرية كما أصبحت اللغة البربرية تكتب بحروف عربية . وقد حفظ الله جبل نفوسة من غزو الفاطميين فبقى كثير من تراثه العلمى الذى حفظ لنا أخبار الأباضية فى بلاد المغرب ومجهوداتهم الرائعة فى سبيل نشر الإسلام والتعريب ، وان كان الكثير من هذا التراث العلمى لايزال مخطوطا .

---

(١) انظر : دكتور ابراهيم على طرخان : الاسلام واللغة العربية فى السودان الأوسط والغربى : ص ١٥ وما ذكره من مراجع .

(٢) محمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٣ ص ٣٥٢ .

٨ ــ بلاد المغرب فى التاريخ العمانى وفى سير الفقهاء والعلماء الأباضية .

إن تاريخ الأباضية فى بلاد المغرب يبين بوضوح صلة المغرب الاسلامى بالمشرق وبالأباضية العمانيين الذين حافظوا على هــذه الصلة والذى أصبح المغرب الإســلامى بفضلها أصيلا فى الإســلام والعروبة • كذلك يجــد الباحث جوانب من أخبار المغرب الإســلامى العربى وتاريخ الأباضية فيه وجهودهم فى نشر الإســلام وفى انشاء الامامة الإسلامية محفوظا فى التاريخ العمانى القديم والحديث ، ومدونا فى سير الفقهاء والعلماء الأباضية العمانيين •

وفى البداية كانت البصرة هى المركز الرئيسى لكل الأباضية فى أنحاء العالم الإســلامى منذ أن وضع الامام العمانى ، جابر بن زيد ، أسس المذهب الأباضى الفكرى والسياسى • وكانت البصرة فى القرنين الأول والثانى الهجريين عمانيــة برجالها الأفاضل العلماء ، ومن البصرة أزدهرت دعــوة أبى الشعثاء وجذبت اليها الكثير من أهل البلاد الإسلامية •

وتكاتف العلماء العمانيون والبصريون الأباضية من تلاميذ أبى الشعثاء وأصحابه فى العمل على انتصــار الحركة الأباضية • ونجح تلميذ أبى الشعثاء وزميله ، أبو عبيدة مسلم بن أبى كريمــة التميمى بالولاء ، البصرى، مع زميله ضمام بن السائب الندبى العمانى وأعوانهما فى تنظيم الحركــة الأباضية التى انتصرت فى عمــان ــ موطن أبى الشعثاء ــ وقامت الامامة فيها ، كمــا قامت فى اليمن وحضرموت وفى بلاد المغرب •

وفى عمان قامت الامامة قبيل قيام الدولــة العباسية أو بعد قيامها أى فى ســنة ١٣١ هـ / ٧٤٨ م أو سنة ١٣٢ هـ / ٧٤٩ م وانتهت باستشهاد الامام الجلندى بن مسعود وأصحابه فى ســنة ١٣٣ هـ / ٧٥٠ م أو فى سنة ١٣٤ هـ / ٧٥١ م • وقــد عاد بنو العباس الى التحكم فى عمان الى

أن قامت فيها الامامـــة مرة أخرى فى سنة ١٧٧ هـ / ٧٩٣ م ، ورجعت عمان الى المسلمين [١] ، أى الى الأباضية •

وبويع محمد بن أبى عفان اليحمـــدى بالامامـــة وتوالى بعد ذلك حكم الأئمـــة فى عمان • وعاصرت الدولة الرستمية فى بلاد المغرب امامـــة محمد بن أبى عفان اليحمـــدى ومن جاء بعده من الأئمـــة •

وحين قامت الامامـــة فى عمان سنة ١٧٧ هـ / ٧٩٣ م حلت عمان محل البصرة فى ربط أباضية المشرق بأباضية المغرب ، وأصبح الأباضية العمانيون يتولون أمـــر المغرب من عمان نفسها بدلا من البصرة •

ويجدر بنـــا أن نشـــير الى أن الأباضية العمانيين قديما وحديثـــا يعتبرون أمـــر المغرب أمرهم وأئمـــة المغرب أئمتهم • ونرى مثلا فى باب « ذكر من أخـــذ عنه أهل عمـــان دينهم الصحيح » الـــذى أورده الامام السالمى ••• يقـــول : « ••• ثم الجلندى بن مسعود الامـــام العمانى ، وأبى الخطاب وعبد الرحمن بن رستم الامامين المغربيين وأصحابهم •

ومن كان فى طبقتهم ، ثم محبوب بن الرحيل وهاشم بن عبد اللـــه الخراسانى وموسى بن أبى جابر ••• » [٢] •

ومن خلال قراءتنا ودراستنا لمخطوط « ســـير الأئمـــة القائمين بالحق فى الأمـــة » وهو المعروف باسم « الســـير والجوابات » والمحفوظ فى وزارة التراث القومى والثقافة فى سلطنة عمـــان ، لمسنا التأكيد على أن أمـــر الأباضية فى المشرق والمغرب واحـــد •

وفى هـــذا المخطوط جزء « من ســـيرة أبى عبيدة الى عبد الوهاب ابن عبد الرحمن بن رستم من المشـــايخ » [٣] وهنا يأتى وصف الامـــام

(١) السالمى : تحفة الأعيان ج ١ ص ٧٤ .
(٢) انظر هذا الباب فى : السالمى : تحفة الأعيان ج ١ ص ٦٥ — ٦٦ .
(٣) مخطوط « السير والجوابات » ص ٦١٠ .

عبد الوهاب امام الدولة الرستمية بأنه من « المشايخ » وهذا يبين أهمية الصفة الدينية والعلمية عند الأباضية قبل الصفة الدنيوية . أما الجزء من رسالة أبى عبيدة الى عبد الوهاب بن رستم الذى ورد فى المخطوط فهو عبارة عن سبعة أسطر تتعلق بصحة الامامة من عدم صحتها . وبعدها تفسير لكلام أبى عبيدة من أبى عبيدة المغربى فى أكثر من صفحتين (١) .

أما أبو عبيدة المغربى فالراجح أنه أبو عبيدة عبد الحميد الجناونى من أئمة جبل نفوسة فى العلم والتقوى وكان معاصرا للامام عبد الوهاب (٢) .

وواضح أن رسالة أبى عبيدة الى عبد الوهاب بن رستم توضح متى تكون الامامة صحيحة . والمعروف أنه حدث انشقاق فى أول امامة عبد الوهاب التى تمت بعد شهر من وفاة عبد الرحمن . وكان عبد الرحمن قد جعل — فى مرض موته — الأمر شورى فى سبعة من كبار أصحابه وبينهم ابنه عبد الوهاب . وبعد انتخاب عبد الوهاب اماما قام بعض المعارضين وطالبوه بألا يقطع أمرا دون مشورة ، فكان رد عبد الوهاب أنه « لاشرط للامامة الا الحكم بالكتاب والسنة وآثار الصالحين قبله » . كذلك شكك بعض المعارضين فى صحة امامة عبد الوهاب بحجة عدم جواز امامة العالم اذا وجد من هو أعلم منه (٣) .

كذلك تتضح صلة الأباضية العمانيين باسلام أهل المغرب مما ورد فى « سيرة الشيخ الفقيه محمد بن محبوب » ، إذ جاء فى هذه السيرة ان أهل عمان وأهل المغرب عقدوا الامامة لعبد الله بن يحيى رضى الله

---

(١) المرجع السابق ص ٦١٠ — ٦١٣ .
(٢) انظر : محمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج ٣ ص ١٨١ .
(٣) بخصوص هذه الفتنة انظر : الشماخى : سير ... ص ١٤٤ — ١٥٤ ، وسعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ص ٣٨٨ — ٣٩٢ .

عنه [١] ، وذلك فى زمان أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة « وعن رأيه كان ذلك من عقد أهل المغرب لأبى الخطاب ثم ابن رستم من بعده ثم عبد الوهاب بعد ذلك » [٢] .

أما محبوب بن الرحيل فهو من العلماء الأباضية العمانيين وقد توفى وهو قاضى صحار فى عمان فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى فى سنة ٢٦٠ هـ [٣] (٧٤٤ م) .

وقد أشار السالمى الى كتاب عن محمد بن محبوب رحمه الله الى أهل المغرب [٤] . وقد وجدنا هذا الكتاب فى مخطوط « السير والجوابات » . وهذا الكتاب جاء فى سيرة الشيخ الفقيه محمد بن محبوب رحمه الله ، وبدأه بعد البسملة بقوله : « الى جماعة من كتب اليه من المسلمين [٥] من أهل المغرب من أخيهم محمد بن محبوب » . وجاء هذا الرد على أسئلة الأباضية فى المغرب ، فى تسع وعشرين صفحة من القطع الكبير من صفحة ٥٥٤ الى صفحة ٥٨٣ فى المخطوط .

وفى هذا الكتاب لمحمد بن محبوب الرد على الأباضية فى بلاد المغرب عما سألوا عنه من أمور دينية مختلفة وكذلك مايشترط فى امام المسلمين وفى انتخاب الامام . فجاء فى كتاب محمد بن محبوب مثلا ، الاجابة عن مصارف الزكاة اذا وصلت الى الامام ، وعن تولية عامل على الحاج اذا خرجوا الى مكة ، وعن الحكم والقضاء ومن يقوم به ، وعن قبول الامام أو القاضى للهدايا ، وعن الرشوة والسرقة ، وعن العامل اذا استعمل وهو فقير ثم ظهرت فى يده أموال من غير ميراث دخل عليه فى عمله ،

---

(١) هو عبد الله بن يحيى الكندى المشهور بطالب الحق والذى قامت امامته الاباضية فى حضرموت واليمن فى سنة ١٢٩ هـ (٧٤٦ م) .
(٢) مخطوط « السير والجوابات » ص ٥٨١ .
(٣) السالمى : تحفة الأعيان ج ١ ص ١٢٧ .
(٤) المسلمين تعنى الأباضية .
(٥) مخطوط « السير والجوابات » ص ٥٥٤ .

وعن اقامة الحد ، وعن الارتداد عن الإسلام ، وعن التقية وهل تجوز فى القول أو فى العمل •

كذلك شمل هذا الكتاب أحكاما عن الغزو والجهاد ، وعن الخروج لمحاربة العدو ، وعن المشركين اذا غزاهم المسلمون ممن كانت له ذمة وعهد وممن لم تكن له ، كذلك أجاب الكتاب عن جبر الامام رعيته على الغزو والجهاد •

وأجاب الفقيه محمد بن محبوب عن عقد الامامة ، وعن العقد للامام الذى يخلف الامام المتوفى • ويعطى الفقيه محمد بن محبوب الأمثلة دائما مما فعله أهل عمان وأهل المغرب • كذلك يذكر محمد بن محبوب رأيا لوالده الفقيه محبوب بن الرحيل فى الفرق بين الامام وبين أمير المؤمنين فيقول : « ••• وقد بلغنى عن والدى محبوب بن الرحيل رحمه الله انه حمل ذلك عن بعض أشياخنا ، انه ذكر له ذلك فى أئمة عمان وحضرموت فقال الأئمة فى الأمصار ، كل امام فى مصره ، فاذا اتصل حكم المسلمين كانت شورى بين المسلمين ، ولا يجوز ان يسمى أمير المؤمنين لأنه اسم جامع للمؤمنين فى كل الأمصار ، كما لا يجوز أن يقال أمير الناس كلهم وامامهم كلهم الا أن يملك جميع أرض الإسلام فحينئذ يكون أمير المؤمنين ويكون على كل امام أن يسمع له ويطيع ويبطل الامامة عنه ، فهذا ما عليه المسلمون ••• » (١) •

وهكذا نرى أن تاريخ بلاد المغرب الإسلامى حفظ ودون مجهودات الأباضية العمانيين فى صنع التاريخ المغربى الإسلامى العربى وفى اقامة الدول الأباضية التى كان لها أثر كبير فى نشر الإسلام فى بلاد المغرب وفى السودان وفى أفريقية بصفة عامة • كذلك حفظ التاريخ العمانى كما حفظت سير الفقهاء والعلماء الأباضية العمانيين ، التاريخ المغربى وتاريخ

(١) مخطوط « السير والجوابات » ص ٥٨٢ •

الدول الأباضية التى قامت على أســاس الإسلام • واعتبر التاريخ العمانى هــذا التاريخ المغربى جزءا من تاريخ عمان •

وربطت عمان بين المشرق الإســلامى وبين المغرب ، على البعد بينهما ، من أجل نشر الإســلام ومن أجل الوحــدة الإسلامية •

وقد لاحظنا أن أئمــة الدولة الرستمية حرصوا على ارســال الوصايا والنصائح المكتوبة إلى عمالهم على البلاد ليتبعوا أصــول الإسلام وقواعد الدين الحنيف مثلما كان يفعل الأئمــة العمانيون مع ولاتهم وعمالهم •

وبعد فاننا لابد أن نشــير هنا الى أن المغرب الإســلامى العربى بقى القاعــدة الخلفية التى تقــوم على حماية الإســلام • وكان المغــرب الإسلامى بعد انتشــار الإســلام فيه قاعدة امامية لنشر الإســلام فى اسبانيا وجنوب فرنســا وجزائر الخوض الغربى من البحــر الأبيض المتوسط ، وكانت هذه البلاد والجزر هى أهم وسيلة لاتصال غرب أوربا بالحضارة الإسلامية •

ولابد للمؤرخ المنصف أن يبين فضــل أصحاب الدعوة والعلم والتجار من الأباضية العمانيين الذين ركبوا كل صعب فى سبيل نشر الإسلام والدعوة اليه كلما أمكنهم ذلك • وقد كانوا روادا فى مناطق وآفاق كانت مجهــولة لدى العالم الأوربى الحــديث ومن سبقهم من الشعوب المتحضرة كالاغريق والرومان • والمعروف ان الأوربيين لم يبدءوا الدراســات الافريقية وكشف مجاهل أفريقية إلا فى أعقاب عصر النهضة والاستكشافات البحرية فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر الميلادى ، واقتصرت كتابتهم حينذاك على السواحل ومصبات الأنهار مدة قرن من الزمان على أقل تقدير ، وكان هدفهم الاتجار بالرقيق واستغلال خيرات البلاد فضلا عن التبشــير بالنصرانية بعدما أخفقت المعركــة الصليبية فى الشرق العربى •

وقــد حاول الاستعمار لبلاد المغرب فى العصر الحــديث ان يقاوم مقومات الإســلام والعروبة فيه وأن يزيف الحقائق التاريخية وأن يباعد بين المغرب وبين أصالته الإســلامية العربية التى تمتد منذ القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، ولكن محاولة المستعمرين الجبارة فى هــذا الصدد كتب عليها الفشــل الذريع وبقيت المغرب أصيلة فى اســلامها وعروبتها •

نقاط البحث :

١ — انتشار الإسلام خارج شبه الجزيرة العربية •

٢ — فتح العرب لبلاد المغرب وإسلام المغاربة •

٣ — الحكام الأمويون وولاتهم بعد فتح المغرب •

٤ — الفقهاء والدعاة وشخصية بلاد المغرب الإسلامية والعربية •

٥ — أباضية عمـان والدعوة الى الإسلام والى الامامة العادلة •

٦ — الدعوة الأباضية فى بلاد المغرب •

٧ — انتشار الإسلام فى ظل دول المغرب الأباضية :

— رئاسة عبد الله بن مسعود التجيبى الأباضى •

— امامة الحارث بن تليد الحضرمى •

— امامة اسماعيل بن زياد النفوسى •

— دولة أبى الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى •

— امامة أبى حاتم يعقوب بن لبيب الملزوزى •

— الدولة الرستمية •

— بلاد المغرب فى التاريخ العمانى وفى سير الفقهاء والعلماء الأباضية •

أهم مراجع البحث

(أ)

المصـــادر المخطوطــة

— ابن عبد السلام (جعفر بن احمـــد . ت فى اواخر القرن الحادى عشر الهجرى) ابانة المناهج فى نصبحة الخوارج . مخطوط فى دار الكتب المصرية بالقاهرة . رقم ٢٥٤٩٩ ب .

— ابو زكريا (يحيى بن ابى بكر . ت فى النصف الثانى من القرن الرابـــع الهجرى) : الســـيرة واخبار الأئمـــة . مخطوط فى دار الكتاب المصريـــة بالقاهرة . رقم ٩٠٣٠ ح .

— البرادى (ابو القاسم بن ابراهيم . ت ٦٩٧ هـ) : رسالة فيها تقييد كتب اصحابنا . مخطوط فى دار الكتب المصرية بالقاهرة . رقم ٢١٧٩١ ب .

— الجيطالى (اسماعيل بن موسى . ت ٧٥٠ هـ) : شرح قواعد الاســـلام . مخطوط فى دار الكتب المصرية بالقاهرة . رقم ٢٢٠٦٧ ب .

— الخراسانى (ابو غانم . ت فى القرن الثانى الهجرى) : المدونة . مخطوط فى دار الكتب المصرية بالقاهرة . رقم ٢١٥٨٢ ب .

— الدرجينى (ابو العباس احمـــد . ت فى القرن السابع الهجرى) : طبقات الأباضية . مخطوط فى دار الكتب المصرية بالقاهرة . رقم ١٢٥٦ ح ، ٧٢٦١٢ تاريخ تيمـــور .

— الشماخى (ابو العباس احمد بن سعيد بن عبد الواحـــد الشماخى الأباضى . ت ٩٢٨ هـ) :

١ — شرح مقدمة التوحيد . مخطوط فى دار الكتب المصرية بالقاهرة . رقم ٢٢٥٧٢ ب .

٢ — شرح مقدمة اصـــول الفقـــه . مخطوط فى دار الكتب المصرية . رقم ٢١٥٨٧ ب .

— العوتبى (سلمة بن مسلم الصحارى العوتبى) : انساب العرب . مخطوط فىدار الكتب المصرية . رقم ٢٤٦١ تاريخ .

— النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب . ت ٧٣٢ هـ) : نهاية الارب فى فنون الأدب . المطبوع منه ١٨ جزءا الطبعة الاولى بدار الكتب المصرية . القاهرة ١٩٢٣ — ١٩٥٥ والباقى مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٥٤ « معارف عامة » .

— الوسيانى (أبو الربيع ت ٤٧١ هـ) : سير أبى الربيع . مخطوط فى دار الكتب المصرية بالقاهرة . رقم ٩١١٣ ح .

— كتاب سير الأئمة القائمين بالحق فى الأمة . وهو المعروف باسم « السير والجوابات عن العلماء والأئمة رحمهم الله تعالى » . مخطوط محفوظ فى وزارة التراث القومى والثقافة فى سلطنة عمان . الرقم العام ١٨٥٤ . الرقم الخاص ٢ .

(ب)

المراجع العربية المطبوعة

— ابراهيم على طرخان (الدكتور) :

١ — الاسلام واللغة العربية فى السودان الأوسط والغربى (مستخرج من مجلة جامعة أم درمان الاسلامية — العدد الثانى ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م — دار النصر للطباعة — القاهرة) .

٢ — قيام امبراطورية مالى الاسلامية (مستخرج من مجلة جامعة القاهرة بالخرطوم . العدد الأول ١٩٧٠ م . مطبعة جامعة القاهرة ١٩٧٠ م).

٣ — امبراطورية غانة الأسلامية (الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م) .

— ابن ابى دينار (محمد بن ابى القاسم الرعينى القيروانى . ت ١٠٩٢ هـ) : كتاب المؤنس فى أخبار افريقية وتونس . نشر تونس ١٢٨٠ هـ .

— ابن ابى زرع (على بن محمد بن أحمد بن عمر . كان حيا قبل سنة ٧٢٦ هـ): الأنيس المطرب بروض القرطاس فى اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، نشر الرباط . المغرب ١٣٥٥ هـ .

— ابن الأثير (عز الدين على بن محمد . ت ٦٣٠ هـ) :

١ — الكامل فى التاريخ : ١٢ جزءا ، طبع بولاق القاهرة ١٢٩٠ هـ .

٢ — أســد الغابة فى معرفة الصحابة : ٥اجزاء . القاهرة ١٢٨٥ — ١٢٨٦ هـ .

— ابن الصغير : اخبار الأئمــة الرستميين . (نشر وترجمة موتيلينسفكى) .

Chronique d'Ibn Saghir sur les Imams de Tahert. éd. et trad. par motylinswki, dans actes du 14e Congrès des Orientalistes, 3e Partie, 1907.

— ابن الفقيه (ابو بكر احمــد بن محمد الهمذانى : ت أواخر القرن الثالث الهجرى) : مختصر كتاب البلدان . طبع ليدن ١٨٨٥ م .

— ابن بطوطة (ابو عبد الله محمد الطنجى : ت ٧٧٩ هـ) : تحفــة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار . المعروفة برحلــة ابن بطوطة . ٤ أجزاء نشر باريس ١٨٥٣ — ١٨٥٨ ؛ ونشر القاهرة فى جزءين ١٣٤٦ هـ / ١٩٢٨ م .

— ابن جبير (ابو الحسن محمد بن جبير الكنانى : ت ٦١٤ هـ) : كتاب رحلــة ابن جبير المعروف باســم « تذكرة بالأخبــار عن اتفاقات الأسفار » . نشره دى غويه الهولندى سنة ١٩٠٧ م فى الجــزء الخامس من سلسلة جب التذكارية .

— ابن حجر (شهاب الدين بن على العسقلانى : ت ٨٥٣ هـ) :
الاصابة فى تمييز الصحابة : القاهرة ١٣٥٨ هـ .

— ابن حزم الأندلسى (الامام ابو محمد على الظاهرى : ت ٤٥٦ هـ) :
الفصل فى الملل والأهــواء والنحل : ٤ اجزاء . القاهرة ١٣١٧ هـ .

— ابن حــوقل (ابو القاسم محمد بن حوقل البغدادى . ت أواخر القرن الرابع الهجرى) :

١ — المسالك والممالك والمفاوز والمهالك . نشرة دى غويه فى المجموعــة الجغرافية العربية . ليدن ١٨٧٣ م .

٢ — صورة الأرض . طبع بيروت — مكتبة دار الحياة .

— ابن خرداذبة (ت حوالى ٣٠٠ هـ) : كتاب المســالك والممالك . المجلــد السادس من مجموعة المكتبة الجغرافية . ليدن ١٨٨٩ م .

— ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد المغربى : ت ٨٠٨ هـ) :

١ — العبر وديوان المبتدا والخبر — مطبعة بولاق — القاهرة ١٢٨٤ هـ .

٢ — المقدمـــة . القاهرة ١٣١١ هـ .

— ابن خلكان (شمس الدين ابو العباس أحمد بن ابراهيم بن أبى بكر الشافعى ت ٦٨١ هـ) :
وفيات الأعيان : جزءان . القاهرة ١٢٩٩ هـ .

— ابن رزيق (حميد بن محمـــد . ت ١٢٧٤ هـ) :

١ — الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيديين . تحقيق عبد المنعم عامر ومحمد مرسى . الناشر وزارة التراث القومى بسلطنة عمان . مطابع سجل العـــرب بالقاهرة ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م .

٢ — الشعاع الشائع باللمعان فى ذكر أئمـــة عمان . تحقيق عبد المنعم عامـــر . الناشر وزارة التراث القومى بسلطنة عمان . طبع بدار احياء الكتب العربية بالقاهرة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .

— ابن سعد (كاتب الواقدى . ت ٢٣٠ هـ) :
الطبقات الكبرى ٨ أجزاء ، ليدن ١٩٠٥ — ١٩٢١ م ، وجزءان . القاهرة ١٣٥٨ هـ .

— ابن سعيد (على بن موسى المغربى : ت ٦٧٣ هـ) :
السفر الرابع من كتاب المغرب فى حلى المغرب . ليدن ١٨٩٩ م ، وتحقيق زكى محمد حسن ، وشوقى ضيف ، وسيدة أسماعيل كاشف . مطبعـــة جامعة القاهرة ١٩٥١ م .

— ابن طباطبا (محمد بن على بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى . انتهى من تأليف كتابه فى سنة ٧٠١ هـ) :
الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية . القاهرة ١٣٤٥ هـ / ١٩٢٧ م .

— ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم القرشى المصرى : ت ٢٥٧ هـ) :
فتوح مصر والمغرب والأندلس . نشر شارل تورى Torrey ، طبعة ليدن ١٩٢٠ م .

— ابن عذارى المراكشى (ت أواخر القرن السابع الهجرى) :
البيان المغرب فى أخبار المغرب : جزءان ، مكتبة صـــادر ، بيروت ١٩٥٠ م .

— ابن غلبون (ارتحل الى الأزهر وعاد الى بلده مسراتة سنة ١١٣٣ هـ) :
كتاب التذكار فيمن ملك طرابلس وماكان بها من الأخبار : نشر الطاهـــر احمد الزاوى ، القاهرة ١٣٤٩ هـ .

— ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم . ت ٢٧٠ هـ أو ٢٧٦ هـ) :
كتاب الامامة والسياسة : جزءان . القاهرة ١٣٢٥ هـ .

— ابن كثير (الامام الحافظ المفسر المؤرخ عماد الدين ابى الفداء اسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى . ت ٧٧٤ هـ) : البداية والنهاية فى التاريخ . ج ١ و ٢ . الطبعة الأولى القاهرة ١٣٥١ هـ / ١٩٣٢ م .

— ابن هشام (الامام ابو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب المعافرى الحميرى . ت ٢١٨ هـ) :
كتاب سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام . ٤ اجزاء . القاهرة ١٣٣٧ و ١٣٥٦ هـ .

— ابو العرب (محمد بن احمد بن تميم التميمى . ت سنة ٣٣٣ هـ) :
طبقات علماء افريقية . الجزائر ١٩١٤ م . (نشر الشيخ محمد بن أبى شنب) .

— ابو الفداء (اسماعيل بن على بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه ابن ايوب الملك المؤيد صاحب حماه . ت ٧٣٢ هـ) :
كتاب تقويم البلدان . ترجمة ونشر Ch. Solvet . الجزائر ١٨٣٩ م .

— ارنولد (المستشرق Sir Thomas Arnold) :
الدعوة الى الاسلام ، ترجمه الى العربية حسن ابراهيم حسن وآخرون ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٧ م .

— الادريسى (محمد بن محمد بن عبد الله الشريف . ت ٥٦٠ هـ) :
صفة المغرب واراضى السودان ومصر والأندلس مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق . ليدن ١٨٦٤ — ١٨٦٦ م .

— الاصطخرى (ابراهيم بن محمد . ت فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى) :
كتاب مسالك الممالك . ليدن ١٩٢٧ م .

— البرادى (ابو القاسم بن ابراهيم . ت ٦٩٧ هـ) :
الجواهر المنتقاة ، القاهرة ١٣٠٢ هـ .

— البكرى (ابو عبيد عبد الله بن عبد العزيز . ت ٤٨٧ هـ) :
المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب . طبع دسلان De Slane الجزائر ١٩١١م

— البلاذرى (احمد بن يحيى بن جابر البغدادى . ت ٢٧٩ هـ) :
فتوح البلدان . الطبعة الأولى بالقاهرة ١٣١٩ هـ / ١٩٠١ م .

— التونسي (محمد بن عمر . ت ١٨٥٧ م) :
تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان . القاهرة ١٩٦٥ م (مجموعة كتب تراثنا) .

— الدباغ (عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصارى . ت ٦٩٦ هـ) :
معالم الايمان فى معرفة أهل القيروان : جزءان ، تونس ١٣٢٠ هـ .

— الجزنائى (ابو الحسن على) :
كتاب زهرة الآس فى بناء مدينة فاس . الجزائر ١٣٤٠ هـ / ١٩٢٢ م .

— السالمى (أبو محمد عبد الله بن حميد بن سلوم السالمى) :
تحفة الأعيان فى سيرة أهل عمان . الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٣٢ هـ والجزء الثانى ، الطبعة الخامسة ، الكويت ١٣٩٤ هـ .

— السلاوى (أبو العباس احمد بن خالد الناصرى . ت ١٣١٩ هـ) :
الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى . طبع القاهرة ١٨٩٤ م .

— الشماخى (أحمد بن سعيد . ت ٩٢٨ هـ) :
كتاب السير : سير علماء ومشاريخ جبل نفوسة . المطبعة البارونية بالقاهرة ١٣٢٠ هـ .

— الطبرى (ابو جعفر محمد بن جرير . ت ٣١٠ هـ) :
تاريخ الأمم والملوك ، ١١ جزءا ، الطبعة الأولى بالمطبعة الحسينية المصرية ، وطبعة ليدن .

— العمرى (شهاب الدين احمد بن فضل الله . ت ٧٤٩ هـ) :

١ — التعريف بالمصطلح الشريف . القاهرة ١٣١٢ هـ .

٢ — مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار . الجزء الأول تحقيق احمد زكى باشا ، القاهرة ١٩٢٤ م ، والباقى مخطوط فى دار الكتب المصرية بالقاهرة .

— الغرناطى (ابو حامد محمد بن عبد الرحيم الأندلسى . ت ١١٧٠ م) :
كتاب تحفة الألباب . نشر g. Ferrard ، باريس ١٩٢٥ م) .

— القلقشندى (شهاب الدين ابو العباس احمد بن على . ت ٨٢١ هـ) :
صبح الأعشى فى صناعة الانشا . ١٤ جزءا ، المطبعة الاميرية بالقاهرة ١٩١٣ — ١٩١٩ م .

— المالكى (ابو عبد الله بن ابى عبد الله . ت حوالى منتصف القرن الخامس الهجـــرى) :
رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان . القاهرة ١٩٥١ م .

— الماوردى (أبو الحسن على بن محمد بن حبيب . ت ٤٥٠ هـ) :
الأحكام السلطانية . القاهرة ١٣٢٨ هـ .

— المسعودى (ابو الحسن على بن الحسين بن على . ت ٣٤٥ هـ او ٣٤٦ هـ):

١ — مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ٩ أجزاء ، باريس ١٨٦١ — ١٨٧٧م ، وطبعة مصر ١٣٠٣ هـ .

٢ — أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان (مخطوط فى مجلد رقم ٨٧٩ بدار الكتب المصرية) .

— المقريزى (تقى الدين احمد بن على . ت ٨٤٥ هـ) :
١ — المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، جزءان ، مطبعة بولاق ١٢٧٠ هـ .

٢ — الالمام بأخبار من بالأرض « الحبشة » من ملوك الاسلام . مصر ١٨٩٥ م .

— اليعقوبى (احمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح . ت ٢٨٤هـ) :
كتاب البلدان ، الجز الســـابع من مجموعة المكتبة الجغرافية ، ليـــدن ١٧٩٢ م .

— زامباور (المستشرق) :
معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى : جزءان ، ترجمة الدكتور زكى محمد حسن ، وسيدة اسماعيل كاشف ، وآخرون . مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥١ م .

— زكى محمد حسن (الدكتور) :
الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٤٥ م .

— حسن ابراهيم حسن (الدكتور) :
انتشـار الاسلام والمعروبة فيما يلى الصحراء الكبرى شرقى القارة الافريقية وغربيها معهـد الدراســـات العربية العالية ، القاهرة ١٩٥٧ م .

— حسن أحمد محمود (الدكتور) :
قيام دولة المرابطين ، القاهرة ١٩٥٧ م .

— سعد زغلول عبد الحميد (الدكتور) :

١ — تاريخ المغرب العربى . دار المعارف ، الاسكندرية ١٩٦٥ م .

٢ — كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار ، نشر وتعليق — الاسكندرية — ١٩٥٨ م .

— سيدة اسماعيل كاشف (الدكتورة) :
مصر فى فجر الاسلام . الطبعة الأولى القاهرة ١٩٤٧ م .

— عبد الرحمن زكى (الدكتور) :
المراجع العربية للتاريخ الاسلامى فى غرب أفريقيا . الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بالقاهرة ، ١٩٦٨ م .

— عبد المجيد عابدين (الدكتور) :
١ — تاريخ الثقافة العربية فى السودان ، القاهرة ١٩٥٣ م .
٢ — بين العرب والحبشة ، القاهرة ١٩٤٧ م .

— على يحيى معمر :

١ — الأباضية فى موكب التاريخ . القاهرة ١٩٦٦ م .

٢ — الأباضية بين الفرق الاسلامية . القاهرة ١٩٧٦ م .

— عوض خليفات (الدكتور) :
نشأة الحركة الأباضية . الأردن عمان ١٩٧٨ م .

— محمد عبد الله عنان :
دولة الاسلام فى الأندلس — الكتاب الأول — القاهرة ١٣٦٢ هـ / ١٩٤٣ م .

— محمد على دبوز :
تاريخ المغرب الكبير ج ٢ و ٣ ، القاهرة ١٩٦٣ م .

— نعوم شقير :
تاريخ السودان ، مطبعة المعارف بالقاهرة ١٩٠٣ م .

— ياقوت (شهاب الدين ابو عبد الله الحموى الرومى ، ت ٦٢٦ هـ) :
معجم البلدان . ٨ أجزاء ، القاهرة ١٣٢٣ هـ / ١٩٠٦ م .

— يوسف كمال (الأمير) :
أطلس افريقية ومصر : ٥ مجلدات ضخمة القاهرة ١٩٢٦ — ١٩٥١ م .

المراجـــع الأجنبية

- Basset, René : Les Sanctuaires du Djebel nefousa (Jowrnal asiatigue mai-yuin. 1899).

- De la Roncière, Charles : La Découverte de afrique au moyen - dge. La Caire 1925-1927.

- Fournel, Henri : Les Berbéres. Etude sur la conquête de l'afrique par les arabes. Paris 1875.

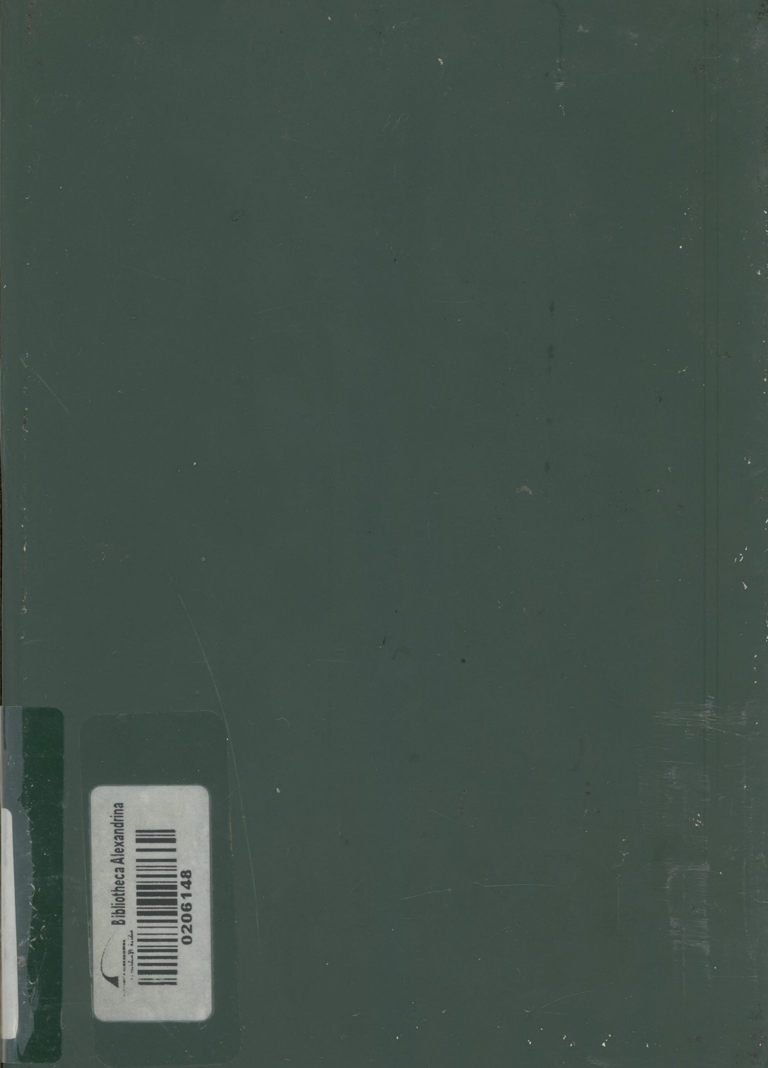
- Gautier, E. F. : Le Passé de l'afrique du nord. Paris 1942.

- Trimingham, Spencer : Islam in the Sudan. London 1949.

محتويات المجلد الثالث

رقم الايداع ٣٧٦٧ لسنة ١٩٨١

مطابع سجل العرب


Bibliotheca Alexandrina
0206148